

الأمير يوسف القرصاوي

نحو وحدة فكرية للعاملين للاستقلال

(٩)



الناري السبائي

موقفنا الاستراتيجي

من

العقل والعلم



مكتبة بؤسب



نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

(٩)

موقف الإسلاميين

من:  
العقلاء والعلماء



مكتبة وهبة

إشراف الجمعية العلمية بالقاهرة

ت. ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦





دار الكتب المصرية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

القرضاوي، يوسف .

موقف الإسلام من العقل والعلم / يوسف القرضاوي .-

القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٤  
٢٤٠ صفحة ، ٢٤ سم . (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام ٩١)

تدمك ٢ ٣٩٨ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الإسلام والعلم

٢- الإخوان المسلمون

أ- العنوان

ب - السلسلة



نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام (٩)

موقف الإسلام

من العقل والعلم

الإمام يوسف القرضاوي

الطبعة الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة

٢٤٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٠٢٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

978-977-225-398-2

### تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة  
( للطباعة والنشر ) . غير مسموح بإعادة  
نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء  
منه ، أو تخزينه على أجهزة  
استرجاع أو استرداد إلكترونية ،  
أو ميكانيكية ، أو نقله بأى وسيلة  
أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على  
أى نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية  
مسبقة من الناشر أو المؤلف .

All rights reserved to Wabbah Publisher.  
No Part of this Publication may be  
reproduced, stored in a retrieval  
system, or transmitted, in any form or  
by any means, electronic, mechanical,  
photocopying, recording or otherwise,  
without the prior written permission of  
the publisher or of the author .



النابوي الشبائي

مطبعة للكوفي  
المؤسسة السعودية بمصر  
١٨ شارع عباسية - القاهرة ١١٥١١٠٢٨



من الدستور الإلهي للبشرية  
القرآن الكريم  
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)  
﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً  
وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥١).

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء: ٩)  
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤِ الْأَلْبَابِ ﴾  
(الزمر: ٩).

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَٰؤِ الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾  
(سبا: ٤٦).





## من مشكاة النبوة الخاتمة

من أقوال الرسول ﷺ :

« من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »

متفق عليه ، عن معاوية .

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما ، اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »

متفق عليه ، عن عبد الله بن عمرو .

« لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وُطِّئوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » .

رواه الترمذي وحسنه ، عن حذيفة .

« من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ، ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

رواه أبو داود والترمذي ، وصححه الألباني ، عن أبي الدرداء .



## الأصل الثامن عشر :

(والإسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر في الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها)

حسن البناء

## الأصل التاسع عشر :

(وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا في القطعي ، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار)

حسن البناء





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مُقَدِّمَةٌ

بقلم سماحة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

(وبعد)

كلُّ علماء الأمم ودُعائِها ومفكريها الكبار عنوا عنايةً بالغةً ، بموقف الإسلام من العقل ومن العلم ، ويُنَوِّنوا ذلك بوضوح لا ريب فيه .

وهذا أمر جلي تمام الجلاء لكل من يقرأ تراث أمتنا الحي ، وينظر في كل جوانبه ونواحيه ، ولا يكتفي بجانب واحد منه .

فعندنا جوانب للعلم الديني أو الشرعي ، الذي مستنده الأساسي هو علوم الوحي النازلة من السماء إلى الأرض ، ومن عند الله العلي الكبير إلى عباده البشر ، ليعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ويتلو عليهم آيات الله تعالى ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وليقيم عليهم الحجة ، بما أنزل عليهم من بينات ، وما أوضح لهم من آيات وتعليمات .

والعلم المستند إلى هذا الجانب تفرع إلى علوم غزيرة ووفيرة ، تفرغ لها أكابر العلماء الشرعيين ، من قراء ومفسرين ومحدثين وفقهاء ، وأصوليين ومن تبعهم من لغويين وغيرهم ، ممن لهم علومهم وفنونهم وإبداعاتهم .

وعندنا جوانب للعلم العقلي ، الذي مستنده الأصلي هو العلوم العقلية ، التي بها نفسر الكون المنظور . كما نفسر الكتاب المسطور ، والتي تُعْمَلُ الفكر في قبول العقيدة ، ولا يقبل فيها ما يتنافى مع العقل ، ولا نجد له تأويلاً ، وتُعْمَلُ الفكر في

الشريعة ، فتضع لها الأصول اللائقة بها ، والتي لا تتناقض بحال مع نتائج العقول المحضة ، التي قررها أهل العلم المختصون ، واتفق عليها أولو الألباب .

ولهذا رأينا علماءنا المتميزين من كبار المتكلمين والأصوليين يخوضون هذه البحار الزاخرة ، ولا يخافون أن يغرقوا ، فقد استعدوا للسباحة فيها ، بإمكانياتهم العقلية والعلمية .

ولدينا في مواردنا مما أنتجت عقول هؤلاء الباحثة والمتطلعة والمتفتحة من الكنوز ما لا يوجد عند أمة من الأمم .

وخلاصة هذا كله قدمه الأئمة المعدّلون ، الذين زكّتهم الأمة ، وزكّتهم مواقفهم ، وما قدموه للأمة مما امتزج بالوحي ، وأصبح جزءاً منه ومن شروحه وموازينه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨١). ولو أردنا أن نذكر أسماء طائفة من هؤلاء لطلال بنا الحديث ، وسنأتي على ذكر مجموعة منهم إن شاء الله .

بحسبنا أن نتحدث عن المحدثين ، والذين هم أقرب إلينا ، وأوصل بنا ، وأعرف بما يدبر لنا ، وما يعد لأمتنا ، وما يجب أن نواجهه به .

فالأستاذ الإمام محمد عبده ، مفكّر مصر الأول ، ومفكّر الأزهر الأول ، له كلامه البين في عدد من كتبه ومقالاته ، وخصوصاً في كتابه القيم : (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) . الذي رد بها على بعض النصارى الذين تناولوا على الإسلام ، وبين لهم فيها من كتب الدينين الأصلية ، أصول كل من الدينين ، مقارنة بينهما ، بما وضع الفرق بين موقف كل منهما من العقل والمدنية .

والعلامة المجدد محمد رشيد رضا ، تلميذ الإمام وناقل علمه ، وصاحب مدرسة (المنار) التجديدية ، ومؤسس مجلة (المنار) العلمية الإصلاحية ، له كذلك موقفه الثابت من قضايا العلم ، وتبنيه ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية : إن صحيح المنقول ، لا يمكن أن يناقض صريح المعقول .

وشيوخ الأزهر الأئمة الكبار ، مثل : الشيخ محمد مصطفى المراغي ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ عبد الحليم محمود ، وأمثالهم ، كان لهم موقفهم ودورهم من (موقف الإسلام من العقل والعلم) ، وتسخيرهما لهداية البشرية وتنوير الحياة . وما الحكم إذا تناقض أحدهما مع الموقف الشرعي اليقيني أو الظني ؟

والداعية الإسلامي الأزهري الكبير الشيخ محمد الغزالي الذي ظللنا أكثر من خمسين سنة نقراً له ، ونستمع إليه ، له موقف علنيّ من العلم الحق الذي جاء به الإسلام ، وله موقف نقديّ من علماء السوء ، الذين انضموا إلى الحكام الظلمة ضد الشعوب المقهورة .

يقول رحمه الله في كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) :

« وفي العلاقة بين أجهزة الحكم وجماهير المسلمين ، وقعت فوضى رهيبة عند تفسير أحكام الشريعة الغراء ، حتى كادت الحقيقة العقلية لكلمة «الشورى» تتلاشى . وذكر الذاكرون اسماً « لأهل الحل والعقد » بحثنا عن مفهومه فلم نجدّه إلا مع الغول والعنقاء والخل الوفي!! وأوجد الحكم الفردي فقهاً ليس له أصل ديني قائم ، وفقهاء لا يستحقون ذرة من ثقة!! وقد قرأت مشروع دستور وضعه واحد من هؤلاء<sup>(١)</sup> ، فرأيت «ال خليفة المنتظر» يستمتع بسلطات دونها بمراحل سلطات القيصر الأحمر في موسكو ، أو ساكن البيت الأبيض في واشنطن .

قلتُ : وثيقة تُضم إلى غيرها من القُمامات الفكرية في حياتنا السياسية الغابرة والحاضرة على سواء!!

إن القيمة الإنسانية لحكام العرب والمسلمين لا تحتاج في تقويمها إلى ذكاء ، فهم - إلا من عصم الله - اغتتوا من فقر على حساب شعوب بائسة ، وعلوا في الأرض ، بعد إشاعة الدمار العقلي والخلقي بين السواد الأعظم من الناس ، ويعلم

---

(١) يقصد دستور حزب التحرير .

سكان المشارق والمغارب أن الحكم عند المسلمين مغنم تتلمظ له أفواه ، وأن  
الحاكمين - إلا من عصم الله - يختفون حتما في أي انتخاب حر ، كما يختفي  
الكابوس عند اليقظة .

ومع ذلك فقد وجد فقهاء يفسرون الشورى بأنها لا تلزم الحاكم! ويرون أن أهل  
الحل والعقد ينبتون من تلقاء أنفسهم ، كما تنبت الذنبية في حقول الأرز ، فهم نبات  
شيطاني لا يزرعه أحد .

هؤلاء الفقهاء يخدمون هدفا واحدا ، أن الأمة قطيع يقوده حاكم فذ ، له من  
أسباب الرغبة والرغبة ما يطوع له كل شيء ، فهم باسم الإسلام يعطونه سيف  
المعز وذهبه .

وبدیه أن الإسلام براء من هؤلاء المرتزقة ، وأن فتاواهم وأفكارهم ليس وراءها  
فقه ولا إيمان . . .

والشهيد سيد قطب ، وشقيقه محمد قطب ، كلاهما قام بما ينبغي في حق العلم ،  
أيا كان معينه ، شرعيا أو عقليا ، وسننقل من بعض كتب سيد ما لا بد منه في  
كتابنا هذا ، ليتضح موقف الأمة من العلم والدين ، وأنه موقف ليس فيه أي خلل  
أو تناقض أو تسيب . بل هو موقف قائم على الحقائق الساطعة ، التي لا تثبت  
بالهوى أو بالخيال ، أو بتصديق كل ما عند الناس ، بل بمنطق القرآن الحاسم :  
﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١) .

والإمام حسن البنا من الذين عنوا بتأهيل العقل العلمي المسلم ؛ ليقوم بدوره في  
تأهيل الأمة ؛ لتقوم بحق العلم ، كل العلم ، شرعيا كان أو عقليا .

فالأصلان الثامن عشر والتاسع عشر - وقد أوردنا نصهما قبل هذه المقدمة لهذا  
الكتاب - من الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا عليه رحمة الله تعالى  
ورضوانه ، من الأصول المهمة ، التي عنيت بالكتابة فيها كثيرا ، بغية شرحها  
وتوضيح مقاصدها للمسلمين ، وإزاحة الشبهات والالتباسات عنها ، وقد كتبت في  
ذلك أكثر من كتاب ورسالة .



فقد ألفتُ فيها من قديم رسالتي : (الدين في عصر العلم) ، وجعلته فصلا من كتابي : (بينات الحل الإسلامي) ، كما ألفت كتابي : (الرسول والعلم) ، وقدمته للمؤتمر الإسلامي العالمي ، الذي عُقد في الدوحة احتفالا بمقدم القرن الخامس عشر الهجري ، وألفت كذلك كتابي (العقل والعلم في القرآن الكريم) ، إسهاما في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

كما ألفت كتابي : (السنة مصدر للمعرفة والحضارة) . وكتابي : (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) ، وهو الكتاب الثاني في شرح الأصول العشرين للإمام حسن البنا .

وكذلك كتابي : (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) ، و(كيف نتعامل مع السنة النبوية؟) لا يخلو كل منهما من حديث له أهميته عن العقل والعلم والموقف منهما .

فالموضوع ليس جديدا عليّ حين أكتب فيه اليوم مستكملا شرح ما بقي من الأصول العشرين ، للإمام البنا ، شرحا علميا أصوليا فقها ، حتى تفهمها الأمة ، وتعمل بها ، وتدعو إليها ، وتمتزج عقليتها بالقرآن والسنة ، وأصول الأمة ، ولا تشذ عنها في مبدأ من المبادئ ، أو قاعدة من القواعد ، أو أصل من الأصول .

فلا شك أن الإسلام هو أعظم دين يُحرر العقل ، ويؤيد العلم ، ويشيد بالبحث ، ويحث على النظر في الكون ، وينشئ العقلية العلمية ، ويرفض العقلية المستسلمة لكل ما يتوارثه الناس ، دون مناقشة له ، وعرضه المُسلّمات والواضحات الدينية والعقلية . وله موقفه البين حينما يختلف ما هو يقيني عما هو ظني في الجانب الشرعي ، أو الجانب العقلي ، وماذا نقدم ، وماذا نؤخر ، فهو يرى أن القضيتان لا تتناقضان أبدا ، فلا تناقض يوما بين حقيقة شرعية ثابتة ، وحقيقة عقلية قاطعة ، وإلا فلا بد أن تكون إحداهما خاطئة أو مؤولة .

وهنا يجب أن نقول شيئا بمناسبة شرحنا لأصول إمامنا البنا رحمه الله .

وإننا لنرجو أن يكون ما قدمه في هذه الأوراق ، هو ما يحتاج إليه شبابنا المثقف في مصر ، وفي بلادنا العربية ، وفي سائر أمتنا الإسلامية ، وأن يحمل خيرا تتطلبه الإنسانية ، التي أتعبها ظلم الإنسان وجهله في أنحاء العالم ، فهو يبحث يمينا ويسارا ، وشرقا وغربا ، ولا يجد الدواء الذي ينشده ، ولا النور الذي يبتغيه ، ولا الحياة التي يريد أن يحيها ، وهي عند المسلمين وحدهم في دينهم ، وكتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وأصيل فقهاءهم ، وراسخ علم متكلميهم وأصوليهم ، وما تميزوا به عن الأمم من هدي ونور .

وقد مثل القرآن نور الله في قلب المؤمن بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ (أي : في قلب المؤمن) ﴿ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَنَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٣٥).

كما مثل ظلمات الكفر وإدلهامها في قلوب الكافرين ﴿ كَظُلُمَتِ فِي سَكْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور: ٤٠) .

في الدوحة : ٢٤ من ربيع الأول ١٤٣٤هـ

الموافق : ٥ من فبراير ٢٠١٣م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

(١)

## الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر والعلم

### الإسلام يحرر العقل :

أول ما قاله البنا في أصله الثامن عشر : (إن الإسلام يحرر العقل)، وهذه بلا زيب نعمة عظيمة ، كأن أول ما يميز الإنسان عن سائر الحيوانات : أن الله تعالى منحه العقل ليفكر به ، ويتأمل في نفسه وفي آيات الكون من حوله ، ويتعلم ما يمكن تعلمه ، بأدواته المختلفة من السمع والبصر والفؤاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦) .

لذلك كان تحرير هذا العقل - الذي هو المنحة الكبرى للإنسان - من كل ألوان الأسر والرق والحجر عليه ، والحجب له عن التفكير الحر ، والتعلم المستقل ، والبحث الدؤوب ، هو من أعظم ما دعا إليه الإسلام في كتابه وسنة نبيه ، وفي أصوله الفكرية والدينية .

### تحرير العقل من أسر الخرافات والأباطيل :

دعا الإسلام كل من يدخل فيه إلى أن يحرر عقله من كل قيد يعوقه ، ومن كل أسر يحجزه ، ومن كل سجن يضيق عليه .

دعا الإسلام أولا إلى تحرير العقل من الأباطيل والخرافات التي يعتقدها الناس ، وترسخ في أذهانهم وأنفسهم ، من غير أدلة تقوم عليها ، وتستند إليها .

فهم يُخَوِّفُونَ أطفالَهُمْ منذ صغَرِهِمْ من (البُعبع)، وليس هناك حيوان ، أو وحش معين اسمه : (البُعبع) ، إنما هو شيءٌ للتخويف بالباطل ، وكثيرا ما يزعج الأولاد ويسبب لهم مشاكل نفسية ، جاءت من وراء هذا الإيهام .

وهم يحدثونهم في أساطيرهم عن (الغول) و(أَمْنَا الغولة) حين تكشف عن نفسها ، وتُبرز أسنانها الحادة ، وتفترس صاحبها أو صاحبته ، وكل ذلك يُدخل الرعبَ في قلوب الأولاد بغير حاجة إليه ، وقد قال الشاعر العربي :

أَيَقْنَتُ أَنْ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ      الْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالْخِلَ الْوَفِيُّ

ومن الأباطيل التي يبالغ الناس في الحديث عنها : ما يتعلق بالجن ، وأن أحدهم رأى كلبا بالليل ، فظل الكلب يكبر ويكبر ، حتى صار مثل الثور ، وأن أحدهم رأى امرأة عليها ثياب يغطيها الذهب من رأسها إلى قدمها ، وأنها فعلت كذا وكذا . تظهر هذه العفاريث ، بعد أن يُقتل مقتول ، فيقول الناس : رأيناه في المكان الفلاني ، وفي الزمان الفلاني .

وهناك خطابات وقصص يرويها الناس بعضهم لبعض ، كلها تقوم على الخيال والأوهام ، ليس لها أي ظل من الحقيقة ، ولا اتصال بالواقع المعيش للناس . والإسلام يريد من المسلم ألا يُصدّق بكل ما يُقال له ، إلا ما قام عليه برهان ساطع ، لا يمكن التشكيك فيه ، أو قام على أساس المشاهدة بالبصر بغير تخيل ، أو جاء به وحي إلهي ، ثبتت صحته بالأدلة القاطعة .

ينادي القرآن المسلمين خاصة ، وأهل الأديان عامة ، وخصوصا الأديان الكتابية : أن يجعلوا البرهان العقلي اليقيني هو الحكم بينهم فيما يختلفون فيه من أمور ، سواء كانت تتصل بالدين أم بالحياة ، كما قال عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١).

وقد ناقش القرآن المشركين مناقشة مفصلة حول الإجابة عن سؤال واحد ، هو : ﴿ أَعْلَمَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ ، وسرد آياتٍ عدّة حول هذا الأمر ، حتى قال لهم : ﴿ أَمْنَ يَبْدَأُ

الْحَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَّهَنَكُم  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (النمل: ٦٤).

وفي مقام آخر قال للمشركون بصراحة : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا  
بُرْهَانَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤) .

وإذا اعتمد العقل الإنساني على البرهان - ونعني به البرهان القطعي -  
لا ما يدعي البعض أنه برهان ، فإذا اختبرته وجدته قائما على الوهم أو الظن ، وقد  
قال تعالى معقبا على موقف بعض الكافرين : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ  
لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس: ٣٦).

وفي موضع آخر قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ  
لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم: ٢٨) .

التحرير العقلي من أسر التقليد :

كما جاء الإسلام بتحرير العقل من أسر التقليد الأعمى ، بحيث يلغي المرء  
عقله الذي آتاه الله إياه ، ليستخدمه في إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإثبات  
الوقائع ، وتمييز الأمور بعضها من بعض ، وإيجاد البدائل عند اللزوم ، فجاء  
الإسلام بقرآنه العظيم ، وبسنة نبيه الكريم ، ليدعو العالمين أن يعملوا عقولهم التي  
استودعهم الله إياها ، فلم يودعهم إياها ليسجنوها ، أو ليعطلوها ، أو يضعوها في  
طريقها عقبات ومعوقات ، بل ينبغي أن تفكر وتعمل بكل طاقتها ، وبكل حريتها ،  
وبكل ما آتاه الله من إمكانيات . ومن المهم هنا : التحرر من تقليد الغير ، أيا كان  
هذا الغير .

أ- التحرير من قيد اتباع الآباء :

وأول التحرر من القيود التقليدية : قيد التحرر من اتباع الآباء والأجداد ، فكثيرا  
ما وقف هذا الحاجز دون الاستماع والإنصات الحق إلى دعوات أنبياء الله تعالى  
ورسله ، فيما جاؤوا به من البينات والهدى للناس .

فتجد هوذا عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من بطر وتجبّر وتظالم ، متكلمًا معهم بالحسنى ، فما كان منهم إلا أن قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٠).

وكذلك وقف الكثيرون من الأقوام المختلفة مثل هذا الموقف الغبي من رسل الله إليهم ، ومنهم مشركو العرب ، حين جاءهم خاتم رسل الله محمدٌ ، فدعاهم إلى توحيد الله ، والشهادة له بالرسالة ، وتبني مكارم الأخلاق التي جاء بها من ربه ، فرفضوا هذه الدعوة الخيرة البصيرة ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

وفي مقام آخر قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وهذا هو موقفهم الثابت الذي لا يتحرك : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿ ١٣ ﴾ \* قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢-٢٤).

بهذه المناقشات العقلية المضيفة والمنيرة يخاطبهم القرآن ، ليعمل على زحزحة هذه العقول الجامدة ، كأنها الحجارة أو أشد قسوة ، فلم يسلموا إلا بعد مشوار طويل ، سقط فيه من سقط ، ونجا فيه من نجا .

## ب - تحرير العقل من قيد السادة والكبراء :

كما دعا الإسلام إلى تحرير العقل من قيود ضغط تقاليد الآباء والأجداد ، دعا أيضا إلى تحرير العقل من اتباع السادة والكبراء ، فالسيادة والكبرياء ليست معيارا للحق ، كما أن الأبوة بمراحلها المختلفة ليست معيارا للحق .

ولكن العرب كغيرهم اتبعوا ساداتهم وكبراءهم ، واعتبروهم أولى بالحق من غيرهم ، كما اعتبر الآخرون آباءهم أولى بالحق من سواهم .

ومن المؤسف أن يظلَّ الناس وراءَ هذا الباطل الصُّراح ، الذي لا سَنَدَ له من منطق ولا علم ، ولا هَدًى ولا كتابٍ مُنير ، إلى أن تنكشف الحقيقة ، ويظهر وجهها علناً للناس ، فاضحاً ما كانوا عليه من هذيان وتُرْهات ، اتَّضح كذبها ، وبان زيفها ، وظهر انخداع الجميع بها .

يظهر القرآن هذه المناقشات والمحاجات والمخاصمات بين هذه الطوائف المتشاكسة ، من الكبراء المرموقين والفقراء المستضعفين ، وما بينهما من مقولات ومصارحات ومصادمات .

انظر ما قاله القرآن في سورة البقرة : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿ (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

وفي سورة الأعراف يقول سبحانه : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿ (الأعراف: ٣٨، ٣٩) .

وفي سورة (ص) نرى مشهداً خاطفاً من مشاهد أهل النار يظهره القرآن لنا فيقول : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ (٦١) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُبْسِ الْقَرَارُ ﴿ (ص: ٥٩-٦١) .

وتعرض لنا سورة سبأ مشهداً أوسع ، يختصم فيه المشركون والضالون بعضهم مع بعض ، ولو كان معهم أسلحة لقتل بعضهم بعضاً ، ولكنهم يتقاتلون بالألسنة وبالكلمات ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ



يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَخْنُ صَدَدْتُمْ عَنْ أَهْدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ (سبأ: ٣١-٣٣) .

لقد خلع المستضعفون والفقراء عقولهم ، وتركوها لسادتهم وكبرائهم ، فلم يغنوا عنهم شيئا ، وتبرؤوا منهم . كما تبرأ الضعفاء منهم ، كما حكى لنا القرآن في هذه السورة (سبأ) ، وفي سورة الأحزاب : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٨﴾ (الأحزاب: ٦٧، ٦٨) .

وما زال القرآن وراء هؤلاء الفقراء والمستضعفين ، يقوِّمهم ، ويرفع من شأنهم ، ويعلي من كرامتهم ، ويشعرهم أنهم ليسوا أقلّ وزنا من هؤلاء المنتفخين بالباطل ، المستكبرين بأموالهم وسلطانهم وأتباعهم ، ولكن الإنسان لا يعلو إلا بنفسه هو ، بما في رأسه من عقل يفكر ، وما في صدره من قلب يخفق ، وما في جوانحه من مشاعر صادقة ، لا تزييف فيها ولا مراعاة .

### ج - تحرير العقل من سلطان الأساتذة والشيوخ :

كما حرّر القرآن العقل من سلطان الآباء وسلطان الكبراء ، حرّره كذلك من سلطان الأساتذة والشيوخ ، الذين استعبدوا عقله ، وجعلوه ذيلا لهم ، يفكر بتفكيرهم ، ويتكلم إذا نطقوا ، ويصمت إذا سكتوا ، ويؤمن إذا آمنوا ، ويكفر إذا كفروا .

والعقل لا يوجد ولا يعمل إلا إذا كان حراً مستقلاً ، أما إذا فرضت عليه وصاية من الخارج ، فإنه يصبح معطلاً ، لا عمل له ، ولا جهد له ، ولذا كان التقليد هو آفة العقل الأولى ، ولهذا حاربه الإسلام ، وقاومه علماء المسلمين الأحرار ، ورفضوا أن يكون العقل تابعا لأي مخلوق غير صاحبه المؤمن بالله ورسوله ، ولا يجوز له أن يتبع مخلوقا من المخاليق ، يصدقه فيما صدق به ، ويكذبه فيما كذب به .

قال ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس : « دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين :

أحدهما : التقليد للآباء والأسلاف .

والثاني : الخوض فيما لا يدرك غوره ، ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه ، فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخليط .  
فأما الطريق الأول : فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشبهه ، والصواب قد يخفى ، والتقليد سليم .

وقد ضلّ في هذا الطريق خلق كثير ، وبه هلك عامة الناس ، فإن اليهود والنصارى قلّدوا آباءهم وعلماءهم فضلوا ، وكذلك أهل الجاهلية .

واعلم أن العلة التي بها مدحوا التقليد ، بها يذم ؛ لأنه إذا كانت الأدلة تشبهه ، والصواب يخفى ، وجب هجر التقليد ؛ لئلا يقع في ضلال ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى الواقفين مع تقليد آبائهم وأسلافهم ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ \* قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ (الزخرف: ٢٣، ٢٤) . المعنى : أتبعونهم ؟ وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُرْعُونَ ﴾ (الصفات: ٦٩، ٧٠) .

قال المصنف : اعلم أن المقلّد على غير ثقة فيما قلّد فيه ، وفي التقليد إبطال منفعة العقل ؛ لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر ، وقبيح بمن أُعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة»<sup>(١)</sup> .

إن شيخ الإنسان ومعلمه يجب أن يكون بمثابة حامل المصباح ، عندما يظلم الطريق عليه يخرج له مصباحه ، ويضيئه له ، لينير الطريق ، فيعرف يمينه من شماله ، وأمامه من خلفه ، ويسير على هدى ، وليس مهمة الشيخ والمعلم أن يحمل التلميذ على كتفه ، ويمشي به حيث يريد هو ، فليست هذه أستاذية ، ولا هذه تلمذة .

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٧٤ ، ط . دار الفكر بيروت ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

لقد اعترض القرآن على الذين غلّوا كل الغلو حينما جعلوا شيوخهم كأنهم أنبياء يوحى إليهم من الله ، وهم ليسوا كذلك . إنهم بشر يصيبون ويخطئون ، ولأجل هؤلاء ذم الله أهل الكتاب ، وما اعتقدوه في شيوخهم وأخبارهم ، فقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

وقد كان عدي بن حاتم الطائي - العربي السري ، المشتهر بالجود والسخاء - ممن تنصروا في الجاهلية ، وقد دخل على الرسول ، وهو يقرأ سورة التوبة ، وجاء إلى هذه الآية التي تتحدث عن الأخبار والرهبان ، ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، يقول عدي : فقلت : إنا لسنا نعبدهم . فقال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ » قلت : بلى . قال : « فتلک عبادتهم »<sup>(١)</sup>.

#### د - تحرير العقل من اتباع العامة :

وأخيرا يسعى الإسلام بقرآنه وسنة نبيه ، وبكل تعاليمه وتوجيهاته ، إلى تكملة تحرير العقل البشري من كل ما هو مُسلط عليه ، ومعطل له عن الإنتاج النافع ، وهنا يحرره نهائيا من سلطان اتباع الجماهير الغافلة ، من عامة الناس ، الذين كثيرا ما يسرون وراء الآباء ، أو وراء الكبراء ، أو وراء الأساتذة والشيخ ، الذين اعتبروا أنهم يفكرون لهم ، وأنهم كأنما أعطوا عقولهم إجازة طويلة ، ليس عليهم فيها أن يفكروا ، ولا أن يناقشوا ، ولا أن يسألوا ، ولا أن يضيئوا هذه الشمعة وقتا ما ليستفيدوا من نورها .

فمن العجب العاجب ، أن ترى بعض الناس في مجتمعاتنا تغلق عقولها ، ولا تسمح لها بأن تنفتح يوما للعمل والتفكير ؛ لأنه قد أراح نفسه من ذلك ، حيث قد حدد موقفه مقدما تحديدا دقيقا صارما ، وهو : أن يكون مع الناس ، مع

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥) ، وقال : غريب . والطبراني في الكبير (٩٢/١٧) ، والبيهقي في آداب القاضي (١٠/١٩٨) ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣) . عن عدي

الأكثرية ، إن قالوا في أمر : نعم ، قال : (نعم) . وإن قالوا في أمر : لا . قال بكل بساطة : (لا) . أما هو - كإنسان له عقله وفكره وثقافته ودينه ورسالته - فليس له في الحقيقة موقف .

وهذا أمر مؤسف حقا : أن يتنازل الناس عن تفكيرهم ، وعن شخصيتهم ، وعن مسؤوليتهم ، مع أن كل إنسان مسؤول عن نفسه ، ليس أحد مسؤولا عنه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨) .

وهذا ما حذر منه نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا »<sup>(١)</sup> .

بهذا ارتفع الإسلام بموقف الإنسان ، بحيث يكون له موقفه المحدد ، ويكون له قراره الخاص ، ويكون له رأيه المعلن ، ليس تابعا لفرد ولا مجموعة ، بحيث تفقده عقله ورشده ، وتفكر عوضا عنه ، فتتخذ له قراره هو ، ولا يتخذه لنفسه .

وهذا ما يشيع وينتشر في البلاد التي تفقد فيها الحريات العامة ، وبعض الناس فيها مسوقون إلى ما يراد لهم ، لا إلى ما يريدون هم لأنفسهم ، فكلهم غدوا (إمعات) مع ما يريده الفرعون ، وليس مع ما يراه عقله هو ، يكذب الأنبياء إذا كذبهم السلطان ، ويصدق الشيطان إذا صدق الناس الشيطان .

ورحم الله شوقي حين عبر عن موقف هؤلاء في (مجنون ليلي) فقال على لسان بعض هؤلاء :

أحبُّ الحُسَيْن ، ولكنني لسانِي عليه ، وقلبي معه  
إذا الفتنة اضطرمَّت في البلاد ورُميت النجاة ، فكن إمعة

والإسلام لا يرحب بهذه الفئات ، بل يعاديها ، ويحارب كثرتها ، فإنها تهدم ولا تبني ، وتُميت ولا تُحيي ، وتُضعف ولا تُقوي .

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، والبخار (٢٨٠٢) . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١) ، عن حذيفة .

وتقوم دعوة الإسلام ، وتربية الإسلام ، وتشريع الإسلام ، على أن يعيش الناس كما خلقهم الله ، بعقولهم ، ومواهبهم وضمائرهم ، فقد أنزل الله كتابه ، وبعث رسله ، وخلق كونه ، ومنح قوانينه ، لـ (قوم يعقلون) ، ولـ (أولي الألباب) .

### الإسلام يحث على النظر في الكون :

بعد حث الإسلام العقل على التحرر من كل ما يشبطه ويحجزه عن العمل والتدبر والتفكر ، يدعو الإسلام بقوة إلى النظر في هذا الكون الفسيح من حولنا ، فإنما خلقه الله لنا ؛ لتأمله ، ونعتبر به ، وندرسه ، ونستفيد منه .

لم يخلق الله هذا العالم لحاجته إليه ، كلا ، فهو سبحانه غني عن العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٧-١٥) .

ومستحيل أن يحتاج الخالق إلى مَنْ يخلقه ، أو ما يخلقه ، أو يحتاج الرزاق إلى مَنْ يرزقه ، وما يرزقه ، أو يحتاج المدبر إلى مَنْ يدبره وما يدبره .

كل هذه الكائنات المُحدثة المخلوقة هي المحتاجة حاجة دائمة إلى الله تعالى ، في بدايتها ، وفي بنائها ، وفي استمرارها ، وفي إتمام خلقها ، وإعطائها ما تفتقر إليه من الإعداد والإمداد ، كما قال سبحانه ، حين سأل فرعون موسى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ (١١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ (طه: ٤٩، ٥٠) .

وبهذه العناية الربانية ، التي تطلع على ما يفتقر إليه كل شيء ، حي أو غير حي ، ناطق أو غير ناطق ، عاقل أو غير عاقل ، كل في حاجة إليه ، ليقوم بأمره ، ويبلغ غايته ، ويتطلع على ما يراد منه ، فيمده ربه بكل حاجاته ، من غير فقر ولا نقص ، ولا شح ولا بخل ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا أَمْسَكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠٠) .

هذا الكون الكبير الواسع بأرضه وسماواته ، بإنسانه وحيوانه المستأنس ، وحيوانه الوحشي ، وزواحفه وطيوره ، وحشرات ونباتاته ، وأشجاره بفصائلها المتعددة ، التي لا نحصى عدداً بأنواعها ، والأسماك والحيتان ، والحيوانات المائية ، والماء الذي

يَكُونُ حِوَالِي ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا ، وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ مِنْ فَوْقِنَا ،  
الَّتِي لَا نَعْرِفُ عَنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ ، وَكَأَنَّ مَعْظَمَهُ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، أَيْ الْقَرِيبَةِ مِنَ  
الْأَرْضِ وَمِنَا ، وَنَرَى شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا وَنَجُومَهَا ، وَكُلَّ مَا يَحِيطُ بِهَا مِنْ نَجُومٍ  
وَمَجْمُوعَاتٍ وَمَجَرَاتٍ ، لَا يَعْلَمُ عَدْدَهَا وَلَا مِقَادِيرَهَا وَلَا آثَارَهَا إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ  
الْكَبِيرُ .

هَذَا فِي الْكَوْنِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُبْصَرَ ، وَهَنَّاكَ كَوْنٌ لَا يُبْصَرُ ، وَهَذَا أَوْسَعُ وَأَكْبَرُ  
وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ الْمَنْظُورِ ، كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿٣٨﴾  
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴾ (الحاقة: ٣٨، ٣٩).

هَذَا الْكَوْنُ فِيهِ مَخْلُوقَاتٌ غَيْرُ مَرْتَبَةٍ ، كَالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ بَثَّهِنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا  
الْكَوْنِ ، فَهَمَّ مَعَ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَاهُمْ ، وَلَا يَحْسُبُهُمْ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ  
لَحَافِظِينَ ۖ ﴿٣٩﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ۖ ﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢) .  
﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۖ ﴾

(الزحرف: ٨٠) .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ ﴿٤٠﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا  
لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۖ ﴾ (ق: ١٧، ١٨) .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ  
تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۖ ﴾ (الأنعام: ٦١) .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۖ ﴾

(السجدة: ١١) .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى  
وَتَلَتْ وَرُبَعَ ۚ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ﴾ (فاطر: ١) .

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ : ﴿ تَزَلْ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۖ ﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ  
الْمُنذِرِينَ ۖ ﴿٤١﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۖ ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥) .

﴿ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ (القدر: ٤) .

وقال عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٩٨) .

وقال تعالى عن أهل الحق : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٣٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣) .

وقال تعالى عن النار وأهلها : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحریم: ٦) .

﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مِكْتُوبٌ ﴾ (الزخرف: ٧٧) .

والملائكة يبعثهم الله في المعارك بين الإسلام والكفر ، لتأييد المؤمنين وتثبيتهم ، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٣﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٩-١٣) .

هذا الكون الكبير الذي نعيش في جزء صغير صغير صغير منه ، يطالبنا القرآن أن ننظر فيه ، ونتأمل بكل ما لدينا من طاقات ، ونعم وإمكانات ، وهبها الله تعالى لنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى



الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿النحل: ٧٨، ٧٩﴾ .

فالإنسان خُلِقَ جاهلاً ، ولكنّه مزوّد بكل الأدوات والوسائل اللازمة للمعرفة ، فوهبه الله السمعَ قبل كل الحواس ، ثم البصر ، ثم الفؤادَ ، وهو العقل ، وهذه هي نوافذ الإنسان على الكون الكبير من حوله ، عليه أن يوظفها في معرفته ، وقبل ذلك في معرفة نفسه : ما هو؟ ومن هو؟ فلا يصوّر نفسه حيواناً ، أو كالحيوان ، قرداً أو غير قرد ، ولا يتصور نفسه إلهاً أو كالإله ، وهو مخلوق من نُطفة ، ومن ماء مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٦، ٣٥) .

على الإنسان المستخلف في هذه الأرض : أن ينظر في هذا الكون الكبير ، الذي يحيط به ، فهو عن يمينه وعن شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته ، وقد دعاه ربه وخالقه ، وخالق الكون من قبله ، أن ينظر فيه ، ليس مجرد نظر العين ، ولكن المرادُ نظرُ العقل المفكر ، الذي يتأمّل ويتدبّر ، ويقارن ويوازن ، ويراجع ويشاور ، فقد علّمنا من مُكتشفات العلم الحديث : أن كلّ جزئية في هذا الكون إنْ فُكِّرَتْ فيها وتأمّلتها ، وجدتَ فيها آلاف الجزئيات الأخرى الماثلة فيها .

فلو فُكِّرَتْ في الإنسان - في كل إنسان - لوجدتَ ألّوفاً من البحوث ، لا تكاد تنتهى أمامك ، يبحثها كل امرئ من جهة تخصصه أو اهتمامه ، فالعالم البيولوجي يرى منه ما لا يراه العالم الفيزيائي ، أو العالم الكيميائي ، أو العالم الجيولوجي ، أو العالم الفلكي ، أو العالم البحري ، أو العالم الرياضي أو العالم الديني .

لو نظرتَ في بداية خلق الإنسان ، وهي النُطفة التي خُلِقَ منها الإنسان : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس: ٧٧) .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى ﴾ (٤٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٤٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٤٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ مُنْجَى الْمُتَوَنَّى ﴿٥٠﴾

(القيامة: ٣٧-٤٠) .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٤) .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ (الطارق: ٥-٨) .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

(الحج: ٥) .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

(الإنسان: ٢) .

إنَّ الإنسانَ إذا نظر في نطفته الأصلية ، في هذا الماء المهين ، أو الماء الدافق ، الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، وجد في هذه القطرات التي تنزل من الرجل ملايين ، أو مئات الملايين من الحيوانات المنوية ، التي يصلح كلُّ منها ليُخلق منه إنسانٌ كامل ، فانظر في هذه الوفرة الهائلة التي وفّرها الله لكل إنسان ، وهو يحتاج إلى واحد منها .

وهو ييسر لها بسرعة الوصولَ إلى الصنف الآخر الذي تفرزه الأنثى ، وهو : (البويضة) المهيأة ، أو هذه العروس المهيأة لهذا (المُعرس) ، كما يقول الخليجيون ، لِيُزَفَّ إِلَيْهَا ، ليقوم بينهما حياة مشتركة ، ينقسمان فيها إلى ما شاء الله ، وتكون مشروعَ الإنسان المرتقب ، ويتعلق هذا الكائن الصغير بجدار الرحم الذي سماه القرآن : (القرار المكين) ، ليظلَّ في بطن الأم ، يتغذى من دمها ، ويحيا بحياتها ، ويعيش بها تسعة أشهر ، حتى يأتي أوان الولادة ، فيخرج إلى الفضاء الفسيح ، ليسمعه من حوله وهو يبكي ويصيح .

يقول الشاعر :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا      يَكُونُ بَكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُوَلَّدُ  
وَالَا فَمَا يَكِيهِ مِنْهَا؟ وَإِنَّهَا      لَأَفْسَحُ مَآكَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ<sup>(١)</sup>

إن الذين فكروا في هذه النطفة أو القطرة من المني ، تحدثوا كثيرا ، وفصلوا كثيرا في عظمة خلق الله تعالى ، وكيف يحتوي هذا الكيان الصغير كل موارث الأبوين ، والأجداد ، والأسرة ، والقبيلة ، والفصيلة ، والجنس البشري ، كيف يرث اللون والجنس ، والطول والعرض ، والبياض والسواد ، وما بينهما ، ولون العين ولون الشعر ، والذكاء والغباء ، والوجدان والانفعال ، وأشياء كثيرة أخرى ، تحكمها قوانين وقواعد هائلة ، كما دلت على ذلك (البصمة الوراثية) ، وغيرها من قوانين الوراثة .

الكلام يطول حول هذه النطفة ، وما أودع الله فيها ، وما يكتشفه نظر الباحث ، أو أنظار الباحثين فيها ، وكل يوم يكتشفون لنا جديدا غير ما كان من قبل ، حتى اكتشفوا لنا أخيرا ما سموه «الجينوم البشري» .

فإذا سعينا وتقدمنا لننظر في هيئة الإنسان وأعضائه الظاهرة ، وأعضائه الباطنة ، وحواسه الخمسة ، وربما زادت على الخمسة .

ولو بحثنا عن القوى الباطنية للإنسان ، من العقل والروح والضمير ، لوجدنا هناك مساحات رحبة ، لبحث المفكرين ، ومجالات فسيحة ، لتأملات المتأملين ، وفرصا واسعة لمختبرات العالمين ، ثم إذا تركنا الإنسان - وهو مجال بحث واسع - وجدنا الكون من حوله ، كله مجالا مفتوحا لفكر الإنسان ، ونظر الإنسان ، كما علمنا القرآن .

يقول القرآن : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ

(١) من شعر ابن الرومي .

وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ  
بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١٢﴾ (ق: ٦-١١) .

﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ  
﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١) .

﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَىٰ فِي  
الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا  
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤) .

وأحيانا يطلب القرآن النظر في سير الخلق وسُنَّهه ، وسير الأمم وتطوراتها ،  
وما أنزل الله بها من عقوبات وآيات ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت: ٢٠) .

فهو ينظر إلى ما يستطيع أن يصل إليه من معرفة تتاح له عن بدء الخلق ،  
وما ينتهي إليه من النشأة الآخرة .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١) .  
﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ  
أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) .

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ  
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١) .

هذه الدعوات المتكررة الصادرة من رب السماوات والأرض ، إلى الإنسان أمره  
له أن ينظر في هذه المخلوقات الكبرى ، التي تُحيط به ، وإلى كل ما خلق الله من  
شيء ، فليس هناك شيء محظور عليه أن يتعامل معه ، وينظر فيه بعقله ومواهبه  
ومعارفه ، على أن يكون مرهونا بإمكانات عقله ، غير ملزم بما وصل إليه غيره  
ما لم يقتنع به .

إن هذا النظر الذي أمر الله تعالى به المؤمنين في القرآن ، هو النظر في هذا  
الكون ، وفي أنفسنا ، باعتبارنا جزءا من هذا الكون ، كما أشار إلى ذلك القرآن  
بصراحة في قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمُوقِنِينَ ﴾ ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا  
تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) .

وقال عز وجل : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ  
الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣) .

هذا النظر اعتبره من الفروض الدينية ، التي أوجبها القرآن على كل من آمن به ،  
وكل من دخل في الإسلام ؛ لأنه جاء بصيغ كلها تدل على الإيجاب والفرضية ،  
فهي من حيث الثبوت قطعية متواترة ، ككل آيات القرآن ، وهي من حيث الدلالة  
قاطعة كذلك ، فهي أمرة كقوله : ﴿ قُلِ أَنْظَرُوا ﴾ ، ﴿ قُلِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ  
أَنْظَرُوا ﴾ ، ﴿ قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، أو محرصة بطريقة أخرى  
من طرق الخطاب ، وهي أشد من الأمر المباشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ  
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) .

وهذه كلها تجعل هذه النصوص من (القطعيات) ، التي لها في الدين مقام مكين ،  
من وجوب الانصياع لها ، وعدم التهاون فيها ، فهي لا تسمح بذلك ، إلا لمن يريد  
أن يمرق من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية .

الإسلام يرفع قدر العلم والعلماء :

كما حرر الإسلام العقل من كل القيود التي يفرضها الناس عليه ، وكما يحث  
العقل على النظر في الكون كله : في الآفاق وفي الأنفس ، في العالم العلوي

والسفلي ، ليصل إلى ما يستطيع البشر أن يصلوا إليه بما لديهم من وسائل وطاقات ، فإنه يرفع قدر العلم والعلماء ، ويأمر بطلب العلم من مظانه ، وأخذه من أهله ، والسعي إليه ، والرحلة في طلبه ، والتأدب مع من يأخذه منه ، تأدب التلميذ المهذب مع أستاذه المعلم .

وقد قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨) .

فانظر كيف بدأ سبحانه بشهادته هو ، ثم ثنى بالملائكة ، ثم ثلث بأولي العلم ، قال الغزالي : « وناهيك بهذا شرفا وفضلا ، وجلاء ونبلا ، وقد ذكر جملة من النصوص في كتاب العلم من (الإحياء) ، الذي اعتبره أول كتاب من كتبه الأربعين ، من ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

(المجادلة: ١١) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

(الرعد: ٤٣) .

وقال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ ﴾ (النمل: ٤٠) .

تنبيهًا على أنه اقتدر بقوة العلم .

وقال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ

ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ (القصص: ٨٠) . بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣) . ردَّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم ، وألحق رُتبهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦) . يعني : العلم ، و«ريشا» يعني : اليقين ، «ولباس التقوى» يعني : «الحياء» .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (الأعراف: ٥٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ﴾ (الأعراف: ٧) .

وقال عز وجل : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾

(العنكبوت: ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٣، ٤) . وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان<sup>(١)</sup> .

وأما الأخبار ، فقد ذكر الغزالي هنا جملة كبيرة من الأحاديث النبوية ، ولكن حينما خرجها الحافظ العراقي ، وجدنا بعضها ضعيفا ، أو موضوعا ، أو لا أصل له ، ولذلك نكتفي مما هو صحيح أو حسن منها .

من ذلك قول رسول الله ﷺ : « من يُردِ اللهُ به خيرا يفقهه في الدين »<sup>(٢)</sup> .

وقال ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ، ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »<sup>(٣)</sup> .  
ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

(١) انظر : إحياء علوم الدين : ٤/١ ، ٥ ، طبعة دار المعرفة لبنان .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الكسوف (١٠٣٧) ، عن معاوية .

(٣) رواه أبو داود في العلم (٣٦٤١) ، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢) ، عن أبي الدرداء .

وقال ﷺ : « يستغفر للعالم ما في السموات والأرض »<sup>(١)</sup>.

وأى منصب يزيد على منصب من تشغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له؟!!

## أقسام العلم وأنواعه :

والعلم الذي يطلبه الإسلام من المسلم أقسامٌ وأنواع وألوانٌ ، بعضه من علوم الدين ، وبعضه من علوم الدنيا ، بعضه مما يُطلب من كل مسلم طلباً عينياً ، بحيث يكون فرضاً عليه أن يطلبه ، وبعضه يكفي أن يحصله البعض إلى درجة الإتقان ، ويكفي فيه العدد الذي يلبي حاجة الناس .

وبعض العلم يحرم على الإنسان أن يُنفق وقته وجهده ، وماله وعمره في طلبه ، وليس من ورائه فائدة يستفيدها طالبه في دينه ، ولا في دنياه ، لا له ، ولا لمجتمعه ، كما في علم السحر ونحوه .

وبعضه يفيد القليل منه ، ولا يفيد الكثير ، ويكفي أن يتخصص فيه عددٌ قليل من الناس يُرجع إليهم ، مثل العلم بالأديان الوثنية ، وما فيها من أباطيل وخرافات ، وما لها من أوضاع وتقاليد ، وما وراءها من مصادر وكتب ، وأحبار وكهان .

وقد اعترف الإسلام بهذه الأقسام والأنواع في العلوم والمعارف التي يطلبها الناس ، ولم يدّع أن العلم الوحيد هو علم الدين ، كما يزعم ذلك بعض المتدينين ، وربما بعض من يتسمون بأنهم من علماء الدين .

\* \* \*

---

(١) رواه أحمد (٢١٧١٥) ، وقال مخرجوه حسن لغيره ، وابن ماجه في المقدمة (٢٣٩) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٥) عن أبي الدرداء .



## أول ما يطلب من المسلم علم الدين

لا شك أن هناك علماً يختص بالدين ، وهو العلم الذي أساسه وحي الله تعالى إلى رسول من رسله ، كما أوحى إلى إبراهيم ، وإلى موسى ، وإلى المسيح عيسى ابن مريم ، وإلى محمد بن عبد الله ، عليهم الصلاة والسلام .

وقد حُرِّفَتْ هذه الكتب القديمة المنزلة على رسل الله عليهم السلام ، بل بعضها لم يعد يُعرف أصله ، كما في الإنجيل كتاب المسيح ، إذ لم يعد يُعرف منه إلا ترجمات تضمنت ما كتبه البعض عن سيرة المسيح ، وفيه كلمات قالها ، ولكن ليس هو الكتاب المنزل من عند الله .

كما أن التوراة الأصلية التي أنزلها الله على موسى ، قد دخل فيها التحريف والتغيير ، كما أثبت ذلك الغربيون الأحرار ، وكتبوا في ذلك كتباً شتى .

### علم التفسير :

والكتاب الوحيد الذي لم يزل كما هو منذ أنزله الله على رسوله ، هو القرآن العظيم ، الذي حفظه الصحابة ، وكتبوه في عهد الرسول الكريم ، عن طريق كُتَّاب الوحي المعروفين ، وكتب في عهد أبي بكر في مصحف واحد ، وفي عهد عثمان نسخ في مصاحف رسمية ، كُتبت بإجماع الصحابة ، وأُرسل منها نسخ إلى الأمصار ، وكانت هي عمدة الناس في الحفظ والنقل إلى يومنا هذا ، وهذا ما حفظ الكتاب العزيز ، ولم يتغير منه كلمة ، ولم تضاف له كلمة ، مكتوبٌ كما أمر بكتابته سيدنا عثمان بن عفان ، ومحفوظ بقراءته وأصواته ، وأنغامه ومدوده ، كما كان يقرأه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، وصدق الله الذي قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) .

ولهذا بدأ أول علم في الأمة ، وهو : علم تفسير القرآن ، بدأ بابن عباس ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، وتعلمذ عليه من تتلمذ من كبار العلماء ، وكذلك وجد ابن عباس ، ووجد أبي بن كعب ، ووجد ابن عمر ، ووجد عبد الله بن عمرو ، وعبد الله ابن الزبير ، ووجدت المدارس التفسيرية المعروفة ، ولها رواتها ، ولها مناهجها ، ولها حديث ضاف في علم التفسير ، وطبقاته ورجاله ، ومصادره وكتبه .

وكان هناك تفسير الرواية وتفسير الدراية ، أو تفسير بالمأثور ، وتفسير بالرأي ، ولكل منهما رجاله ، وآثاره ، ومنهم من جمع بين الطريقتين .

### علم الحديث :

ومن العلوم الدينية التي اشتهرت عند المسلمين : علم الحديث ، وهذا يتعلق بما روي عن رسول الله محمد ﷺ ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو وصف خلقي أو خلقي ، أو سيرة ، وقد قسموه إلى علم الحديث رواية ، وعلم الحديث دراية .

وعلم الحديث رواية : هو ما يتصل بالمصادر التي جمعت هذا الحديث ، أو حاولت أن تجمعها من مظائنه ، من الكتب الصحاح والحسان والمسانيد والمصنفات والجوامع والأجزاء ، وغيرها ، وهي ذخائر هائلة ، حاولت الأمة أن تجمعها وتصونها ، وتميز بين صحيحها ، وضعيفها ، وموضوعها ، وبذلت في ذلك جهوداً شتى قديمة وحديثة .

وعلم الحديث دراية : ما يبحث حول هذه المرويات ، وتنويعها ، وتصنيفها وشرحها ، والاستنباط منها ، وما هو مقبول ، وما هو مردود ، وما هو صحيح ، وما هو ضعيف ، وما هو مختلف فيه ، وما هو مكذوب وموضوع ، وما لا أصل له ، وما هو مشترك بين ذلك كله ، وما هو مستقل بجنس واحد ، إلى تقسيمات شتى تتصل بالحديث وأهله ورجاله ، وأصنافهم ، حتى جعلوا كل قسم منهم أو منها صنفاً بعينه من الحديث ، حتى وصل بعضهم علوم الحديث إلى تسعين .

ويكفي أن عندنا : الكتب الستة ، ومعها موطأ مالك ، ومسنند أحمد ، وأضف إلى ذلك سنن الدارمي ، وصحيح ابن خزيمة ، وصحيح ابن حبان ، ومسنند

أبي يعلى ، ومستدرك الحاكم ، ومعجمات الطبراني ، التي يعمل كثير من المعاصرين لاستخراج صحيحها من سقيمها ، وإفادة الأمة مما فيها ، وحسبنا ما يتبناه أخونا العالم والباحث السعودي الشيخ عبد الرحمن بن عقيل من مشروع كبير لخدمة السنة ، يتفرغ للعمل فيه عدد كبير من العلماء بالقاهرة ، وهم ينجزونه من عدة سنوات ، ويرجى أن يكون له أثر كبير .

### علم الفقه :

وقد استفاد كثير من العلماء والدعاة ، مما ورد في القرآن العظيم ، والسنة المطهرة من أحكام ، اتفقوا في بعضها ، واختلفوا في بعضها ، كما نظروا في كثير من النصوص والعلل ، واستنبطوا عن طريق القياس وغيره أحكاما جديدة ، وكذلك دخلت كتب الفقه ، ومراجعته ومصادره إلى الساحة الإسلامية .

ثم بدأت بعض المدارس الفقهية في بعض البلاد ، تتخلق حلقا خاصة في صورة مدارس علمية ، لها مدارجها ، وأدلتها ، ومصادرها ، ومواردها ، مما جعل لها فقهها خاصا يميزها عن غيرها .

وهنا بدأت تتميز المذاهب ، كالأوزاعي في الشام ، وأبي حنيفة والثوري في العراق ، ومالك في المدينة ، والشافعي في بغداد ثم مصر ، وأحمد في بغداد ، وكذلك الطبري ، فهو مؤرخ ومحدث ومفسر وفقه ، له أتباع يسمون الطبرية ، ثم اتقرضوا ، وكذلك مذهب الظاهرية الذين اشتهر منهم داود ، ثم ابن حزم ، ثم اتقرض أتباعهم ، وبلاد أخرى من العالم الإسلامي ، وبدأ بينها مذهب الخوارج من قديم ، وبعد مدة غير قليلة من الزمن ، بدأ دعاة الشيعة يظهرن في الأفق ، ثم بدؤوا يظهرن مذهبهم ومؤلفاتهم في الفقه والأصول .

وقد أصبحت المكتبة الفقهية الإسلامية ، مكتبة ثرية كبيرة هائلة ، بعضها لا ينسب إلى مذهب ، مثل فقه الصحابة ، كالخلفاء الراشدين والعبادلة الأربعة<sup>(١)</sup> وغيرهم ، وهم كثيرون ، ومثل التابعين لهم بإحسان ، وكلهم لم يعرفوا بمذهب

---

(١) وهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير .

معين ، يتبعونه ، أو ينضمون إليه دون غيره ، ومنهم الفقهاء السبعة بالمدينة<sup>(١)</sup> ،  
وفقهاء الكوفة ومصر والشام واليمن وغيرهم .

ثم بدأ عصر المذاهب السنية الخمسة ، وعصر الخوارج ، أو ورثتهم ، ثم الشيعة ،  
وأولهم الزيديون ، أتباع زيد بن علي ، وهم قرييون في فقههم من أهل السنة ،  
وبعدهم نجد الشيعة الاثنى عشرية ، ولهم فقه عريض طويل له أصوله ، وله فروع ،  
وله موافقاته ومخالفاته ، وله كتبه ومراجعته .

وفي عصرنا ظهرت كتابات واسعة في خدمة الفقه الإسلامي ، على رأسها  
(موسوعة الفقه الإسلامي) ، التي أصدرتها وزارة الأوقاف في دولة الكويت ، في  
أكثر من أربعين مجلدا ، ولا تزال تعمل على إخراج الموسوعات في الأصول وفي  
غيره ، وهناك الموسوعة التي تحاول مصر إصدارها ، وقد صدر منها أعداد على  
المذاهب الثمانية ، ولا تزال مستمرة .

### ألوان الفقه المطلوبة للأمة اليوم :

ونحن نريد من الأمة أن تكثف عنايتها بألوان معينة من الفقه ، تحدثنا عنها في  
كتبنا ، ولا زلنا نطالب أمتنا ألا تغفلها ، وأن تخصص لها من رجالها ، ومن مالها ،  
ومن وقتها ، ومن برامجها ، ومن مقومات حياتها ، ما ينهض بها كلها ، وعلى  
الوزارات والجامعات والجماعات ، أن تقوم بما عليها في ذلك ، وعلى الشعب  
والحكومة أن يقوم كلُّ بما يجب عليه .

فقد دعونا إلى (فقه المقاصد) الذي أصبح له في عصرنا كيان ملموس ، وله  
مراكز ومواقع ، وله رجال ومختصون ، ونرجو أن ينال ما هو أهل له ، ونرى آثاره  
في كل موقع ، وعلى كل طرف .

---

(١) وهم : سعيد بن المسيب ، وخارجة بن زيد ، وسليمان بن يسار ، وأبو بكر بن عبد الرحمن  
ابن الحارث ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، والقاسم بن محمد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وهناك (فقه المآلات) الذي اهتم به بعض فقهاءنا القدامى ، ويعنون بـ« المآلات » : النتائج والآثار المرتبطة به ، فلا يجوز قطع الأمر عن مآلاته ونتائج ، والنظر إليه من موقعه الحالي ، مفصّولا عما يحدثه فيما بعد .

ألم تر إلى العدالة التي أرشد الله الخضر أن يعلمها لموسى ، كيف خرق السفينة ، ثم بين له لماذا خرقها ، فقال : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩) . أراد الرجل أن يحدث عيباً في السفينة الصالحة ، حتى يراها الملك فينصرف عنها ، ويدعها لأصحابها المساكين الذين يعيشون عليها ، فأحدث هذه الخسارة الصغيرة ، تفاديا للخسارة الكبيرة .

وهناك (فقه الموازنات)، وهو الذي يتعلق بأمر ، متعاور عليه<sup>(١)</sup> مصالح ومفاسد ، ومنافع ومضار ، فأيهما تغلب ؟

والقرآن يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩) .

ما الحكم إذا كان النفع أكبر من الضرر ؟ أو كان الضرر أكبر من النفع ؟ أو إذا تساويا ؟

وهناك (فقه الأولويات) فإن الأمر قد تختلط به أمور ، تصغر الأمر الكبير ، أو تكبر الأمر الصغير ، أو تقدم ما حقه التأخير ، أو تؤخر ما حقه التقديم ، ولا بد من النظر إلى هذا وأمثاله ، لكي تعطى الأمور حقها ، وليست الأشياء ثابتة دائما على ما هي عليه ، فإن الزمان والمكان والحال والعرف تحيط بالإنسان ، ولها دلالتها ، ولها آثارها وحكمها ، فلا بد لنا أن ننتبه إلى ذلك .

وهناك (فقه الاختلاف) وبعض الباحثين يسميه (فقه الائتلاف) ، وكل منهما يعمل في ميدان واحد ، ولكن من الناس من ينظر إلى الاختلاف ليصل منه إلى الائتلاف ، وهذا هو الواجب ، ولا بد أن يكون هدفنا هو تضييق دائرة الاختلاف ما استطعنا ، وأن يكون لنا معايير نحتكم إليها ، وإذا عجزنا عن الاتفاق . عذر

---

(١) متعاور أي متداول . ومنه : تعاورت الرياح رَسَمَ الدَّارِ ، أي تداولته ، فمرة نهب حنرباً ومرة شَمَلاً ومرة قبُولاً ومرة دُبُوراً .

بعضنا بعضا ، ودعا بعضنا لبعض ، فالاختلاف ليس شرا ، إلا إذا أردنا نحن ذلك ، أو حولناه إلى ذلك .

و(فقه الواقع) مطلوب منا اليوم ، فقه الأسواق ، وليس فقه الأوراق ، أن نعرف الواقع وندرسه ونعرف الخلل الذي فيه ، وما سببه؟ وكيف نعالجه؟ وكيف نستفيد من كل ما نطلع عليه ولو كان عند غيرنا ، فلا حرج علينا أن نقتبس من الآخرين ، كما اقتبس الصحابة والتابعون رضي الله عنهم من الفرس والروم ، المهم أن نأخذ ما نأخذ ، ونحن واعون لما نفعل ، ولسنا عمين عما نصنع ، والإسلام يعترف بنا ويوافقنا ولا يغيب عنا .

وفي فقهننا القديم ومصادره الهائلة ، ومناهجه الواسعة ، ومذاهبه المتعددة ، وآفاقه الرحبة ، ما هو أهل لأن يعطينا ما نغترف منه ، ونعب منه ونرتوي .

ودعونا إلى ألوان أخرى ، وحسبنا ما ذكرنا ، المهم أن تكون الأمة بكل إمكاناتها وطاقاتها المادية والمعنوية والبشرية والروحية والفكرية ، الرجالية والنسائية ، معدة لهذه المرحلة ؛ لتبني وتؤسس ، وتنشئ الجديد والمفيد ، وتعلي البناء ، دورا وراء دور ، وما تبنيه على أساس مكين ، فسيظل محفوظا بعناية الله تعالى ، ورعاية الأمة ، وعناية علمائها ودعاتها ، ووراء ذلك كله : الطائفة المنصورة - من رجال الأمة ونسائها - التي بشر بها رسول الله ﷺ في أحاديثه المستفيضة ، والتي أشار إليها القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨١).

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُّوْلاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٩).

## علم أصول الفقه :

وبعد استقرار الفقه والتأليف فيه ، والاختلاف في مناهجه ومذاهبه ، ظهر علم (أصول الفقه) ، وأول من ألف فيه وسماه هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله (٢٠٤هـ) الذي ألف كتابه الفريد (الرسالة) ، فكان أول كتاب في (أصول

الفقه) ، يقرأه الناس في العربية ، وإن كان عند المذاهب أصول يتداولونها فيما بينهم ، ولكن لم يظهر فيها كتاب يقرأه الناس .

كان علم أصول الفقه هو العلم الذي يضبط الاستدلال للأحكام من المصادر الأساسية ، من القرآن والسنة والإجماع والقياس ، ثم أضيف إليها : المصلحة ، والاستحسان ، والعرف ، وسد الذرائع ، وأدلة أخرى اختلف الناس في إثباتها وعدمه .

وكان المسلمون هم شيوخ هذا العلم ورجاله ، الذين سبقوا غيرهم إلى ما لم يسبقهم إليه أحد ، وأصبحوا هم أساتذة العالم في هذا العلم .

وقد ظهر فيه مدرستان : مدرسة علم الكلام ، وهي المدرسة التي ينتسب إليها المالكية والشافعية ، والتي كتبت فيها مصادر كثيرة وكتب شتى ، ومدرسة الأحناف ، التي عُرف شيوخها ومؤلفوها ومصادرهما .

ومما عرف في هذا العلم ، ما سمي باسم مقاصد الشريعة ، التي لم يعطها كثير من المتقدمين من المساحة ما يليق بها ، حتى بدأ إمام الحرمين ، ثم تلميذه الغزالي ، يتحدثان عن هذه الأصول - خصوصاً الغزالي - وتقسيمها إلى : ضروريات ، وحاجيات ، وتحسينات ، وقسم الضروريات إلى خمسة : الدين ، والنفس ، والنسل ، والعقل ، والمال .

وجاء القرافي بعد ذلك وقعد هذه القواعد ، ثم جاء بعده الشاطبي ، فأوسع القول فيها ، في كتابه الموافقات ، وبسط شرحها وفصلها ، فوصل بها إلى درجة عالية .

وجاء عصرنا فذهب العلامة الطاهر بن عاشور ، وغيره من علماء مصر ، مثل الشيخ شلتوت والشيخ خلاف ، والشيخ أبو زهرة ، وغيرهم ، إلى توسعات كثيرة في علم المقاصد .

وأنشأ الشيخ أحمد زكي يمانى مركزه لدراسة المقاصد ، وحضرنا مؤتمره الأول في لندن ، الذي انعقد من أجل ذلك ، وكان له أطروحات ، ولقاءات ، وثمرات ، وأصدر دراسات واسعة ، له أجرها وأجر من استفاد منها إلى يوم القيامة .

## علم الكلام :

وهناك دراسات خاضها المسلمون ، فيما عُرِف بعد ذلك باسم (علم الكلام) ، أو (علم التوحيد) ، وهو العلم الذي يتعلق بإثبات العقيدة والدفاع عنها .

وكان المسلمون الأولون يعتمدون على القرآن والسنة ، في إثبات العقائد وتعليمها لمن يحتاج إليها ، والدفاع عنها لمن يعارض فيها .

ثم حدثت مناوشات ومشاجبات ، بين المسلمين بعضهم وبعض ، وأحيانا بين المسلمين وغير المسلمين ، من اليهود أو النصارى ، أو غيرهم من الوثنيين أو الملاحدة ، ومن لا دين لهم .

فاقتضى بعضهم أن يتسلح لهم بهذه المقولات ، التي أخذت أساسا من غير المسلمين ، ليردّ عليهم بنفس أسلحتهم ، ويلجئهم إلى التسليم بما عنده من سواء الصراط المستقيم .

وبعد ذلك تطور (علم الكلام) ، وأصبح ضمن (العلوم الإسلامية) ، الذي يتخصص في علم العقيدة والدفاع عنها ، والرد على مخالفيها ، بأدلة العقل والنقل ، وظهر ذلك عند الأشعرية والماتريدية ، الذين أصبحوا يمثلون جمهور أهل السنة في البلاد الإسلامية .

ومضى الحنابلة في خط مغاير لهؤلاء ، معتمدين على النصوص من القرآن والسنة ، وعلى رفض التأويل ، وخصوصا في الآيات المتشابهات ، ولهم كتبهم الخاصة ، ولهم دراساتهم في هذا الميدان ، وخصوصا مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، وقد غدت معروفة لدى الباحثين .

وكذلك ظهر من الزيدية مؤلف كبير بلغ مرتبة الإمامة والاستقلال ، له كتبه وبحوثه الأصلية في مجال العقيدة والفكر ، وهو الإمام ابن الوزير ، صاحب (إيثار الحق على الخلق) ، و(العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) .



وكذلك كُتِبُ الباحثين من المعاصرين من كل المدارس ، والأولى : أن يخرج الجميع بصيغة موحدة ، تجمع الأمة على كلمة سواء ، دعا إليها القرآن أهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهو ما كتبنا فيه على النهج الوسطي المتوازن ، الذي دعونا إليه ، ومشينا عليه ، ونرجو الأمة كلها ألا تحيد عنه ، ولا ترضى بغيره .

### علم التصوف :

ومن علوم الدين التي ظهرت آثارها في الساحة الإسلامية : علم التصوف ، وهو : علم السلوك . وهو علم يتعلق بسلوك الإنسان الظاهر والباطن ، وهو يهتم بالباطن أكثر مما يهتم بالظاهر ، وإن كان الإسلام يشملهما معا ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَهَرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَاحِشَ مَآ ظَهَرَ مِنْهَا وَمَآ بَطَنَ ﴾ (الأنعام: ١٥١) ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي ٱلْفَوَاحِشَ مَآ ظَهَرَ مِنْهَا وَمَآ بَطَنَ ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وكان علم الفقه في أوّل الأمر يُعني بأعمال الجوارح ، وأعمال القلوب ، أمراً ونهياً ، وإيجاباً وسلباً ، ولكن الناس بعد ذلك جعلوا علم الفقه في الصلوات الظاهرية ، وما تقوم به الجوارح ، وجعلوا علماً آخر يتصل بأعمال القلوب ، طاعات ومعاصي ، مأمورات ومنهيات . ومن هنا ظهر علم التصوف .

ولا ريب أن هذا العلم هو الذي يقوم بمقام (الإحسان) ، الذي سأل عنه جبريل عليه السلام الرسول الكريم ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »<sup>(١)</sup>.

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٩) عن أبي هريرة .

والإحسان هنا : الإحكام والإتقان ، لا مجرد أداء العمل ، وإن لم يكن له روح ، ولا فيه نية ، ولا له ثمرة . مع أن أهم ما في العمل في نظر الإسلام هي النية ، « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » <sup>(١)</sup> ، ولذا قال القرآن عن أهل الكتاب : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: ٥).

وهذا (الإحسان) الذي سأل عنه جبريل ، وأجابه عنه الرسول ﷺ ، هو (التزكية) التي يربّي الرسول الكريم عليها أمته ، كما جاء ذلك في جملة آيات من القرآن المجيد . قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٥١) .

ودعا إبراهيم ربّه لهذه الأمة من بعده ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٩) .

وقال في سورة آل عمران : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤) .

وفي سورة الجمعة : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢) .

ولا شك أن هذا العلم كلف الله تعالى به رسوله الأعظم محمدا ، ليُصلح به أنفس الأمة الكبرى ، التي بُعث إليها ، ويُطهر قلوبها ، وينمي جانبها المعنوي والأدبي في حياتها . هذا العلم الذي يحرص عليه أهل كل دين أن يأخذوه عن نبيهم المرسل

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمامة (١٩٠٧) عن عمر ابن الخطاب .

من ربّه ، ويتوارثوه عنه ، ويشرحوه ويقبلوه ، ويعرفوا أصوله وفروعه ، وثقافته المطلوبة ، ما هو منها فريضة ، وما هو منها نافلة .

وهو ما يجب أن نقوم به في حسن تثقيف الأمة ، وحسن تربيتها ، التربية القرآنية والنبوية المنشودة .

وحبذا لو اعتنينا بتنقية هذا التراث التربوي ، من الغبش الفكري والاصطلاحي ، الذي أدخل عليه ، ومن لوثات الأفكار البشرية في غلوها وتسيبها ، أو إفراطها وتفریطها ، والعودة به إلى اليسر والبساطة ، التي صورها بعضهم عند وصفه للتصوف في كلمتين ، هما : الصدق مع الحق ، والخلق مع الخلق ، وهو ما أشار إليه القرآن ، في التقوى مع الله ، والإحسان مع الناس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) .

فلا داعي لإدخال مصطلحات غامضة ، ومصطلحات مُرعبة ، ومصطلحات أُريد لها ألا تكون واضحة وحاسمة ، دخلت في التصوف العام ، والتصوف الفلسفي ، الذي دخلته كلمات كثيرة مُخيفة ، لا ضرورة لها ، لأنها تزعج عوام الناس وجمهورهم ، فحسبنا أن يبقوا على الإسلام العام ، الذي يُقر المسلمون كلّ من تمسك به على أصل الدين . نأخذ الجانب الأخلاقي من التصوف ، دون المبالغات في الجانب الإلهي ، التي تجاوز فيها بعض الصوفية الخطّ الوسط ، مرتكزين نحن على الكتاب المبين ، والسنة الصحيحة ، وأقوال الصحابة ، ومن اتبعهم بإحسان .

وبذلك تجتمع الأمة ولا تفترق ، وتحيا الأمة ولا تموت ، وتعيش بقلوبها وأبدانها ، لا بأبدانها وحدها ، فلا يكونوا كالذين ذمهم الله بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (المنافقون: ٤) .

أو كما قال حسان بن ثابت يهجو قوما :

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمِ      جسمِ البغالِ وأحلامِ العصافيرِ !

إنما نريد قوما كالذين أثنى الله عليهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٤﴾ (الأنفال: ٢-٤) .

## علم السيرة والتاريخ الإسلامي :

ومن العلوم الإسلامية ، التي عرفها المسلمون من قديم : علم السيرة النبوية ، وعلم التاريخ الإسلامي .

فعلم السيرة النبوية : علم يتعلّق بحياة رسول الله ، وشخصيته ، وجوانب حياته المختلفة ، قبل النبوة وبعدها ، وقبل الهجرة وبعدها . وهي غير السنّة النبوية ، التي تتسع لما هو أكثر من ذلك ، ولهذا يكتب السيرة المؤرخون على طريقتهم ، وإن اتفقوا مع المحدثين في نواح كثيرة .

والسيرة هي بدايةً للتاريخ الإسلامي الطويل والكبير ، الذي اهتمّ به علماء المسلمين مثل : شيخ المفسرين أبي جعفر بن جرير الطبري ، ومثل علّم المفسرين والمحدثين والفقهاء في زمنه : ابن كثير ، وغيرهما من علماء الأمة .

والقرآن نفسه قد أرخ لكثيرٍ من الأحداث والأشخاص ، وإن كان لا يهتمّ بتعيين الشخص ، وذكر اسمه أو مولده ، أو سنة وقوع الحادث ، أو موقعه ، إلا ما يتعلق بالعبارة والموعظة ، وهذا ما لاحظناه في قصص القرآن الكريم ، الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(يوسف: ١١١) .

وقال سبحانه بعد أن ذكر قصة عددٍ من الأنبياء في سورة هود : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠) .

ولقد هدى القرآن إلى أهمية معرفة تواريخ الأمم والاستفادة مما حدث لها ، والاعتبار بذلك ، كما قال تعالى بعد ما حدث لليهود بني النضير : ﴿ فَأَعْتَبِرُوا يٰأُولِي

الْأَبْصِرْ ﴿ (الحشر: ٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْتَ  
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦) .

المهم أن المسلمين عنوا بدراسة التاريخ والتأليف فيه ، ولم يكتفوا بالتأليف في  
تاريخ الملوك والأباطرة والرؤساء الكبار ، وبالفاتحين المشهورين منهم ، كما اشتهر  
حلك عند كثير من الأمم .

بل أرخوا للملوك والحكام ، دوليين أو ملوك أقاليم ، أو ولاية بلاد ، من عدل  
ومن ظلم ، ومن استمر ومن سقط في الطريق .

وأرخوا للرجال الفاتحين والعسكريين الكبار في تاريخهم ، من انتصر ، ومن  
تهزم ، ومن كان من أهل الظلم والقسوة ، ومن كان من أهل البر والرحمة .

وأرخوا للدول ، وأرخوا للطبقات المختلفة من الناس ، الطبقات العلمية ، مثل :  
طبقات الفقهاء ، على اختلاف مذاهبهم واجتهاداتهم . وطبقات المفسرين ، وطبقات  
المحدثين ، وطبقات المتكلمين ، وطبقات الفلاسفة ، وطبقات المتصوفة ، وطبقات  
المتنوعين ، والنحويين ، والبلاغيين ، والشعراء ، والأدباء ، وما يدخل في هذا المجال .  
وألّفوا في رجال العلوم الطبيعية ، مثل : رجال الفيزياء والكيمياء ، والفلك  
والطب ، والتشريح والبحار ، وعلم الأرض والجغرافيا ، والرياضيات والجبر ،  
وغيرها من أنواع العلوم .

وألّفوا في رجال الفلسفة أو الحكمة ، المتعلقة بالإلهيات ، والوجود ، والمعرفة ،  
والقيم ، والطبيعات ، وكذلك كثيراً ما درست العلوم الطبيعية والرياضية ضمن  
علوم الفلسفة ، حتى انفصلت حديثاً عنها .

وألّفوا في تاريخ الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، إلى مختلف الأنواع على  
توالي العصور .

ولم نجد صنفا من الناس إلا وألفوا فيه : النساء ، والصبيان ، والعميان ،  
والعرجان ، وأصحاب المهن ، والسحرة وغيرهم . وكذلك الكرماء والبخلاء ،  
والأذكياء والأغبياء ، والأغنياء والفقراء ، وسائر الطوائف على اختلافها .

ولهذا يجب على من يريد أن يعرف تاريخ الأمة الحقيقي الجامع المانع : أن  
يطلع على هذه المصادر ما أمكنه ، ليعلم سعة هذه المصادر ، حتى إن بعضهم كان  
يأخذ التاريخ من بعض كتب الفتاوى ، وما فيها من أسئلة عجيبة .

وقد ذكرنا في كتابنا (ثقافة الداعية) ما يجب أن يهتم به دارس التاريخ ،  
وما ينبغي أن يتحلّى به ، وخصوصا في عصرنا ، التي ازدحمت فيه الثقافات ،  
واختلط الحابل بالنابل ، فلا بد من الرجوع إليه .

### الواجب في علوم الدين :

هذه العلوم الدينية التي تحدثنا عنها ، بعضها يجب أن يتخصص فيها قوم إلى  
حد أن يكونوا عالمين بها ، ومراجع بشرية لها ، ولا يجوز أن يهملوا أي نوع  
منها ، بحيث لا يكون فيه رجال ثقات معتبرون ، بحيث يصل بعضهم إلى درجة  
الاجتهاد الممكن فيها . ودرجة الاجتهاد - أو ما يوازيها أو يقاربها - معروفة في كل  
علم من العلوم .

المهم ألا يكتفي فيها بمن ضحل علمهم ، وهبطت ثقافتهم ، ومشوا في ذيول  
العلماء ، يعيشون على القليل ، ولا يطمحون إلى الوفير . فهذا ما لا يرضاه الإسلام  
لأهله ولا لعلمائه .

لا بد من تدبير ذلك وترتيبه ، وإعداد العدة المطلوبة له ، من المدارس والمعاهد  
والجامعات ، والدراسات العالية والعليا ، وعقد المسابقات ، وإعداد الحلقات  
والندوات والمؤتمرات والمخططات والجداول ، وكل ما يراه المختصون والدارسون  
معمولا به في العالم المتقدم حولنا ، لنقتبس منه ، ونستفيد منه ، والحكمة ضالة  
المؤمن ، أننى وجدها فهو أحق بها .

لا بد من عمل كبير ومدرّوس ومخطط للثقافة في الأمة ، بالنسبة للعلوم الإسلامية .

فهناك ثقافة عامة للأمة كلها ، لا بد أن تدرس ، فتوضع لها الخطط ، وكيف تصل إلى الأمة ، والسبل التي توصلها إليها ، من مدارس ، وجامعات عادية ومفتوحة ، ومراكز ، وكتب ، ووسائل ، وصحف يومية وأسبوعية وشهرية وفصلية ، وسنوية ، ووسائل الإنترنت والإذاعة والتلفاز ، وكل هذه الألوان الجديدة ، التي أصبحت معروفة عند الناس .

وهناك ثقافة ضرورية يجب تعميمها على كل المسلمين بالطرق الممكنة ، وهي التي يعتبرها العلماء فرضاً عينياً على كل مسلم ، وهي الحد الأدنى من الثقافة المطلوبة من القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، ومن السيرة النبوية ، ومن العقيدة الإسلامية ، ومن الفقه الإسلامي ، ومما لا بد من معرفته للمسلم ، لا بد أن يشتغل بهذا الأمر كل من فكر في التربية والتعليم ، والتثقيف العام للإنسان المسلم الناشئ ، ذكراً كان أو أنثى .

ويجب أن يكون للمتفوقين والناهين حظاً أعلى ، يجب أن يُوفّر لهم أكثر من غيرهم .

وهذه كلها أمور في غاية الأهمية ، لا يجوز إغفالها ، أو السكوت عنها ، أو تأجيلها إلى حين ، أو الاهتمام بأمور أخرى قبلها ، وكل أمة واعية لا يجوز لها أبداً أن تتغافل عن الثقافة الدينية الأولية لأبنائها ، والله تعالى يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوّاً أَنفُسَكُمُ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (التحريم: ٦) ، قال سيدنا عليّ في تفسير هذه الوقاية : علّموهم الخير .

والخير لا يخفى في أي علم ، أو أي عمل ، أو أي توجه ، وعلينا أن نطلبه ، وعلينا أن نعلّمه ، وأن نتلقاه من أهله .

علوم الدنيا إلى جانب علوم الدين :

ولكن الإسلام لم يكلف المسلمين بعلم الدين وحده ، بل كلفهم بعلوم الدنيا مع علوم الدين .

لقد علمنا الإسلام أن الإنسان لا يمكن أن يعيش بالدين وحده ، إنما يمكن أن يعيش بالدنيا فقط ، أو بالدين والدنيا معا . كما حكى لنا القرآن أصناف الناس في موسم الحج . قال تعالى : ﴿ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ (البقرة: ٢٠٠، ٢٠١) . ولم يذكر القرآن من يطلب من الله تعالى الدين وحده ، وكأن مثل هذا لا يوجد .

وهذه هي طريق الإسلام : طلب الحسنيين : حسنة الدنيا ، وحسنة الآخرة . كما أثنى الله به المؤمنين الصالحين ، فقال : ﴿ فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٨) .

لهذا يجب هنا أن ننوه بعلوم الدنيا ، التي على المسلمين أن يطلبوها ويحصلوها ، ويتفنونوا فيها ، حتى يبلغوا درجة إتقانها ، ويتقنوا قوانينها ، ويخترعوا ويبدعوا ، كما فعلوا في أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ، حيث ترجموا علوم الأوائل ، أي : الأمم القديمة ، وأحسنوا تعلمها ، وأحكموها ، وبدؤوا ينتقدونها ، ويضيفون إليها من عندهم ما لم يكن فيها ، كما اخترعوا علم (الجبر) ، وقد أضافوه إلى الرياضيات .

وكان لهم دورهم في علوم الفلك والفيزياء والكيمياء ، وعلم الأرض ، وعلم البحار ، وعلم الجغرافيا وتقويم البلدان ، وعلم الطب والتشريح . وعلوم الفلسفة والحكمة ، وقد كانت مختلطة بعلوم الطبيعة وغيرها .

المهم أن هذه العلوم فرضٌ على المسلمين في مجموعهم أن يتعلموها ، وأن يحكموها . وليس صحيحاً ما قاله الإمام الغزالي من وجوب الاقتصاد في تعلمها ، وكراهة التوسع فيها ، فربما قبل مثل ذلك في عصره لظروف وملابس كانت تقتضي ذلك ، ولكن عصرنا لا يمكن أن يبلغ المرء مبلغه من هذه العلوم ما لم يتوسع فيها ، ويصل إلى حد التفوق على الآخرين ، واكتشاف الجديد منها ، وتوسيع آفاقها .

وقد كنا نرى السباق المحموم بين العملاقين الكبيرين في الأرض : الكتلة الغربية بزعامة أمريكا ، والكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفيتي ، وخصوصاً بعد سقوط



ألمانيا الشرقية ، ومحاولة كل من العملاء اكتساب ما عندها من أسرار نووية وغيرها .

أما العالم الإسلامي ، فكان خارج هذا السباق ، وهذا الصراع ، كان هو السوق التي تباع فيها أشياءهم وأسلحتهم ، بعد أن يأخذوا الأهم منها لأنفسهم .  
لقد عرفنا في ساحة علوم الدنيا أسماء كبيرة إسلامية ، كان لها وزنها وثقلها في تاريخ العلم والفكر العالمي ، فقد سمعنا عن الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، والرازي ، والزهرائي ، وابن النفيس ، والخوارزمي ، وابن حبان ، والبيروني ، والفخر الرازي ، وغيرهم وغيرهم .

ثم عدنا إلى الوراء ، ونمنا وهم استيقظوا ، وقعدنا وهم تحركوا ، وتأخرنا وهم تقدموا ، وركبنا إبلنا بعد أن ضعفت وعيت ، وركبوا هم السيارات والقطارات ، ثم الطائرات والصواريخ والغواصات .

ولا زلنا إلى اليوم نحاول أن نهض فلا نكاد نهض ، إلا وعن أيماننا وعن شمائلنا ، ومن بين أيدينا ومن خلفنا من يشبطننا ، ويضرب بعضنا ببعض ، ويلهينا يعلم لا ينفع ، وبأدعية لا تسمع ، وبأعمال لا ترفع ؛ لأنها صادرة من قلوب الله لا تخشع ، ومن أنفس من الدنيا لا تشبع .

إننا لكي نكون كما أحب الله لنا : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) ، ولكي نكون : ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) ، وأن نحقق قول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠) ، لا بد لنا : أن نصل بين القوة العلمية والتكنولوجية إلى الحد الذي نتفوق فيه على عدونا ، من القوة البشرية المدربة ، ومن رباط الخيل ، وهو الآن : رباط المدرعات ، والدبابات ، والمصفحات ، والطائرات وغيرها ؛ لهذا لا بد أن نكون متفوقين في علوم الدنيا ، لنكون أقوى من غيرنا ، إن كما نريد أن نحيا أعزاء كما كتب الله لنا : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨).

\* \* \*



## انقسام العلوم إلى ما هو نقلي وما هو عقلي

وقد قسّم أهل العلم في الإسلام العلوم التي يتداولها الناس في مختلف الأمم ،  
وفي شتى الأعصار ، إلى علوم نقلية ، وعلوم عقلية .

فالعلم النقلي هو العلم الديني أو الشرعي ، الذي أساسه ومحوره الوحي الإلهي ،  
الذي ينزله الله على رسوله ، بواسطة الوحي الجلي ، مثل القرآن الكريم ، الذي قال  
فيه : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ  
تَكُونُ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) .

فهو الذي تنزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ باللسان العربي  
لعين .

وهناك الوحي الخفي ، الذي يوحى الله به إلى قلب رسوله ، بواسطة رؤيا في  
نومه ، أو نفث في روعه في اليقظة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ  
يَا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحَىٰ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى  
حَكِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥١) .

ومثل ذلك الوحي الحكمي ، وهو ما اجتهد فيه الرسول الكريم برأيه ، ولم  
ينزل وحي يصبّ به ، فهذا يُعتبر نوعاً من الوحي بالإقرار .

وفي الديانات المختلفة تبدأ العلوم الدينية أو النقلية في أول الأمر ، كما بدأ علم  
التفسير ، وعلم الحديث ، ثم علم الفقه ، وعلم القراءات ، ثم علم السيرة النبوية ،  
وعلم التاريخ الإسلامي ، وأخذت هذه العلوم النقلية تتعمق وتتسع وتُشرح ، بامتداد  
الزمن ، يُضيف كلُّ جيلٍ إلى ما قبله ، حتى دخل فيها (علوم آلية) ، أي : هي

وسيلة لفهم العلوم الشرعية ، مثل : علم اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة ، وغيرها .

ولا تزال هذه العلوم تتسع ، حتى يدخل العقل في توصيفها وتوسيعها وتنويعها وتقسيمها ، وما زال العقل يدخل فيها شيئاً فشيئاً ، حتى يصبح مسيطرّاً عليها ، وإن كان النص هو الجوهر الأول ، فنجد التفسير ينقسم إلى التفسير بالرواية ، وآخر بالدراية ، ونرى الفقه ينقسم إلى مدرسة الحديث ، ومدرسة الرأي ، ونرى في مدارس العقيدة من يلجأ إلى النص يستوحيه ، ومن يلجأ إلى العقل يستجديه .

حتى تجد عند أصحاب العلم النقلى أنفسهم ، من يحسبون على المجال العقلي ، لدخولهم في كثير من مجالات العلوم العقلية .

فهناك علوم تركز على العقل وحده ، مثل العلوم الرياضية ، والفلسفة الحرة ، وهناك علوم تركز على الملاحظة والتجربة ، مثل العلوم الطبيعية ، كالفيزياء والفلك والكيمياء ، وعلوم الأرض ، والبحار ، والحيوان والنبات (بيولوجية) ، وسائر العلوم التي امتدّ إليها نطاق المسلمين والحضارة الإسلامية ، ونقلوها من الأمم الأخرى التي عرفت قبلهم ، مثل اليونان والرومان والفرس والهنود وغيرهم .

وهناك علوم غير علوم النقل ، مثل العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وهناك علوم تقوم على الاستقراء ، مثل العلوم اللغوية واللسانية .

وقد نقل المسلمون الكثير من علوم الأمم ، وتأثر بها بعضهم ، وكانت الفلسفة هي الغالبة عليها ، وكانت الفلسفة تشمل الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، كما تشمل الجانب العلمي من الطبيعة والفيزياء والفلك ونحوها .

ونحب هنا أن نذكر أن المسلمين فتحوا الأبواب لهذين النوعين من مجالات العلم ، فكان للعلم النقلى الشرعي رجاله وحماته ، وكان للعلم العقلي رجاله وحماته أيضاً ، وكثيراً ما وجدنا رجالاً يجمعون بين الأمرين معاً ، فهم رجال نقل ورجال عقل ، ينظرون في المصحف الناطق ، وهو القرآن العظيم ، وفي المصحف

لصامت ، وهو هذا الكون الكبير ، الذي أقسم الله به وبعظمته على حقيقة هذا القرآن .

يقول تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٩﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٨٠﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ (الواقعة: ٧٥-٨٠) .

من علمائنا من جمع بين النقل والعقلي من العلوم :

ونقول هنا : إن من علمائنا الكبار من جمع بين الصنفين المتقابلين من العلوم :  
نقلية والعقلي ، أو الديني والديني .

تجد الكثيرين من هؤلاء من اشتغل بعلم التفسير والحديث ، وبعلم الفقه والأصول ، وبعلم العقائد والدفاع عنها ، وخاض بحار هذه العلوم ، وجادل وجالّد ، وحوار وجاهد ، وأبلى بلاءً حسناً في الرد على الأباطيل ، وكشف الحقائق .

من هؤلاء الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، والثوري (ت ١٦١هـ) ، ومحمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ) ، وابن الطيب (ت ٢٨٦هـ) ، والطبري (ت ٣١٠هـ) ، والباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، وابن فورك (ت ٤٠٦هـ) ، وابن العربي (ت ٤٥٣هـ) ، والأسفراييني (ت ٤٧١هـ) ، وإمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) ، والراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢هـ) ، والغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، والمازري (ت ٥٣٦هـ) ، والشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٥هـ) ، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، وأبو الحسن الآمدي (ت ٦٣١هـ) ، والقرافي (ت ٦٨٤هـ) ، والشاطبي (ت ٧٩٠هـ) ، وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، وابن الوزير (ت ٨٤٠هـ) ، والكمال بن الهمام (ت ٨٦١هـ) ، وابن نجيم (ت ٩٧٠هـ) ، والدهلوي (١١٧٦) ، والصنعاني (١١٨٢هـ) ، والشوكاني (١٢٨١هـ) ، وكثير من رجال النقل والعقل ، والإيمان والحكمة .

من نظر في التراث الإسلامي الكبير ، وقرأ ما أنتجه العقل الإسلامي في مختلف العلوم والمعارف ، من شرعية وعقلية ، ونظر إليها نظر الباحث المنصف الذي

لا يهيمه إلا المعرفة ، ولا يبحث إلا عن الحق ، فإنه سيجد كبار العلماء في أمة الإسلام يحتضنون الجمع بين العلوم العقلية ، والعلوم الدينية الشرعية ، ووجد أن نظرة الجميع لا ترى بينهما في الحقيقة تعارضاً ، وأن ما جاء به العقل الخالص الموزون ، جاء به الشرع الخالص الموزون أيضاً ، فالحق لا يعارض الحق ، بل يؤيده ، ويسدده ، ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم ، ولذلك نرى الإمام الراغب الأصفهاني ، صاحب (مفردات القرآن) يرى أن صاحب العلوم الشرعية في حاجة إلى تصور العلوم العقلية ، وأنه يستفيد منها قوة على قوة ، ونوراً على نور .

يقول رحمه الله في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) :

« تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية :

المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالبة للصحة ، والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة ، وكما أن الجسم متى كان مريضاً لم ينتفع بالأغذية ، ولم يستفد بها ، بل يتضرر بها ، كذلك من كان مريض النفس - كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ (البقرة: ١٠) - لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات ، بل صار ذلك ضاراً له ، مضرّة الغذاء للمريض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١٢٤، ١٢٥) (التوبة) .

وأيضاً فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات ، والاعتقاد فيه بمنزلة البذر ، إن خيراً ، وإن شراً ، وكلام الله تعالى بمنزلة الماء الذي يسقيه ، ولذلك سماه ماءً على ما تقدم ذكره ، فكما أن الماء إذا سقى الأرض يختلف نباته بحسب اختلاف بذوره ، كذلك القرآن إذا ورد على الاعتقادات الراسخة في القلوب ، تختلف تأثيراته ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوحٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ (الرعد: ٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا تَكْدًا ﴾ (الأعراف: ٥٨).

وأيضاً فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخى على البصر ، وغشاء على قلب ، ووقر في الأذن ، والقرآن لا تدرك حقائقه إلا لمن كشف غطاؤه ، ورفع عشاؤه ، وأزيل وقره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ يَدَكَ وَخِصْفَكَ الْيَمِينِ وَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (١) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ الْحُجَّةُ وَلَوْ أَنَّهُمْ فُهِمُوا بِرُوحِهِمْ فَعَاقَوا لَكُنَّا مُزْجِيَةً ﴾ (الإسراء: ٤٥، ٤٦).

وأيضاً فالمعقولات كالحياة التي بها الأبصار والأسماع ، والقرآن كالمُدرك يسمع والبصر ، وكما أنه من المحال أن يبصر ويسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح ، ويجعل له السمع والبصر ، كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل لمعقولات حقائق الشرعيات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ لَوْ سَمِعْتَ الْهَوَىٰ ۚ سَمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٥٢، ٥٣) . الآيتان ، يعني : آيات سموات والأرض وغيرها (١) .

### مرقب الغزالي بين العقل والنقل :

وأوضح من هذا وأوثق ، هو موقف الإمام حجة الإسلام الغزالي من العقل .

يؤكد الغزالي هنا مبدأً مهماً - عمقه ووسعه ابن تيمية بعد (٢) ، على اختلافٍ بينهما في تطبيقه - وهو أن العقل والشرع لا يتعارضان تعارضاً حقيقياً :

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهاني ، ص ١٥٨ ، ط . دار السلام القاهرة ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ، تحقيق : الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي .

(٢) في كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل) ، وقد نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في عشرة أجزاء ، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، وهو الكتاب الذي عُرف حيناً باسم (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) .

- لا من الناحية النظرية ؛ لأن كليهما نور من عند الله ، فلا ينقض أحدهما الآخر .
- ولا من الناحية العملية ، فلم يثبت أن اصطدمت حقيقة دينية بحقيقة عقلية ، بل يرى الغزالي أن أحدهما يؤيد الآخر ويصدق<sup>(١)</sup>.

بل نراه في (المستصفى) ، وهو من أواخر ما صنّفه ، يعتبرُ العقل قاضياً ، والشرع شاهداً ، حيث يقول بعد الديباجة :

«أما بعد ، فقد تناطق قاضي العقل - وهو الحاكم الذي لا يُعزل ولا يُبدل - وشاهدُ الشرع ، وهو الشاهد المزكّي المعدّل : بأنّ الدنيا دار غرور ، لا دار سرور ، ومحلّ تجارة ، لا مسكن عمارة ، ومتجر بضاعتها الطاعة ، والطاعة طاعتان : عمل وعلم ، والعلم أنجحها وأربحها ، فإنه أيضاً من العمل ، ولكنه عمل القلب ، الذي هو أعز الأعضاء ، وسعي العقل ، الذي هو أشرف الأشياء ؛ لأنّه مركّب الديانة ، وحامل الأمانة ، إذ عُرِضَتْ على الأرض والجبال والسماء ، فأشفقن من حملها ، وأبين أن يحملنها غاية الإباء»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) في (معارج القدس) - وهو يُنسب إلى الغزالي - نقرأ هذه الفقرة :  
«اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغني أس ما لم يكن بناءً ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساً . وأيضاً ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر . فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضان ، بل متحدان . (معارج القدس ص ٥٧ ، ط دار الآفاق الجديدة ، بيروت) . والكلام هنا شيء بكلام الغزالي ، ولكنني أشك كثيراً في صحة نسبة الكتاب إليه ، فنفسه غير نفس الغزالي في كتبه ، وطريقة تقسيمه وترتيبه غير طريقة الغزالي ، ولم يذكره أحد في كتبه ممن ترجموا له . كما أنه لا يحيل ولا يشير إلى أي كتاب آخر له ، كما هو شأنه في كتبه الأخرى ، كما لم يشير إليه في أي كتاب من كتبه ، وجعله الدكتور بدوي ، في جملة الكتب المشكوك في صحة نسبتها للغزالي ، رقم ٧٦ ص ٢٤٤ من (مؤلفات الغزالي) .

(٢) المستصفى ٣/١ ، ط . دار الكتب العلمية ، الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، تحقيق : محمد



وها هو في (الإحياء) نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ،  
بين الحاجة إلى كل منهما ، ويقرر أنه لا غنى بالعقل عن السمع ، ولا غنى  
بالسمع عن العقل :

«فالداعي إلى محض التقليد - مع عزل العقل بالكلية - جاهلٌ ، والمكتفي  
بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرورٌ ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ،  
وكن جامعاً بين الأصلين .

فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض  
يُتضرر بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب ، لا يمكن علاجها إلا  
بـ«الأدوية المستفادة من الشريعة»<sup>(١)</sup>.

ثم يحمل الغزالي بقوة على من يظن أن ثمت تناقضاً بين العقليات  
الشرعية ، فيقول : «وظنٌ من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ،  
فإن الجمع بينهما غير ممكن ، وهو ظنٌ صادر عن عمى في عين البصيرة ، نعوذ  
بـ«الله» منه .

بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض ، فيعجز عن  
الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقضٌ في الدين ! فيتحير به ، فينسل من الدين ، انسلال  
شجرة من العجين ! وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضاً في الدين ،  
وهيهات !<sup>(٢)</sup>.

وهو يصف عصابة الحق وأهل السنة في مقدمة كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد)  
بأنهم وحدهم الذين اهتموا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله ، واطَّلَعُوا على طريق  
التلفيق<sup>(٣)</sup> بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين

(٢،١) (الإحياء : ٣ / ١٧ ، ط دار المعرفة ، بيروت .

(٣) كلمة (التلفيق) يعني بها ما نعينه بكلمة (التوفيق) الآن ، وليس يعني بها ما يوحي به اللفظ  
في عرفنا اليوم من الاحتيال على الجمع بين متنافرين .

الشرع المنقول ، والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظنّ من الحشوية وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ، ما أتوا (به) إلا من ضعف العقول ، وقلة البصائر ، وأن من تغلغل من الفلاسفة و (غلاة) المعتزلة في تصرف العقل ، حتى صادموا به قواطع الشرع<sup>(١)</sup> ، ما أتوا (به)<sup>(٢)</sup> إلا من خبث الضمائر . فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيدٌ عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم» .

ويذكر الغزالي هنا مثالا للعقل والشرع ، فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات ، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، ولا يستغني بأحدهما عن الآخر ، إلا من كان في غمار الأغبياء فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن ، مثاله المتعرض لنور الشمس ، مغمضاً للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان ، فالعقل مع الشرع نور على نور ، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما على الخصوص متدلّ بحبل غرور<sup>(٣)</sup> .

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوًّا للشرع ، ولا نصب الشرع عدوًّا للعقل . ولا يُتصور أن يُثبت الشرع ما ينفيه العقل (أي ما يقطع باستحالته) ، ولا أن ينفي ما يُثبت العقل ، أي ما يقيم البراهين اليقينية على وجوده . والعكس ثابت أيضا ، بمعنى أن العقل لا يتصور أن يُثبت ما يقطع الشرع بنفيه ، ولا أن ينفي ما يقطع الشرع بثبوته .

---

(١) أنكر الدكتور عادل العوا في تقديم كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) على الغزالي ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة في العزوف عن الاستضاءة بنور الشرع ، وقال : إنهم متكلمون ، والمتكلمون هم حراس العقيدة بالعقل ، ولكن عبارة الغزالي لا تشمل كل المعتزلة ، بل الغلاة منهم ، فلا وجه للاعتراض .

(٢) أظن كلمة (به) هنا وفي الموضع السابق لا ضرورة لها ، وهي حشو ، ربما كانت من زيادة ناسخ .

(٣) من مقدمة كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) .

وبعبارة موجزة يرى الغزالي : أن العقل لا يمكن أن يثبت حقيقةً ينفيها الشرع ، وأن الشرع لا يمكنه أن يأتي بعقيدةٍ يحيلها العقل .

وإذا وقع شيء من ذلك ، فلا بد أن يكون من جاهل متوهم على العقل ، أو متوهم على الشرع .

وما كانت حملته في (التهافت) على الفلاسفة إلا لأنهم توهموا على العقل ، قائبوا باسمه ، ما لا برهان عليه ، ونفواً تحت مظلة ما لا دليل على نفيه ، وجاءوا بما لا يقبل في العلوم الظنية ، فكيف يقبل في العقليات؟!

وقد رأينا حملته في (المنقذ من الضلال) على من سمّاه (الصدّيق الجاهل) للإسلام الذي أنكر - باسم الشرع - ما قاله الفلاسفة في الكسوف والخسوف ، ونحو ذلك مما يتصل بالعلوم الرياضية والفلكية ، من شُعب الفلسفة القديمة ، مع أن أدلتها برهانية يقينية ، لا سبيل إلى مجادلتها ، وهي في عصرنا جزءٌ من العلوم الكونية والطبيعية التي تقوم على مبدأ الملاحظة والتجربة .

ومع تقرير هذا المبدأ - عدم تعارض العقل والشرع - أوضح أن لكل من العقل والشرع اختصاصاً ، أو دائرةً ينفذ فيها سلطانه ، ولا يتجاوزها .

وجعل الغزالي من اختصاص العقل إثبات أعظم قضيتين من قضايا الفلسفة ، وأخطر قضايا الدين ، وهما : « وجود الله » ، « وثبوت النبوة » .

فوجود الله وقدرته وإرادته وعلمه إنما يثبت بالعقل ، وما لم يثبت ذلك بالعقل لم يثبت بالشرع»<sup>(١)</sup> .

فوجود الكون ، ووجود الإنسان ، ووجود الحياة على هذا الكوكب ، دلّ على أن وراءها خالقاً قديراً مريداً عليماً ، وإلاّ ما قام هذا الكون البديع المنتظم ، ولا هذا الإنسان ، ولا هذه الحياة !.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١٩٨ . ط ، دار الأمانة ، بيروت .

وكذلك بيان أن هذا العالم من فعله الجائز في حقه ، وأن بعث الرسل من أفعاله الجائزة ، وأنه قادر عليه ، وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات ؛ لأنه تعالى لا يُضِلُّ عباده ، وأن هذا الجائز واقع .

وبهذا يدل العقل على صدق النبي ، ثم يعزل العقل نفسه عندئذ ، وينتهي تصرفه ، ويعترف بأنه يتلقى من النبي بالقبول ما يقوله في الله واليوم الآخر ، مما لا يستقل العقل بإدراكه ، ولا يقضي أيضاً باستحالته<sup>(١)</sup>.

وبهذا يرى الغزالي أن من وظيفة العقل إثبات الشرع ، عن طريق إثبات خالق العالم ، وإثبات النبوة ، التي يمنحها لمن يصطفي من عباده ، فإذا ثبت الوحي من الله ، كان من واجب العقل بعد ذلك أن يتلقى منه ، لا أن يعترض عليه ، وبتعبير الغزالي : (يعزل العقل نفسه) من منصب القضاء في أمر الدين ، ليقول في الاعتقادات : آمنا وصدقنا ، ويقول في العمليات : سمعنا وأطعنا .

وإنما عزل العقل نفسه هنا ليتلقى من مشكاة النبوة ووحى الله إلى نبيه ، لأن الوحي معصوم ، والعقل لا عصمة له ، والعقل وإن كان نوراً ، ففرق كبير بينه وبين نور النبوة ، فهداية النبوة فوق هداية العقل ، أو هي - على حد تعبيره - طور من وراء العقل ، تنفتح فيه عينٌ يدرك بها مدركات ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات<sup>(٢)</sup>.

وهو قد آثر طريق الصوفية : لأنهم - في نظره - في حركاتهم وسكناتهم ، وظاهرهم وباطنهم ، مقتبسون من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر : المستصفى ، ٦ / ١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، تقديم عبد الحليم محمود .

(٣) المرجع السابق ١٧٨ .

وعزلُ العقلِ نفسه بعد ثبوت النبوة بالوحي ، لا يعني إلغاء دوره بالمرة ، فهذا  
مِمَّا يَقُلُ به الغزالي ، ولا أحد من أئمة الإسلام .

فالعقل هو المكلف بتفسير النصوص ، واستنباط الأحكام منها ، ومما لا نصَّ  
فيه ، ووضع الأصول الضابطة لذلك ، وتأويل ما يحتمل التأويل منها ، إذا تعارضتْ  
تجواهر مع القواطع العقلية ، وإزالة التعارض بين بعضها وبعض . . . إلى غير ذلك  
مما يعمل فيه العقل .

يقول الغزالي : كلما ورد السَّمْعُ به يُنظر :

- فإن كان العقل مجوزاً له وجب التصديق به قطعاً ، إن كانت الأدلة السمعية قاطعةً  
في متنها ومُسْتندها ، لا يتطرق إليها احتمال ، ووجب التصديق بها ظناً إن كانت  
ظنية .

- وأما ما قضى العقل باستحالته ، فيجب فيه تأويل ما ورد السَّمْعُ به ، ولا يتصور  
أن يشمل السمع على قاطعٍ مخالفٍ للمعقول .

- فإن توقف العقل في شيء من ذلك ، فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز ، وجب  
التصديق أيضاً لأدلة السمع ، فيكفي في وجوب التصديق انفكاكُ العقل عن  
القضاء بالإحالة<sup>(١)</sup> .

فهذا هو موقف العقل في مجال (العقائد) . . وربما اتَّهم الغزالي من بعض  
خصومه - ولا سيما من المدرسة السلفية - بأنه استخدم العقل في (التأويل) أكثر  
مما ينبغي ، وربما كان عذره أنه يرد على العقلانيين (الخلّص) من الفلاسفة  
وأمثالهم من غلاة المعتزلة .

دور العقل في مجال الشرعيات (أو العمليات) :

وللعقل دور كذلك لا يُنكر في مجال (العمليات) في الفقه والأصول ، التي  
يجتمع فيها العقل والشرع في نظر الغزالي ، وهي أفضل العلوم فيما يرى .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

يقول في مقدمة كتابه (المستصفى) وقد صنّفه قبل وفاته بنحو عامين ، بعد أن قسم العلوم إلى عقلي محض ، كالحساب والهندسة ، وإلى ديني محض كالحديث والتفسير ، قال :

وأشرف العلوم : ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأي والشرع ، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل ، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل<sup>(١)</sup> .

ولكن الغزالي يرى في مجال (العمليات) أن هناك (منطقةً محرمة) يجب على العقل ، أن يعزل نفسه عنها وهي : إدراك الحِكم التفصيليّة للعبادات الشرعية التي ينظر إليها الغزالي على أنها - بحدودها ومقاديرها المحددة المقدرة من جهة الأنبياء - أدوية ربّانية (لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك الخواصّ ، بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ...).

فلا يستطيع العقل أن يدرك لماذا كان السجود في الصلاة ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر ، ونحو ذلك . . . فهذا من قبيل الخواص التي لا يُطلع عليها إلا بنور النبوة .

قال : « ولقد تحامق وتجاهل جداً مَنْ أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمةً ، أو ظن أنها ذُكرت على الاتفاق ، لا عن سرٍّ إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية »<sup>(٢)</sup> .

وما عدا ذلك فإن العقل يصول ويجول ، في استنباط الأحكام من النصوص التي تختلف فيها الأفهام ، وتتفاوت العقول ، أو مما لا نصّ فيه عن طريق القياس وغيره من أدوات الاجتهاد ، والاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، ورعاية العرف ، وسدّ الذرائع ، وغيرها .

(١) مقدمة المستصفى ٣/١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٨٩ .

وقاريء فقه الغزالي أو أصوله ، أو كلامه ، أو تصوفه ، أو منطقته ، يرى أنه لم يتخلّ عن العقل يوما ، ولكنه العقل الذي يعرف حدوده ، ولا يحرم نفسه من نور تعظم منه ، وهو نور الوحي الإلهي ، الذي قطع العقل نفسه بثبوته .

بهذا ظل الغزالي وفياً للعقل ، مؤمنا بمهمته في الدين ، كمهمته في الدنيا ، داعيا إلى الجمع بين مقررات الشرائع ، وموجبات العقول ، أو بين الشرع المنقول ، وإلحاق المعقول ، مع الاعتراف بأن لكل منهما سلطانا لا يتعداه .

وبهذا نتبين ، أن الغزالي بهجمته على الفلسفة الإلهية التقليدية ، لم يتنكر للعقل ، ولا حرم المسلمين من فلسفة حقيقية أصلية ، حين تصدى لنقض الفلسفة اليونانية ، في صورتها العربية أو الإسلامية كما تسمى ، والذين يقولون هذا غالطون في مغالطون .

فما كانت فلسفة الفارابي وابن سينا ، أو فلسفة (إخوان الصفا) فلسفة إسلامية حقا ، كما يقول الباكون أو المتباكون عليها .

إن منابعها لم تكن من الإسلام ، ومنطلقها لم يكن هو الإسلام ، ومقاييسها لم تكن على الإسلام ، فكيف تنسب إليه وتحسب عليه؟!

كل ما يصلها بالإسلام : أنها إنتاج بعض أبنائه ، وأنها نشأت في أرضه ، وكُتبت بحقه ، أعني لغة كتابه ، وهي العربية .

ولا نريد أن نصل إلى حد القول بأنها الفلسفة اليونانية ، كُتبت باللغة العربية .

\* \* \*





## العلم المذكور في القرآن والسنة يشمل علم الدين وعلم الدنيا

وقد كتب بعض إخواننا الشرعيين في بعض البلاد - عفا الله عنهم - كلاماً أثبتوا فيه أن العلم الذي جاء ذكره ومدحه في نصوص القرآن والسنة النبوية ، كله في علم الشرعي والديني وحده ، ولا مجال فيه لممدح علم من علوم الدنيا والحياة .  
قلوا : ولا يجوز لنا نحن علماء المسلمين ودعاتهم : أن نأخذ ما جاء في القرآن والسنة من آيات وأحاديث ، لعلوم العقيدة والشريعة ، إلى مجالات أخرى ، لأن هذا يعتبر نوعاً من التحريف المتعمد لكتاب الله تعالى ، ولكلام رسوله !

نشر هذا الكلام في بعض الصحف ، فأزعج إخواننا المهتمين بأمر العلم وأصوله في (المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية) بالكويت ، وعلى رأسها رئيسها القوي الدكتور عبد الرحمن العوضي ، وأمينها العام المساعد ، الدكتور أحمد رجائي الجندي ، والدكتور خالد المذكور ، وغيرهم ، ممن اتصلوا بي ، وحدثوني في الأمر ، وقلت لهم : إن كلامهم خاطئ مائة في المائة ، ولي ردود علمية عليه ، من كتاب رينا ، ومن سنة نبينا . فقالوا لي : إننا نرجوك ونلج عليك أن تسارع بكتابة هذا الرد ، وترسله إلينا بغاية السرعة ، لننشره ، ونعمم نشره ، لنوحد ثقافة المسلمين ، ونصححها ، فميزة الأمة المسلمة أنها أمة ينصح بعضها لبعض ، ولا يستكبر بعضها عن السماع لبعض .

وقد أرسلت ردي إلى الإخوة في الكويت ، ونشروه في الحال بوسائلهم الميسورة والموفرة ، ولهم في ذلك أجرهم ونيتهم .

وها أنذا أضع ردِّي هنا في هذه الرسالة الثقافية للمسلمين .

## شمول العلم وتنوعه في لسان القرآن :

دعوة الإسلام إلى العلم والتعلم ، وتنويهه بفضل العلم ، ومنزلة العلماء ، مما لا يختلف فيه اثنان ، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في ذلك غزيرة مستفيضة ، ولا يوجد دين من الأديان أفاض في الثناء ، على العلم وأهله كالإسلام ، وحسبنا أن أول آيات نزلت من القرآن نوّهت بشأن العلم والتعليم : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥).

والعلم الذي نوّه به القرآن ، وحفلت به آياته ، ونوّه به الرسول الكريم ، وأحاديثه الشريفة ، يشمل كلّ معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء ، وتزول بها غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان ، سواء أكان موضوعه الإنسان ، أم موضوعه العالم ، أم موضوعه الوجود والغيب ، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحسّ والتجربة ، أم وسيلته العقل والبرهان ، أم وسيلته الوحي والنبوة .

فليس صحيحاً ما شاع عند الغربيين ومن دار في فلكهم : (أن العلم مقصور على ما قام على الملاحظة والتجربة) ، وليس صحيحاً أيضاً ما يتصوره بعض المسلمين المتدينين أو يصورونه من أن « العلم » في القرآن والسنة ، يعني « العلم الديني » ولا شيء غيره ، وحاول بعض أهل العلم الدفاع عن هذه الدعوى !

ففي القرآن الكريم آيات أثنت على العلم وأهله ، من حيث هو (علم) ، أي : معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء ، دون النظر إلى كونه علماً دينياً أو دنيوياً ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) . فهنا لم يذكر مفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لم يقل : الذين يعلمون علم الدين أو الشريعة أو الطبيعة أو غيرها ، بل نزل الفعل المتعدي - وهو (يعلم) - منزل الفعل اللازم ، فكأنّ المعنى : هل يستوي العالم والجاهل؟ والاستفهام إنكاريّ ، على معنى أنهما لا يستويان .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨) ، فالمفهوم من هذه الآية : أن (أولي العلم) الذين عطفهم الله تعالى على الملائكة في الشهادة لله بالوحدانية ، هم الذين استنارت بصائرهم بالعلم والمعرفة ، سواء كان علمهم دينياً أم طبيعياً ، وكم رأينا في علماء الكون من شهد لله تعالى بالوحدانية والتفرد بالقدرة والجلال والكمال ، كما في كتاب (أ . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، الذي يُترجم إلى العربية بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) ومثله كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) بأقلام ثلاثين عالماً متخصصاً في العلوم الكونية والإنسانية .

ولكن الذي عجبْتُ له أن بعض علماء الدين في عصرنا جنحوا إلى هذا الرأي الغريب ، وذهبوا إلى أن كل النصوص التي وردت في آيات القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الكريم ، في فضل العلم والعلماء ، إنما يقصد بها العلم الديني وحده ، وعلماء الدين دون غيرهم .

وقد يكون هذا صحيحاً في قليل من النصوص الواردة في الأصلين العظيمين في الإسلام : (القرآن والسنة) ، ولكن أغلب نصوصهما وردت عامة ومطلقة ، تشمل كل علم ديني أو دنيوي ، وبعضها لا يمكن أن يفهم منه إلا أنه العلم الدنيوي : لعلم بالكون والحياة والإنسان ، وما يجري عليها من سنن .

وهذا ما نحاول أن نلقي عليه بعض الأشعة الكاشفة لما قد يلتبس على بعض الباحثين في هذا الميدان .

**تعليم آدم الأسماء كلها :**

نبدأ هنا بالإنسان الأوّل ، أبي البشر آدم عليه السلام ، الذي قصّ القرآن علينا حصّته في أكثر من سورة ، ومنها سورة البقرة ، التي انفردت بهذا الموقف العجيب ، وهو مشاورة الله تباركت أسماؤه لملائكته في استخلاف آدم في الأرض : ﴿ وَإِذْ قَالَ

رُتِّلِكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا  
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(البقرة: ٣٠).

وأراد الله تعالى أن يظهر للملائكة فضل آدم وما خصه الله به من مواهب  
وقدرات ترشحه للخلافة في الأرض ، فعقد ما يشبه (المسابقة) أو (الامتحان) بينه  
وبينهم ، فظهر تفوق آدم على الملائكة في العلم ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ  
كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾  
قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمُ  
أُنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ (البقرة: ٣١-٣٣) .

تُرى أي نوع من العلم كان عند آدم؟ أهو علم ديني أم علم دنيوي؟

لا يمكن أن يكون علما دينياً ؛ لأن آدم لم يكن قد أنزل عليه وحي ، حتى  
يتكوّن من ورائه علم ديني ، إنما هو علم بأسماء الأشياء ، التي أودعها الله في  
الأرض ، والتي سيحتاج آدم إلى التعامل معها .

والعلم بأسمائها يعني - والله أعلم - : العلم بخصائصها وفوائدها ، وما يتّصل  
بذلك من مهماتها في الحياة ، وهذا - بالقطع - ليس علما دينياً ولعله لو كان علما  
دينياً ، لكان الملائكة أولى بالعلم به من آدم ؛ لأن الملائكة هم الذين ينزلون  
بالوحي على رسل الله عليهم السلام .

علم يوسف تأويل الأحاديث :

وإذ تبينا في قصة آدم أن العلم الذي علمه الله آدم ، وظهر به فضله على الملائكة ،  
ليس علما دينياً ، فنجد في قصة يوسف عليه السلام أن العلم الذي علمه الله وخصه  
به ، وهو تأويل الأحاديث ، ويعني بها : الرؤى والمنامات ، هو كذلك ليس بعلم  
ديني .

فقد قال يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رَتُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف: ٦).

وقال تعالى - بعد أن ذكر أن الذي اشتراه من مصر ، وهو العزيز قال لامرأته - :  
﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ ﴾ . ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي  
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف: ٢١) .

وقال يوسف بعد أن جمع الله شمله بأبيه وإخوته ، ودخلوا مصر بمشيئة الله  
عَنِ : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي  
بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١) .

ومن الواضح أن علم تأويل الأحاديث الذي علمه الله ليوسف ، ليس علما دينيا ،  
بل هو علم يقوم على الفطنة والفراسة والحدس ، فهو أقرب إلى علوم الدنيا منه  
إلى علوم الدين .

ولذا عبّر القرآن عنه بالظن في قوله عن أحد السجينين ، اللذين دخلا معه  
السجن ، وأول رؤياه بأنه سينجو ويخرج من السجن ، ويسقي سيده خمرًا ، كما  
كان يفعل ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾  
(يوسف: ٤٢) .

وقال تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ  
نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢٢) .

وهذا العلم آتاه الله ليوسف مع الحكم - أي الحكمة - ليس هو علم النبوة ، فلم  
يكن قد أوتيها بعد ، ولا علم الدين ، فلم يكن في مصر في ذلك الوقت علم للدين  
يحصله أو يطلبه ، إنما هو المعرفة والبصيرة بالأمور ، والاعتماد على العقل في  
الاستنتاج واختيار البدائل ونحوها ، وهذا العلم هو الذي اعتبره يوسف عليه السلام

مرشحا أساسيا له لمنصب الولاية على خزائن أرض مصر ، حين قال له ملكها : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ (يوسف: ٥٤، ٥٥) .

فذكر يوسف عليه السلام سببين يؤهلانه للمنصب ، وهما الحفظ والعلم . والمراد بـ (الحفظ) : الأمانة التي تجعله يحفظ ما ائتمن عليه من أموال وأعمال ، و(العلم) : يراد به المعرفة ، والخبرة بما يحتاج إليه هذا المنصب المالي الاقتصادي الإداري ، من خبرة بأمور المالية ، والاقتصاد ، والزراعة ، والإدارة ، والتخطيط ، والتموين ، وخصوصا في زمن الأزمة الاقتصادية الكبيرة التي تتوقعها مصر بعد سبع سنوات ، وكيف يدّخر من سنوات الخصب لسنوات القحط .

ولا يمكن أن يُراد من صفة (عليم) التي ذكرها يوسف : أنها تتعلق بعلم الدين - إذ لا دخل له في الترشيح للولاية على خزائن الأرض .

علم موسى عندما بلغ أشده واستوى :

وكما ذكر الله تعالى عن يوسف أنه عندما بلغ أشده آتاه (حُكْمًا وَعِلْمًا) ، ذكر ذلك عن موسى عليه السلام ، حينما قص علينا نشأته وطفولته وشبابه في سورة القصص ، فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ (القصص: ١٤) .

فالعلم الذي أوتيهِ موسى هنا ، كالعلم الذي أوتيهِ يوسف هناك ، وإن زاد موسى هنا بأن الله آتاه هذا العلم بعد أن بلغ أشده واستوى ، أي : نضج واكتمل ، وصهرته المِحْن والشدائد منذ طفولته ، وصناعته على عين الله تعالى .

علم داود وسليمان :

ومما ذكره القرآن في شأن العلم : ما آتاه الله داود وسليمان عليهما السلام ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ (النمل: ١٥) .

فأي علم آتاه الله داود ، وابنه سليمان؟ هل هو العلم الديني المحض؟ أو هو علم آخر؟ لقد بينتُ لنا الآيات التالية طبيعة هذا العلم ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتَيْنَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (النمل: ١٦).

بين سليمان أن العلم الذي فضّل به على كثير من عباد الله المؤمنين ، هو : (علم منطق الطير) ، أي : لغة الطير والحشرات ، وقد ذكر لنا القرآن نموذجاً منها في القصة حيث قال : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَحْمَلَ صَبِيحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل: ١٧-١٩).

وكذلك ما ذكره القرآن عن قصته مع الهدهد ، وكيف أنبأه بقصة سبأ ، وملكتهم بلقيس ، فهذا هو العلم الذي علمه الله سليمان ، ولم يكن علم الدين .

### علم الذي أحضر عرش بلقيس من اليمن :

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ ، نجد واحداً من ملته استطاع أن يأتي بعرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى الشام في لمح البصر ، بوساطة (علم عنده من الكتاب) ، ولا يتصور أن يكون هذا العلم علماً دينياً محضاً ، يتعلق بالعقيدة والشرعية ، فإن مهمة هذا العلم لاعلاقة لها بنقل الأشياء من مكان إلى آخر ، بمثل هذه السرعة الهائلة ، التي قصّها علينا القرآن في قصة سليمان : ﴿ قَالَ يَتَاءَتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٣٨-٤٠) .

ولا يمكن أن يكون هذا العالم من الملائكة ؛ لأن المفروض أنه من (ملأ) سليمان ، فإنه خاطبهم بقوله : ﴿ يَتَأَيُّمَ الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ فكان الجن من ملئه ، فقد سخرهم الله له ، ولم يكن الملائكة من ملئه قطعاً ، فإذا لم يكن من الجن فلا بد أنه من الإنس ، آتاه الله من العلم الطبيعي ما أمكنه أن يأتي بالعرش بمثل هذه السرعة العجيبة .

### علم طالوت :

ومما ذكره القرآن عن العلم : ما آتاه الله طالوت ، الذي ذكر القرآن قصته في سورة البقرة ، فقد قال تعالى في قصة الملأ من بني إسرائيل الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وكتب عليهم القتال ليحرروا أرضهم : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (البقرة: ٢٤٧) .

فما نوع العلم الذي زاد الله طالوت بسطة فيه؟ لا يمكن أن يكون علم الدين ؛ لأن علم الدين عند نبيهم الذي قال لهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، ولكن العلم هنا يحدده السياق والمقام ، وهو العلم بشؤون الحرب والفنون العسكرية ، وإدارة المعارك ، ونحوها مما تتطلبه القيادة الحربية .

وبهذا يتضح لنا تمام الوضوح أن (العلم) حينما يذكر في القرآن ليس هو العلم الديني وحده ، كما يتصور كثير من أهل العلم الشرعي .

استخدام لفظة (العلم) ومشتقاتها في غير العلم الديني :

ومما يدل على بطلان ذلك التصور : استخدام لفظة : (العلم) ومشتقاتها في غير العلم الديني ، كما تدل على ذلك آيات القرآن .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٧) .



فالعالم الذي وصف الله به هؤلاء القوم الذين فصل لهم الآيات ، والذي جاء ذكره  
بعد قوله : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ  
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٩٦) ، لا يمكن إلا أن يكون هو العلم الكوني ، الذي  
يخل فيه علم الفلك وما يتعلق به .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ  
لَوْنِكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢) .

فالعالم المراد هنا : هو الذي به يتعرف على آيات الله في الكون ، علويه وسفليه ،  
وفي سر اختلاف الألوان والألسنة ، فهو يشمل علوم الكون ، وعلوم الإنسان .

واختلاف الألوان والألسنة قد يراد به : اختلاف الأمم والشعوب في لغتها وألوانها  
بعضها عن بعض ، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

وقد يراد به اختلاف الأفراد في أصواتهم ، حتى إن لكل فرد منهم تميزاً في  
صوته يجعل له (بصمة) خاصة به ، لا يشاركه فيها غيره . كما في (بصمة) البنان ،  
التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِيَ بَنَانَهُ ﴾ (القيامة: ٤) ،  
ومثله الاختلاف في الصورة ، فكل واحد له صورته المستقلة المتميزة ، مهما يكن  
شبهه بغيره .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا  
الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣) .

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً ، وكان بعض السلف يبكي على نفسه إذا مر  
بمثل من القرآن ولم يفهم مغزاه ، ويقول : قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا  
الْعَالِمُونَ ﴾ فأنا لست من العالمين ! فالعالمون هنا هم : الذين يعقلون الحكمة من  
وراء ضرب الأمثال للناس ، فهم الذين يغوصون في الأعماق ولا يقفون عند  
السطوح .

ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا  
أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٧٥) وَمِنَ

النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ  
الْعُلَمَاءُ ﴿ (فاطر: ٢٧، ٢٨) .

فالعلماء هنا - كما يبدو من السياق - ليسوا هم علماء الدين ، وفقهاء الشريعة ،  
على فضلهم ومكانتهم - وإنما هم الذين يعرفون آيات الله ، ويكتشفون سنته في  
خلقه ، فيما ذكر من السماء ، والنبات والجبال ، والناس ، والدواب ، والأنعام ، أي  
الذين يعرفون عظمة الله من خلال معرفتهم بعلوم الإنسان ، وعلوم الحياة من نبات  
وحیوان وأرض ، ومن خلال هذه المعرفة الحقيقية يخشون الله ، إذ لا يخشى الله  
ويخاف مقامه حقاً إلا من عرفه سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ  
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ  
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥) .

فتفصيل الآيات هنا إنما ينتفع به الذين يعلمون أسرار الله في الظواهر الكونية ،  
من جعل الشمس ضياءً ، فيها النور والحرارة ، والقمر نورا ؛ لأنه يستمد نوره من  
الشمس ، ومن تقدير القمر منازل لمعرفة عدد السنين والحساب .

وقال تعالى في قصة الرهط التسعة من ثمود : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا  
مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ  
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فَبِئْسَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٠-٥٢) .

فالذين يعلمون هنا هم : الذين يعرفون سنن الله تبارك وتعالى في التعامل مع  
المكذبين والظالمين ، وأن مكره تعالى أعظم من مكرهم ، وكيده أقوى من كيدهم ،  
وأنه يمهل ولا يهمل ، وأنه يأخذهم وهم لا يشعرون ، وما ربك بغافل عما  
يعملون .

وفي كثير من الآيات يأتي العلم فيها بمعنى المعرفة الواعية ، والإدراك الراشد  
للأمور ، فهو ضد الجهل والغباء بصفة عامة ، لا بمعنى تحصيل علم معين من

علوم الدين أو الدنيا ، وهذا في الحقيقة أكثر ما جاء في القرآن بصيغة (يعلمون) أو (تعلمون) مثبتة أو منفية .

خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٢) .

فالذين يعلمون تفصيل الآيات هنا : هم أولو المعرفة الراشدة ، الذين يميزون بين ما يعلم بطريق الحس ، وما يعلم بطريق العقل ، وما يعلم بطريق الشرع ، فيأخذون كل علم من طريقه المخصوص به ، وهم هنا يعلمون أن ما حرمه الله على عباده لا يعرف إلا من طريق الوحي ، فلا يفترون على الله الكذب ويقولون : هنا حلال وهذا حرام بغير برهان من الله .

وقد جاءت هذه الآية في سياق نعى القرآن على أهل الجاهلية ، دعاواهم على الله بغير الحق ، أنه أمر بكذا أو حرم كذا ، من غير سلطان أتاهاهم ، فقبل ذلك بآيات قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨) .

وفي سورة الأنعام مناقشة تفصيلية للذين حرموا أنواعاً من الأنعام بغير برهان من الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٣، ١٤٤) .

ومثل ذلك قوله بعد ذكر بعض أحكام الأسرة : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٣٠) .

فالمراد هنا : أنهم يعلمون بما لديهم من فقه ورشد : أن الله لا يشرع إلا ما فيه الخير والصلاح لهم ، فهم أهل علم ووعي ، لا أهل جهالة وبلادة .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٥) .

فليس المراد هنا أنهم يعلمون علما معينا من علوم النقل أو العقل ، بل المراد أنهم ليسوا من أهل الجهل والغباء .

وهذا ما نجده أيضا في حالات نفي العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٦) .

فليس المقصود نفي علم معين عنهم من علوم الشرع أو الكون ، بل المقصود نفي العلم من حيث هو ، أي أنهم ليسوا بأهل علم ومعرفة .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٩٣) .

ومثله في سورة أخرى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٥٩) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجنات: ١٨) .

فالناظر في هذه الآيات وما شابهها ، يتبين : أنها لا تنفي علما معينا من علوم الدين أو الدنيا ، إنما تنفي العلم من حيث هو ، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم الذين يقام لهم وزن أو يحسب لهم حساب ، بل هم من أهل الجهل الذين لا يعلمون ، وكفى بالجهل وصمة وعارا .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨) .

فقد يكون المراد نفي العلم عنهم ودمغهم بالجهل المطلق ، أو نفي العلم بهذه القضية المتحدث عنها ، فهم لا يعلمون أن العزة لله جميعا ، لأنه الخالق ، ومالك الملك ، وصاحب الأمر ، ومن بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يُجَار عليه ، وأن العزة لرسوله ، فهو الذي أرسله بالهدى ودين الحق ، فهو يتكلم باسم الله ، وينفذ أمر الله ، ويبلغ رسالة الله ، ومعه المؤمنون ، فعزتهم من عزة الله ، وحبهم موصول بحبله ، وقوتهم مستمدة من قوته ، فلا يملك أحد أن يذل نفوسهم ، أو يحني رؤوسهم ، وهم منسوبون إلى القوي العزيز .

### أكثر الناس لا يعلمون :

ولقد حكم القرآن في آيات كثيرة على أكثرية البشر بأنهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .  
 بمعنى : أنهم ينقصهم العلم الحقيقي بهذه القضايا المهمة التي يتحدث عنها -  
 وتعني بالعلم الحقيقي : الإدراك الواعي الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل ،  
 وهو أمر مؤسف حقا ، مع أن الله تعالى نصب الأدلة لعباده ، من الكون المنظور ،  
 ومن الوحي المسطور ، لكي يعلموا ويعرفوا ، فما لهم لا يعلمون ؟ ! .

ولما قلنا : الإدراك الجازم ، لأن ما ليس بجازم لا يكون علما ، بل ظنا إذا كان  
 حجا ، ووهما إذا كان مرجوحا ، وشكا إذا استوي الطرفان ، ولهذا قابل القرآن  
 العلم والظن في قوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾  
 (الجاثية: ٢٤) .

ووصفنا الإدراك الجازم بـ (المطابق للواقع) ؛ لأن غير المطابق ليس علما ، بل  
 هو جهل وغباء . وكذلك قلنا : الناشئ عن دليل ، لأن ما ليس كذلك ليس علما ،  
 بل هو تقليد ، بمعنى اعتماد قول الغير بلا حجة ، وقد أجمعوا على أن التقليد ليس  
 بعلم .

ولو أردنا أن نتبع هذه الصيغة في القرآن : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ،  
 أو ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أو ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ونحوها ،  
 لاتسع بنا المجال ، وطال بنا المقال .

## العلم عند سلف الأمة :

والعلم عند سلف الأمة يشمل علوم الشرع ، وعلوم العقل ، وعلوم اللسان ،  
أو قل : هو يشمل علم الدين وعلم الدنيا .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتابه الشهير (جامع بيان العلم) :  
حدّ العلم عند العلماء والمتكلمين في هذا المعنى هو ما استيقنته وتبينته ، وكل من  
استيقن شيئا وتبينه فقد علمه ، وعلى هذا من لم يستيقن الشيء ، وقال به تقليدا ،  
فلم يعلمه .

والتقليد عند العلماء غير الاتباع ؛ لأن الاتباع هو تَتَبُعُ القائل على ما بان لك  
من فضل قوله وصحة مذهبه .

والتقليد أن تقول بقوله ، وأنت لا تعرف وجه القول ولا معناه ، وتأبى من سواه ،  
أو أن يتبين لك خطؤه ، فتتبعه مهابة خلافه ، وأنت قد بان لك فساد قوله ، وهذا  
محرم القول به في دين الله سبحانه وتعالى .

والعلم عند غير أهل اللسان العربي - فيما ذكروا - يجوز أن يترجم باللسان  
العربي علما ، ويترجم معرفة ، ويترجم فهما .

والعلوم تنقسم قسمين : ضروري ، ومكتسب .

فحد الضروري : ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه ، ولا يدخل فيه على  
نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس  
والعقل ، كالعلم باستحالة كون الشيء متحركا ساكنا ، أو قائما قاعدا ، أو مريضا  
صحيحا في حال واحدة .

ومن الضروري أيضا وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ،  
كذوق الشيء يعلم به المرارة من الحلاوة ضرورة ، إذا سلمت الجارحة من آفة ،  
وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات .

ومن الضروري أيضا علم الناس أن في الدنيا مكة والهند ومصر والصين وبلدانا قد عرفوها ، وأما قد خلت .

وأما العلم المكتسب : فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر ، ومنه الخفي والجلي ، فما قرب منه من العلوم الضرورية كان أجلى ، وما بعد منها كان أخفى .  
والمعلومات على ضربين : شاهد ، وغائب .

فالشاهد ما علم ضرورة ، والغائب ما علم بدلالة من الشاهد ، والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أسفل ، وعلم أوسط .

فالعلم الأسفل هو : تدريب الجوارح في الأعمال والطاعات ، كالفرسية والسباحة والخياطة ، وما أشبه ذلك ، من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتي عليها وصف .

والعلم الأعلى عندهم : علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزل الله في كتبه وعلى السنة أنبيائه - صلوات الله عليهم أجمعين - نصا ومعنى ، ونحن على يقين مما جاء نبينا ﷺ عن ربه عز وجل ، وسنه لأمته من حكمته ، فالذي جاء به هو القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، شفاء ورحمة للمؤمنين ، آتاه الله الحكم والنبوة ؛ فكان ذلك يتلى في بيوته . قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

يريد : القرآن والسنة ، ولسنا على يقين مما يدعيه اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل ؛ لأن الله قد أخبرنا في كتابه عنهم أنهم ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة: ٧٩) ، ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨) . فكيف يؤمن من خان الله ، وكذب عليه وجحد واستكبر؟! قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٥١) ، وقد اكتفينا والحمد لله بما أنزل الله على نبينا ﷺ من القرآن ، وما سنه لنا عليه . السلام .

قال أبو عمر : من الواجب على من لا يعرف اللسان الذي نزل به القرآن ، وهي لغة النبي ﷺ أن يأخذ من علم ذلك ما يكتفي به ، ولا يستغني عنه حتى يعرف تصارييف القول وفحواه ، وظاهره ومعناه ، وذلك قريب على من أحب علمه وتعلمه ، وهو عون له على علم الدين الذي هو أرفع العلوم وأعلاها ، به يطاع الله ويعبد ، ويشكر ويحمد ؛ فمن علم من القرآن ما به الحاجة إليه ، وعرف من السنة ما يعول عليه ، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، حصل على علم الديانة ، وكان على أمة نبيه مؤتمنا حق الأمانة ، إذا اتقى الله فيما علمه ، ولم تمل به دنيا شهوته ، أو هوى يرديه ، فهذا عندنا العلم الأعلى الذي نحظى به في الآخرة والأولى .

والعلم الأوسط هو : معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه ، كعلم الطب والهندسة<sup>(١)</sup> .  
ومن هنا ذهب الإمام أبو حامد الغزالي ، وغيره من علماء الأمة ، إلى أن كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية على الأمة مثل الطب والهندسة وغيرهما .

فإذا قام في الأمة عدد كاف يلبي مطالبها ، ويسد حاجتها ، ويغنيها أن تكون كلاً على غيرها في النواحي المدنية والعسكرية ، فقد سقط الإثم والخرج عن سائر الأمة ، وإن لم يقم هذا العدد الكافي في كل اختصاص تحتاج إليه ، فالأمة كلها آثمة ، لتضييعها هذه الفريضة الجماعية ، الواجبة عليها بالتضامن ، على تفاوت في مستوى المسئولية ، فمسئولية الجاهل ليست كمسئولية العالم ، ومسئولية ذوي الشأن وأولي الأمر ، ليست كمسئولية غيرهم من المغمورين .

بل ذهب الغزالي وغيره إلى أن تعلم أصول الصناعات المختلفة فرض على الأمة ، من الحدادة والنجارة والنسيج والخياطة ، وغيرها من كل ما لا يستغني عنه المجتمع المدني<sup>(٢)</sup> .

(١) جامع بيان العلم وفضله ٧٨٧/٢-٧٨٩ .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ١٦/١ .



وفي عصرنا تدخل كل الصناعات «التكنولوجية» التي طورت بها الحضارة المعاصرة الحياة تطويرا هائلا ، فطوى الإنسان المكان ، واختصر الزمان ، ووفر جهد الإنسان ، وغدونا نتحدث عن ثورة «التكنولوجيا» وثورة «البيولوجيا» وثورة «الاتصالات» ، وثورة المعلومات «وغيرها من الثورات التي غيرت وجه الحياة ، ويجب على أمة الإسلام أن يكون لها دورها في هذه الثورات ، وألا تقف متفرجة والعالم يعمل ويتحرك ، ودينها يوجب عليها أن تكون في مقدمة القافلة ، لا في ذيلها .

وقد أشار القرآن إلى صناعات شتى ، مثل صناعة الحديد في الجانب العسكري ، والجانب المدني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: ٢٥) . فقله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية ، وقد علم الله نبيه داود صناعة الدروع : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٨٠) . ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ ﴾ (سبا: ١٠، ١١)، ومثل ذلك : الصناعات الغذائية كما في قوله : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (النحل: ٦٧) .

ومنها : الصناعات المتخذة من الأنعام : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (النحل: ٨٠) .

ومنها : صناعات التجميل والزينة : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الرعد: ١٧) . ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل: ١٤) .

ومنها : صناعة السفن ، وقد أجادها نوح عليه السلام : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا ۖ (المؤمنون: ٢٧) . ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ (هود: ٣٨) .

ومنها : صناعة البناء ، وقد تعلمها إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهما اللذان بنيا أول بيت وضع للناس : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

(البقرة: ١٢٧) .

ومنها : صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين : ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (الكهف: ٩٦) .

والقطر : هو النحاس المذاب ، وهو إذا أضيف إلى الحديد زاده صلابة وقوة .

ومنها الصناعات التي عملها الجن لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبَ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ (سبأ: ١٣) . ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ (ص: ٣٧) .

وعمل الجن لها لا يعني أن بني الإنسان لا يقدرون عليها ، ففي قصة سليمان رأينا بعض الناس ممن عنده علم من الكتاب يقدر على ما لم يقدر عليه العفريت من الجن ، إلى غير ذلك من الصناعات التي أشار إليها القرآن .

تكوين العقلية العلمية في القرآن :

ومن أعظم ما عني به القرآن في مجالنا : هو تكوين (العقلية العلمية) فهناك ما يمكن أن نطلق عليه «العقلية العامة» أو «العقلية الخرافية» ، وهي التي تصدق كل ما يقال لها أو يعرض عليها ، ولا تضعه موضع امتحان ، بل تأخذه قضية مسلمة ، ولا سيما إذا جاء من قبل من تعظمه ، مثل الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء ، فتقول : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . أو وجدنا سادتنا على ذلك يسيرون .

وفي مقابل هذه العقلية المتبعة ، توجد عقلية أخرى مخالفة ، لها مواصفاتها وخصائصها ، وهي التي عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها ، وصياغتها ، وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة .

ومن المقرر المعلوم : أنه لا يمكن أن يزدهر العلم ، وتتأصل جذوره ، وتمتد فروعه ، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيئ للعقول أن تفكر ، وللأفكار أن تتفتح ، وللآراء أن تناقش ، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته ، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية ، وبعبارة أخرى : يعمل القرآن بدعوته القوية ، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين «العقلية العلمية» المتحررة ، التي لا ينهض علم إلا على عاتقها ، فهو يرفض «العقلية الخرافية» ، ويرفض «العقلية المقلدة» ويرفض «العقلية المتخرصة» ويرفض «العقلية المتبعة للهوى» .

أما كيف يكون القرآن بتعاليمه هذه العقلية العلمية ، فهذا ما نوضحه في هذه الصفائف ، ومن قرأ القرآن وتدبره بحق ، وجد مقومات هذه العقلية مجسمة فيه .

## ١ - رفض الظن في موضع اليقين :

وأول ما توصف به هذه العقلية كما بين القرآن : أنها ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين ، كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود ، أعني : إلى الله والكون والإنسان والحياة - فهذه القضايا الكبرى لا يكفي فيها الظن ، بل لابد فيها من العلم ، أي العلم اليقيني - قد يكفي الظن في قضايا الفروع والجزئيات ، التي تقوم عليها تعاملات الناس بعضهم ببعض ، ولهذا تقبل شهادة الشهود مع احتمال الخطأ والكذب ، ويقبل حديث الواحد ، مع احتمال ذلك - أما في القضايا الكلية الكبرى ، فلا يستغني فيها عن اليقين .

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين اتباعهم الظن في هذه القضايا ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٣٦) .

وفي سورة أخرى : ﴿ وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم: ٢٨) . ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا

وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿الأنعام: ١٤٨﴾.

وقال في شأن المشركين عموماً ، ودعوتهم للأصنام من دون الله : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (يونس: ٦٦).

بل جعل القرآن اتباع الظن والخرص وراء ضلال أكثرية أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وحقيقة الخرص - كما قال الراغب في (مفردات القرآن) - : إن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال : خرص ، سواء أكان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له ، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين ، كفعل الخارص في خرصه ، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً ، وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه <sup>(١)</sup> .

ويقول القرآن عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿١٥٨﴾ .

(النساء: ١٥٧، ١٥٨) .

ويقول عن المشركين وعلاقتهم بالآخرة وقيام الساعة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ (الجاثية: ٣٢) .

(١) مفردات القرآن ص ٢٩٧ - طبعة دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت .

## ٢- عدم اتباع الأهواء والعواطف في مجال العلم :

ولا ترفض العقلية العلمية الظن فقط ، بل ترفض الهوى والعاطفة أيضا ، فالهوى يعمي ويصم ، واتباع العواطف قد يضلل الإنسان عن الحق ، وخصوصا العواطف الهوج ، مثل الحب الشديد ، والكره الشديد ، والغضب الشديد .

ولا غرو أن جاء في الحديث الصحيح : « لا يقضي القاضي وهو غضبان »<sup>(١)</sup> ، لأن انفعال الغضب يسد عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة ، فيظهر حكمه غير سليم .

ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين : اتباع الظن وهوى الأنفس معا ، فقال في شأن أصنامهم التي اتخذوها آلهة (اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾

(النجم: ٢٣).

وقال الله تعالى لداود : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص: ٢٦) .

وقال في خطاب رسوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ (القصص: ٥٠) .

وقال تعالى في ذم اتباع الهوى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣) . وفي سورة أخرى يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الأحكام (٧١٥٨) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٧) ، عن أبي بكرة . .

ولأجل ذلك قال ابن عباس : « شر إله عبد في الأرض : الهوى » ! .

فالعقلية العلمية هي التي تنحي الأهواء والانفعالات والعواطف جانباً ، وتنظر إلى الأمر نظرة موضوعية محايدة .

### ٣- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف :

والعقلية العلمية في نظر القرآن : هي التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد ، أو التسليم المطلق لما عليه السلف المعظمون ، ولا تقبل أن تقلد هؤلاء أو أولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه ، بل لابد من وضعه موضع الاختبار ، والنظر إليه في ضوء العقل ، وبميزانه المستقل ، فليس من المعقول أن يفكر لنا الأموات ونحن أحياء ، وأن يلزمنا الأقدمون بنتائج عصور مضت ، إنما نحن ملزمون بما تهدي إليه عقولنا ، وما ينتهي إليه تفكيرنا .

فإن من الخطل والخطر أن نفكر برؤوس غيرنا ، وقد خلق الله لنا رؤوساً خاصة بنا ! ولهذا شن القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد في كل صوره ، ففي سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠، ١٧١) .

وفي سورة المائدة يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤) .

ففي سورة البقرة بين أنهم ينقصهم العقل ، وهنا بين أنهم ينقصهم العلم ، وفي كلتا الحالتين بين أنهم ينقصهم الاهتداء إلى الصواب .

وفي سورة هود يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحَتُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ (هود: ١٠٩) .

وفي سورة الزخرف يقول تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ \* قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿ ٢٤ ﴾

(الزخرف: ٢٢-٢٤) .

فبين الله تعالى أن هذا هو موقف المترفين من أهل الشرك من قديم : الاتكاء على ما كان عليه الآباء .

وكذلك ذكر القرآن الكريم في جملة سور هذا الجمود المقلد ، أو التقليد الجامد ، من الأبناء للآباء .

ففي قصة هود بعد دعوته البليغة وحواره القوي ، نقراً : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ (الأعراف: ٧٠) .

وفي قصة إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَا عِكِفُونَ ﴾ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا هَا عِبِدِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ (الأنبياء: ٥٢-٥٤) .

وفي قصة شعيب : ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا ﴾ (هود: ٨٧) .

وفي قصص الرسل عامة مع أقوامهم يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠) .

يعنون بالسلطان المبين : الآيات الكونية الخارقة ، وكلها تعلات فارغة ، فقد جاءت الرسل من قبل بهذه الآيات فكذبوا بها ، كما فعلوا مع صالح وغيره .

يقول العلامة ابن الجوزي : في التقليد إبطال منفعة العقل ، فقد خلق للتدبر والتأمل ، وقبيح بمن أعطى شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة !<sup>(١)</sup>.

#### ٤- رفض التبعية للسلادة والكبراء :

ولم تقف حملة القرآن على الجمود العقلي الذي يتمثل في تقليد الأبناء للآباء ، والأحفاد للأجداد ، بل شمل الجمود الذي يتمثل في تبعية الشعوب والجماهير للسلادة والكبراء والجبابرة وأصحاب السلطان والشراء .

لقد ذم القرآن هذه التبعية العمياء ، وحمل الشعوب وزرها ، مع المتبوعين من أئمة أهل النار .

يقول القرآن على لسان نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَّوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح: ٢١) .

وقال في قصة هود وقومه عاد : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهْمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود: ٥٩) .

وقال في قصة موسى وفرعون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهٖ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

(هود: ٩٦، ٩٧)

وقال في سورة أخرى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهْمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ (الزحرف: ٥٤) .

وقد عرض القرآن لنا من مشاهد الآخرة ما يجسد لنا تلاوم المتبوعين والاتباع يوم القيامة ، وتبرؤ بعضهم من بعض ، ومحاولة كل فريق إلقاء التبعة على الآخر .

﴿ يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهْمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۖ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۖ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرَا ﴾ (الأحزاب: ٦٦-٦٨) .

(١) تلبس إبليس ص ٧٤ .



﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾  
 ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعُكَ مِمَّنْ نَدْرِي أَنَّكَ تُرِيدُهمُ ﴾  
 اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿ (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ  
 الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾  
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا الْخُنُوءَ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ  
 بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
 إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أُنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ  
 وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سبا: ٣١-٣٣).

﴿ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا  
 دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا  
 هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ  
 ﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا  
 كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿ (الأعراف: ٣٨، ٣٩).

وهنا حمل القرآن الأتباع تبعة ضلالهم ، فقد منحهم الله من المواهب والقدرات  
 والآلات ما يمكنهم من اتباع الهدى ، فعطلوا ذلك ، وساروا في ركاب المضلين ،  
 فما أغنوا عنهم من الله شيئا .

صحيح أن المتبوعين المضلين يحملون من الأوزار أكثر من الأتباع ، لأنهم  
 يحملون وزر الضلال ، ووزر الإضلال ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً  
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

(النحل: ٢٥).

﴿ وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَاَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ١٣).

ولكن هذا لا ينقص من أوزار الأتباع الذين ألغوا عقولهم ، وداروا في فلك المضلين .

## ٥- التعبد بالنظر العقلي :

ومن مقومات هذه العقلية العلمية التي ينشئها القرآن : أنها عقلية تقوم على النظر والتفكر ، فالنظر عندها فريضة ، والتفكر لديها عبادة .  
والقرآن حافل بالآيات التي تحض على النظر ، وتدعو إلى التفكير ، بأساليب شتى ، وصور متنوعة .

والمراد بالنظر : النظر العقلي ، وهو الذي يستخدم الإنسان فيه فكره في التأمل والاعتبار ، بخلاف النظر البصري ، فهو الذي يستخدم الإنسان فيه عينه .  
قال الإمام الراغب : « النظر : قلب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الرؤية ، يقال : نظرت فلم تنظر : أي لم تتأمل ولم تتروَّ »<sup>(١)</sup> .

فعلى الإنسان أن يبدأ بالنظر في نفسه أولاً ، ثم في أقرب الأشياء إليه ، يقول تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۖ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۖ ﴾ (الطارق: ٥-٨) .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعَبَبْنَا وَقْضِيبًا ۖ وَزَيْتُونًا تَحْتًا ۖ وَحَدَاقٍ ۖ وَغُلْبًا ۖ وَفَكِكَةً ۖ وَأَبًّا ۖ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُشْكُرُونَ ۖ ﴾ (عبس: ٢٤-٣٢) .

ثم ينتقل بنظره إلى ما حوله متأملاً متدبراً معتبراً ، لينتقل من المصنوع إلى الصانع ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الكون إلى المكوّن .

يقول القرآن : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) .

---

(١) مفردات القرآن : ص ٨١٢ تحقيق صفوان عدنان الداودي ط . دار القلم ، الدار الشامية - دمشق بيروت .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾  
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً  
وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ (ق: ٦-٨) .

﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ  
لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١) .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾  
(الأعراف: ١٨٥) . فالنظر هنا عام شامل ، يشمل كل ما خلق الله ، من الذرة إلى  
المجرة .

ومن داخل النفس إلى آفاق الكون الفسيح ، الذي لا يعلم سعته إلا خالقه :  
﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١) .  
وأحيانا يأمر القرآن بالسير في الأرض للنظر في آيات الله في الكون ، وفي  
الحياة ، وفي التاريخ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾  
(العنكبوت: ٢٠) .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل: ٦٩) .  
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾  
(الأنعام: ١١) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ  
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦) .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ  
مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا  
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٩) .

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن عدة مرات : الحث على السير في الأرض والنظر في سيرة الأولين ومسيرتهم ، وكيف نفدت فيهم سنن الله التي لا تتخلف ، رغم ما كان لديهم من كثرة العدد ، وقوة العدد .

المهم أن يمشروا على آثار القوم وما خلفوه وراءهم بعقول تفكر ، لا بمجرد أعين تبصر ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ بَأْذَانٍ وَلَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦) .

وبهذا شمل هذا النظر العقلي كل ما يقبل النظر : الإنسان نفسه وما حوله من نبات : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (ق: ١٠) . وحيوان ، وخصوصا : ﴿ الْإِبِلَ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧) . وجماد : ﴿ الْأَرْضَ كَيْفَ سُوِّجَتْ ﴾ (الغاشية: ٢٠) . و ﴿ السَّمَاءَ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (الغاشية: ١٨) . وكل ما في العالم علويه وسفليه بهذا الشمول الذي نبهت عليه الآية : ﴿ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) .

ولم يكن النظر مقصورا على الأشياء ، بل تعداها إلى الأحداث والسنن التي تدل عليها ، مثل : سنن الله في عقوبات المكذبين ، وفي تغيير ما بالناس من نعم إذا غيروا ما بأنفسهم من خير ، وسنته في سقوط الأمم رغم عمارتها للأرض وكثرة أعدادها .

ومثل النظر العقلي : الرؤية العقلية ، فقد حث القرآن في آيات كثيرة على هذه الرؤية التي يقصد بها رؤية العقل لا رؤية العين ، وهي رؤية تشمل كل المخلوقات في الأرض أو في السماء مما يبين عظمة خالقها ، وروعة تدبيره ، وبالغ حكمته ، وسابغ نعمه على عباده ، كما تشمل الوقائع والأحداث ، التي تبرز قدرة الله تعالى وهيمنته على الكون وحده ، كما تبرز عدالته وأنه يملئ ويمهل ، ولكنه لا يغفل ولا يهمل .

تقرأ مثل هذه الآيات : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٧٩) .  
 ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِيضٌ مَّا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك: ١٩) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّاعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٧١-٧٣) .

وينتقل من الطير والأنعام ، إلى الأرض ومياها ونباتاتها وعلاقة السماء بها ، والظواهر المتعلقة بها من الليل والنهار ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٧) .  
 ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة: ٢٧) .  
 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحج: ٦٣) .

والخطاب في مثل هذه الصيغة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للنبي ، ولكل مكلف في الأمة :  
 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥) .  
 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرُّهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٢١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٢٩) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النمل: ٨٦) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۗ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ۚ كَذَٰلِكَ ۖ إِنَّمَا تُحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨) .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ نُشَاطًا تُخْشِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (سبا: ٩) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلُّهُ ۖ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (النحل: ٤٨) .

وتشمل هذه الرؤية تاريخ القرون الماضية ، وصنع الله في أهلها ، من الطغاة والمتجبرين ، الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وطفغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِم ۖ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۖ آخَرِينَ ﴾ (الأنعام: ٦) .

لم يُغنِ عن هؤلاء ما أنشؤوا من عمارة شاهقة ، وما أبدعوا من آثار مادية ، فقد شادوا البنيان ، وخربوا الإنسان ، وأصلحوا الأرض ، وأفسدوا البشر ، وعنوا بالطين ونسوا الدين ، وعاشوا للدنيا وأغفلوا الآخرة ، فلم تغنِ عنهم دنياهم من الله شيئا :  
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ٦-١٤) .

بهذا حكم القرآن على الحضارات المادية المحضنة أنها غير قابلة للبقاء والاستمرار ، وأن عاقبتها إلى دمار وتبار .

## ٦- لا تقبل دعوى بغير برهان :

ومن معالم العقلية العلمية في القرآن : أنها لا تقبل أي دعوى تُدعى بغير برهان علمي ، يشهد لها ، ويدل على صحتها وصدقها ، وما لم يوجد دليل يثبت الدعوى أو القضية المطروحة ، فهي في نظر العقل المسلم مرفوضة ساقطة .

وهذه الرؤية التي دعا إليها القرآن شملت العالم العلوي كما شملت العالم السفلي :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) .

﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(العنكبوت: ١٩) .

وهذه الرؤية ينبغي أن تشمل النظر فيما خصهم الله به من نعم لا تتوافر لغيرهم ، وهذا خطاب لأهل مكة خاصة : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧) .

ومما تشمل هذه الرؤية آثار فعل الله في الناس والمجتمعات ، من بسط وقبض ، ورفع وخفض ، وإعزاز وإذلال ، يقول تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم: ٣٧) .

﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٤١) .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(الأنبياء: ٤٤) .

ومعنى نقص أطراف الأرض : أن الله يديل من دولة لأخرى ، ويأخذ من الدولة الكبيرة لحساب دولة صغيرة ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

لقد رفض القرآن ما شاع لدى كثير من أرباب الديانات السابقة من قبول الدعاوى العريضة ، والمعتقدات الموروثة ، دون برهان يدل على صحتها ، ولم يرضَ بمسلك الذين قالوا : « اعتقد وأنت أعمى » ! أو « أغمض عينيك ثم اتبعني » ! إن كل مؤمن بعقيدة مطالب بإقامة البرهان على صدقها ، أو التسليم لمن يدعوه إلى عقيدة غيرها ، يؤيدها الدليل والحجة .

وبهذا قرر القرآن هذه القاعدة الجليلة الكبيرة : ( أن لا دعوى بغير برهان ) ! نقرأ في ذلك حديث القرآن عن دعاوى أهل الكتاب ، وتعقيبه عليها : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١) .

ونقرأ كذلك حديثه مع المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى ، وحواره معهم في قضية الوجدانية : ﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا خَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (النمل: ٦٤) . وفي سورة أخرى يقول : ﴿ أَمْ آتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤) .

وفي قضية التحريم والتحليل ، التي تجاوزوا فيها حدودهم ، فحرموا وحلّلوا بالهوى ، أو بالوهم والظن ، أو بمجرد التقليد الأعمى ، يناقشهم القرآن : ﴿ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّالِّينَ أَتْنِي وَمِنَ الْمُعْزِزِينَ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْآتْنِيَيْنِ أَمْ آتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْآتْنِيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٣) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .



فأبطل بذلك دعوى الجبرية ، الذين يزعمون أن ما هم فيه من ضلال الشرك وتحريم الحلال ، إنما هو بمشيئة الله تعالى ، يقصدون : المشيئة الملجئة لهم ، التي لا يملكون معها اختيارا ولا إرادة ، وكذبوا ، ما لهم على هذا من دليل فإن كان لديهم علم فليخرجوه .

وفي قضية ادعاء النبوة لله ، وأنه سبحانه اتخذ ولدا من الملائكة - الذين زعموا أنهم بنات الله ! - أو من البشر ، مثل المسيح الذي قال النصارى فيه : ابن الله ، ومثل عزيز الذي قال اليهود فيه : ابن الله ، نقرأ : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٦٨).

يعني : ما عندكم من حجة تؤيدكم فيما قلتم ، إن هو إلا قولٌ على الله بلا علم .

## ٧- رعاية سنن الله في الكون والمجتمع :

ومن معالم «العقلية العلمية» التي ينشئها القرآن : احترام السنن والقوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ، ونظام المجتمع ، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول ، فهي تحكم على الناس جميعا ، أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ، حاضريهم وباديهم ، قويهم وضعيفهم ؛ مؤمنهم وكافرهم ، لا تحابي أحدا ، ولا تتحامي أحدا ، الكل في ميزانها سواء .

كما أن لها صفة الثبات والدوام ، فهي لا تتغير ولا تتبدل ، وهي تجري على الآخرين كما جرت على الأولين ، وتعمل في عصر سفن الفضاء ، عملها في عصر الجمل سفينة الصحراء .

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) .

وقد ذكر القرآن كلمة «سنن» مجموعة منكرة ، كما في هذه الآية ، كما وردت مفردة ومعرفة بالإضافة كما في الآيات الأخرى . اقرأ في ذلك هذه الآيات من القرآن المكي : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا

لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ (الإسراء: ٧٦، ٧٧).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٧٦﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ (فاطر: ٤٢، ٤٣).

واقراً في القرآن المدني : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨) .

كان هذا تعقيباً على قصة زينب بنت جحش وطلاقها من زيد بن حارثة متبنّى الرسول ﷺ ، وتحرجه من ذلك ، حتى لا يقال : تزوج محمد امرأة ابنه !

وفي نفس السورة : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦٢).

وقال تعالى في سورة أخرى : ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٣﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٢، ٢٣).

والملاحظ : أن هذه الآيات كلها - مكية ومدنية - أكدت ثبات السنن واطرادها ودوامها ، كما أنها جميعاً تتحدث عن السنن الاجتماعية .

أعني : سنن الله في الاجتماع البشري : في النصر والهزيمة ، والنجاة والهلاك ، والبقاء والزوال ، والنهوض والسقوط .

ومن أجل ذلك أنكر القرآن «السحر» واعتبره من عمل الشياطين ، ومن أساليب الكفرة ، واعتبره كفراً ، أو قريباً من الكفر ، وعدّ تعلمه مما يضر ولا ينفع

- قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢) .

والرسول ﷺ أكد وجوب رعاية سنن الله تعالى ، بقوله وعمله وتقريره ، كما هو واضح في سنته وسيرته عليه الصلاة والسلام .

حينما كسفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم ، قال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، وقد كان شائعا في اعتقادهم أن الشمس لا تكسف ، والقمر لا يخسف ، إلا لموت عظيم في الناس ، ولو كان عليه الصلاة والسلام ممن يسكت على باطل ، لسكت على هذا القول ، الذي يضيف على أسرته هالة من العظمة والقدسية الزائفة ، ولكنه أنكر ذلك ورفضه جهرة ، وخطب في الناس قائلا : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا ، وصلوا وتصدقوا »<sup>(١)</sup> .

وقد أنكر ﷺ كل ما لا يقوم على السنن الطبيعية والاجتماعية في أمور الحياة والرزق والطب والتداوي والعلاقات المختلفة .

ومن هنا أكد تحريم السحر ، وجعله من الكبائر أو « الموبقات » ، أي المهلكات التي يجب تحذير الأمة منها ، فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس . . . » الحديث<sup>(٢)</sup> .

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) ، كلاهما في الكسوف عن عائشة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (٨٩) عن أبي هريرة .

وأنكر كذلك «التنجيم» الذي يقوم على التنبؤ بالغيبات والمستقبلات ، وربط ذلك بالنجوم ، وحركاتها فيما زعموا ، وهو الذي قيل فيه : كذب المنجمون ولو صدقوا ، وهو غير علم الفلك الذي يقوم على أساس من المشاهدة والحسابات الرياضية .

يقول الرسول الكريم : « من اقتبس علما من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد »<sup>(١)</sup>.

وشدد النكير على اتخاذ التماائم والرُقَى الجاهلية ، وأمر بمراعاة الأسباب الطبيعية في التداوي والعلاج .

روى عنه ابن مسعود قوله : « إن الرقى والتماائم والتولة شرك »<sup>(٢)</sup>.

والتولة (بكسر التاء وفتح الواو) : شيء يصنعه النساء (من ضروب السحر) للتحبب إلى أزواجهن .

وقال : « من علق تميمة فقد أشرك »<sup>(٣)</sup>.

إن المسلمين في العصور الأولى رعوا هذه السنن ، واحترموا شبكة الأسباب والمسببات ، فأقاموا حضارة مثلي ، نشأت في رحابها علوم كونية ورياضية واجتماعية ، بجوار العلوم الدينية ، امتدت جذوعها ، وبسقت فروعها ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها .

على خلاف المتأخرين من المسلمين ، الذين ضيعوا شرائع الدين الحق ، وقواعد السنن في الخلق ، ولم يفلحوا في إحقاق الدين ، ولا إقامة الدنيا ، وهم الآن

---

(١) رواه أحمد (٢٨٤٠) ، وقال مخرجه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الطب (٣٩٠٥) ،

وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٣) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (٣٦١٥) وقال مخرجه : صحيح لغيره ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه

(٣٥٣٠) ، كلاهما في الطب ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٤٥) .

(٣) رواه أحمد (١٧٤٢٢) ، وقال مخرجه : إسناده قوي ، وصححه الألباني في الصحيحة

(٤٩٢) ، عن عقبة بن عامر .

يريدون أن يعيدوا من جديد ما بدأه أسلافهم من قبل ، ليرعوا العقيدة ، ويحفظوا الشريعة ، ويحققوا المقاصد ، ويحسنوا الفقه ، ويعرفوا فقه السنن ، وفقه الأولويات ، وفقه المآلات ، وفقه الموازنات ، وفقه الاختلاف ، وفقه الواقع ، حتى ينهضوا من عثرتهم ، ويرجعوا إلى ما كان عليه آباؤهم الأولون .

وهو ما نتوقعه لهم أن يديل الله لهم ، وأن ينزل عليهم نصره وتمكينه ، ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ (الصافات: ١٧٢، ١٧٣).

\* \* \*



## الموازنة بين العقل والنقل

من أبرز معالم (الوسطية الإسلامية) التي تميّزت بها الأمة المسلمة ، التي قال الله تعالى في وصفها : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وإن شئت قلت : من أبرز معالم المنهج الوسط للأمة الوسط : الموازنة بين العقل والنقل . أي بين أفكار العقل الإنساني ، ونصوص الوحي الربّاني .

فمن الناس مَنْ يعترف بالعقل وحده مصدرا للمعرفة في كل شيء ، في عالم الشهادة أو في عالم الغيب ، ولا يعترف بمصدر سواه .

ومنهم مَنْ لا يعترف إلا بالنقل أو الوحي مصدرا للمعرفة بالحقائق كلّها ، ولا يعترف بمصدر آخر .

ومنهم المتوسّطون ، الذين يجعلون لكلّ منهما سلطانا ومجالا يصل فيه ، ولا يجور على سلطان الآخر .

ولكي نتحدّث عن هذه الأصناف ، لا بدّ لنا من وقفة ، لنحدّد فيها المفاهيم والمصطلحات ، حتى لا تُترك هلامية رجراجة ، يفسّرُها مَنْ يشاء كما يشاء . فما العقل؟ وما النقل؟

### المقصود بالعقل :

عرّف (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة (العقل) بأنه : (ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها . وما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات ، وما به يتميّز الحسن من القبح ، والخير من الشرّ ، والحقّ من الباطل) <sup>(١)</sup> . اهـ .

(١) المعجم الوسيط ٦٤٠/٢ ، مجمع اللغة العربية .

واشتقاق العقل من مادة : (ع ق ل) ، والأصل فيها : المنع . وإنما سُمِّيَ بذلك ؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق . فإذا كان الحيوان يفعل ما يشتهي ، فإن الإنسان يفعل ما ينبغي .

وفي (القاموس المحيط) عرّف العقل بأنه : (العلم ، أو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها ، وكمالها ونقصانها . أو العلم بخير الخيرين ، وشرّ الشرين ، أو مطلق الأمور).

وظاهرٌ أن التعريف هنا لـ(العقل) باعتباره (فعلا) ، وليس باعتباره (جوهرًا) ، ولذا ذكر في مقابلها تعريفاً آخر ، وهو : (أنه قوّة بها يكون التمييز بين القبح والحسن) . وبعد أن ذكر صاحب القاموس عدّة تعريفات ، قال : (والحق أنه نور روحاني ، به تُدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وابتدأؤه عند اجتئان الولد (أي من المرحلة الجنينية) ثم لا يزال ينمو إلى أن يكتمل عند البلوغ) <sup>(١)</sup> انتهى . وقيل : إلى سنّ الأربعين .

وفي (مفردات القرآن) للراغب الأصفهاني : (العقل : يقال للقوّة المتهيئة لقبول العلم . ويقال للذي يستنبطه الإنسان بتلك القوّة : عقل) <sup>(٢)</sup> .

وذكر شارح (القاموس) : أن الناس اختلفوا في العقل : هل له حقيقة تُدرك أو لا؟ وإذا كانت له حقيقة تُدرك : هل هو جوهر أو عرض؟ ثم اختلفوا في موضعه : هل هو في الرأس أو في القلب؟ وهل العقول متساوية أو متفاوتة <sup>(٣)</sup>؟

والذي نرجّحه من تلك الأقوال : أن العقل حقيقة يمكن أن تُدرك ، وأنه جوهر لا عَرَض ، وأن موضعه هو الرأس أو الدماغ ، وأن العقول تتفاوت في قدراتها ، فمن الناس المتخلّفون عقلياً ، ومنهم شديدو الغباء ، ومنهم الأغبياء ، ومنهم قليل الذكاء ، ومنهم المتوسطون في الذكاء ، والحدادو الذكاء والعباقرة .

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ص ١٠٣٣ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٧٧ .

(٣) تاج العروس للزبيدي ٢٠/٣٠ .



ونستطيع أن نقول هنا : أن العقل هو : تلك القوة أو ذلك الجوهر المجرد عن المادة ، الذي ميّز الله به الإنسان عن الحيوان ، فبه ينظر ويتأمل في نفسه ، وفي آفاق الكون من حوله ، وبه يفهم الخطاب ، وبه يحصل العلم ، وبه ينمي ويضيف إليه ، وبه يبتكر الجديد ، وينتقد القديم ، وبه يفهم الماضي ويعتبر به ، ويعايش الحاضر ويطوره ، ويستشرف المستقبل ويخطط له ، وبه يميّز الخير من الشر ، أو الحسن من القبيح في الأفعال ، كما يميّز الصواب من الخطأ في الآراء ، والحق من الباطل في المعتقدات . بل يميّز خير الخيرين ، وشرّ الشرين ، وبه يقارن ويوازن بين الأشياء والأشخاص والأفكار . به يدبر أمر معاشه ، وبه يتدبّر أمر معاده ، أو قل : به يتفكّر في مبدأ الكون ومصيره ومصيرنا معه ، ورسالتنا فيه ، وبعبارة أخرى : يبحث عن أجوبة شافية للأسئلة الخالدة التي أقلقّت الإنسان من قديم الزمان : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟

### المقصود بالنقل :

أما كلمة (النقل) ، فالمقصود منها حين تُقرن بالعقل : معروف ومفهوم ، عند أهل العلم ، وهو العلم الذي مصدره الوحي الإلهي ، أي مصدره النبوة ، ومن شأن هذا العلم : أن ينقله الخلف عن السلف ، وتوارثه الأجيال بعضها عن بعض . فهذا العلم لم نحصله عن طريق الملاحظة أو التجربة أو التفكير المنطقي أو الرياضي ، بل نقلناه عمّن قبلنا ، وهم نقلوه عمّن قبلهم بالسند المتّصل ، إلى النبي الموحى إليه من الله تعالى ، ومن شأن من نقلوه أن يؤمنوا بمصدره الربّاني ، وأن يتلقّوه مدعنين لأصوله ومُسلّماته ، وإن كان لهم حق استعمال العقل في فهمه وشرحه وتفسيره والاستنباط منه . ولا غرو أن عملت العقول الكبيرة من الأمة في خدمته وتجليته ، ووجدت بسبب ذلك علوم شتى ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والسلوك أو التصوف ، وعلم العقائد أو (علم الكلام) ، وعلوم أخرى تؤصّل لها وترسيها على أمتن القواعد ، مثل : أصول الفقه ، وأصول التفسير ، وأصول الحديث .

وقد يعبر عن (النقل) أحيانا بـ(السمع) أو (الشرع) أو (الدين) أو (النص) وكلها تدلُّ على المطلوب ، وهو ما يقابل مصدر (العقل) الذي يُعبر عنه أحيانا بـ(الحكمة) أو (الفلسفة).

وكثيرا ما وُضع هذان الأمران المتقابلان في صيغة (الشرعية والحكمة) كما عبّر ابن رشد في كتابه (فصل المقال في ما بين الشرعية والحكمة من الاتصال) ، أو في صيغة (الدين والفلسفة) ، أو في صيغة (العقيدة والفكر) ، أو في صيغة (العقل والسمع). ولا مشاحة في الاصطلاح ، مادام المراد مفهوما ، والمصطلحات واضحة ، واللبس ممتنعا .

### مواقف الناس من العقل والنقل :

وإذا عرفنا المقصود بكلٍّ من العقل والنقل ، فإن الناس في هذا المقام أصناف ثلاثة :

- ١- العقليون : المبالغون في اعتبار العقلانية .
- ٢- والنقليون : المبالغون في اعتبار (النقلانية) <sup>(١)</sup>.
- ٣- والمتوسطون : الجامعون بين العقل والنقل بالقسطاس المستقيم .

### أولا : المبالغون في العقلانية

أما القسم الأول ، فهم الذين يغفلون في تقديس العقل ، وإعطائه أكثر من حقه ، واعتباره وحده مصدر معرفة الحقيقة ، في كلِّ المجالات ، المادية والروحية ، وهو عندهم الدليل الذي لا يخطئ ، والهادي الذي لا يضلُّ ، والميزان الذي لا يميل .

### وهؤلاء ينقسمون إلى أنواع شتى :

فمنهم الذين يزعمون أنهم يستغنون بالعقل عن الوحي ، وأنهم لا حاجة لهم إلى النبوة . فإن العقل وحده يستطيع بنوره أن يهدي الإنسان إلى أسباب السعادة .

---

(١) مصدر صناعي منسوب إلى (النقل) بمعنى : المنقول من النصوص الدينية ، زدنا عليه : الألف والنون ، ليكون مقابلا لـ (العقلانية) . فالعقلانية : تبالغ في اعتبار العقل ، والنقلانية : تبالغ في اعتبار النقل .

وهؤلاء هم الذين ردَّ عليهم الإمام محمد عبده في (رسالة التوحيد) ، حين بيَّن بمنطقه العقلي القوي : حاجة البشر إلى الرسالة . وأن هداية الحواس تحتاج إلى العقل ليصحَّ خطأ الحواس ، وكذلك هداية العقل تحتاج إلى هداية أكبر منه ، لتصحَّح خطأ العقل ، وهي هداية الوحي<sup>(١)</sup> .

ومن هؤلاء : مَنْ يؤمن بالوحي ، ولكنه يرى أن العقل ندُّ له ، بل ربَّما اعتقد أنه مُقدَّم عليه . وهؤلاء أكثر من نوع أيضا .

فهناك الفلاسفة الذين اتَّخذوا العقل أصلا والنقل تبعا . وبعضهم لم يتَّخذوا العقل الحرَّ المجرَّد ، بل العقل المقلَّد لفلسفة الإغريق ، المُسلَّم لمقولاتها ، المُقدَّس لاتجاهاتها وأفكارها . فهي الأصل وما عداها تبع لها ، ولو كان هو نص القرآن الكريم ، أو حديث الرسول العظيم . وهؤلاء هم رجال (المدرسة الفلسفية المشائية الإسلامية) كما تُسمَّى ، وهم الذين اتَّخذوا الفيلسوف الأكبر (أرسطو طاليس) مصدرا لأفكارهم ومقولاتهم ، وسمَّوه (المعلم الأول) ، وكلُّ ما خالف مناهجه يجب أن يؤوَّل . وأبرز مَنْ يمثلهم : الكندي والفارابي وابن سينا ومَنْ وافقهم .

وهم الذين لخصَّ الغزالي تعاليمهم وأفكارهم في كتابه (مقاصد الفلاسفة) ، وردَّ عليهم في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، وخطَّأهم في سبع عشرة مسألة ، وكفَّرهم في ثلاث .

وقد انتصر العلامة ابن رشد الحفيد (الفيلسوف الطبيب الفقيه<sup>(٢)</sup> . ت ٥٩٥هـ) للفلاسفة ، وردَّ على الغزالي بكتابه (تهافت التهافت) .

---

(١) انظر : رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ، ضمن الأعمال الكاملة له ٤٢١/١-٤٢٣ ، تحقيق الدكتور محمد عمارة ، نشر دار الشروق . .

(٢) تجلت هذه الموسوعية في شرحه لفلسفة أرسطو ، وعن طريقه تلقتها أوربا ، ورسائله مثل : (فصل المقال) ، و(الكشف عن مناهج الأدلة) ، وفي كتابه (الكليات) في الطب ، وفي كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) .

ومهما يكن من خلاف حول الفلاسفة ، وهل كفزوا أو لم يكفروا ؟ فإن الذي لا خلاف عليه بين دارسي الفلسفة ومؤرخي الفكر : أن الفلاسفة الذين سمّوهم الإسلاميين ، لم يكونوا أحرار الفكر تماما في بحوثهم فيما وراء الطبيعة ، وهو ما سمّاه أستاذنا الدكتور محمد البهي : (الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي) ، بل بحثوا وهم مبهورون بفلسفة اليونان ، معجبون كلّ الإعجاب بحكمائهم الكبار : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، مسحورون بعبقريّة آخرهم أرسطو .

لم يسمحوا لأنفسهم بامتحان هذه الفلسفة ومناقشة قضاياها ، وفرز الجوانب الطبيعية والرياضية منها ، (مما دخل الآن في نطاق العلم) ، من جوانب ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقيا) . إنهم أخذوها كلّها قضايا مسلّمة . وإذا تعارض معها شيء آخر - ولو كان هو النصّ الإلهي - فإما أن يؤوّل وإما أن يرفض .

لقد قدّم الفلاسفة الإسلاميون - كما يُسمّونهم - عقولهم على شرع الله . وأولّوا كثيرا من عقائد الإسلام وغيبياته ، التي ثبتت بقواطع الكتاب والسنة ، وأجمعت عليها الأمة ، وأمست معلومة من الدين بالضرورة . ومثلها لا يقبل التأويل ؛ لأن تأويل القطعيات تحريف للكلم عن مواضعه .

فالله الذي آمنوا به - واجب الوجود عندهم - ليس هو خالق هذا العالم ، الذي أنشأه من عدم . فالعالم عندهم قديم غير مخلوق!

وليس هو مدبّر كل صغيرة وكبيرة فيه ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٤) ، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩) ؛ لأن واجب الوجود عندهم لا يعلم الجزئيات في هذا العالم الناقص . بل هو عند أرسطو لا يعلم إلا ذاته ، ولا يعلم عن الكون شيئا ولا يدير فيه أمرا !! حتى قال ول ديورانت : يا لإله أرسطو من إله مسكين ! إنه كملك الإنجليز ، يملك ولا يحكم !!

وليس هناك بعث تحيا فيه العظام وهي رميم ، ويعيدها الذي خلقها أول مرة .  
ويُحشر الناس إلى ربّهم حفاة عراة غرلا ، كما بدأهم يعودون . وليس هناك نعيم  
حسي ولا عذاب ماديّ ، ولا جنة حقيقية ولا نار حقيقية . إنما هذه رموز لمعان  
رُوحية مُثّلت للناس في هذه الصورة ترغيبا وترهيبا ، ابتغاء صلاح عوام الناس !

وليس هناك معراج إلى السموات العلا ، لأن الأفلاك أجسام لا تقبل الخرق  
ولا الالتئام ، إنما هو معراج الرُوح .

وليس هناك ملك ينزل بوحي الله على قلب الرسول ، إنما هو تخيل أو تخيل .  
إلى آخر ما قالوا وتأولوا ، وتعسفوا فيما تأولوا<sup>(١)</sup> ، مما كفرهم به من كفرهم :  
الغزالي ومن بعده . وآفتهم : أنهم قدّموا دائما العقل على الشرع . وليتهم قدّموا  
العقل الحر المجرد ، إنما قدّموا العقل اليوناني ، على العقل الإسلامي ، قدّموا  
تصور الوثنيين على عقيدة الموحدين . قدّموا فكر أرسطو على دين محمد . أي  
على وحي الله ، جلّ ثناؤه ، وتباركت أسماؤه .

وهذه الأشياء التي حسبوها قطعيّات وبرهانيّات ، تؤوّل من أجلها ثوابت الدين ،  
ليست إلا تصورات توهموها ، وبعضها خرافات اعتقدوها ، وما هي إلا بناء على  
شفير هار!

ليتهم اكتفوا مما نقلوه عن اليونان بجوانب الطبيعيات والرياضيات والتجريبيّات ،  
وهذبوها وطوّروها ونقلوها من النظر إلى الملاحظة والتجريب . كما صنعوا  
بالفعل ، وتركوا الجانب الإلهي من فلسفتهم ، فلم يولوه اهتماما<sup>(٢)</sup> ، فعندهم من  
الماء ما يغني عن السراب ، ولديهم من الحق الخالص من وحي السماء ما يغنيهم  
عن الحق المختلط بالباطل ، والتوحيد المشوب بالوثنية ، والتنزيه الذي مضمونه

---

(١) للتأويل شروط فصلها علماء الإسلام : انظر : كتابنا (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) فصل  
(سوء التأويل) ص ٢٨٤-٣١٥ طبعة دار الشروق .

(٢) كما فعلوا مع الأدب اليوناني ، فقد أغناهم البيان العربي والأدب العربي ، بشعره ونثره عن  
الاهتمام به .

التعطيل ، والتأليه الذي يكاد ينتهي إلى النفي والإنكار . وذلك : أن ما اعتبره اليونان عقلا ، لم يكن عقلا خالصا ، بل كان عقلا لم يصف من الشُّعر والخيال .

لقد كان فقهاء الإسلام على حق ، حين اتهموهم بالكفر ، إذ لم يجدوا لديهم توقيرا لما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق . ورغم فتح الإمام الغزالي لباب التأويل على مصراعيه (ولا سيما في كتابه : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، لم يستطع أن يدخلهم منه ، لمناقضة ما قالوه مناقضة صريحة لقواطع الإسلام ، وثوابت العقيدة .

وبهذا خسروا الفلسفة ، وخسروا الدين معا .

أما الفلسفة ، فإن جوهرها عندهم - كما بين الدارسون المتخصصون<sup>(١)</sup> - هو التوفيق بين الدين والفلسفة ، أو بين الشريعة والحكمة ، وهذا ما أخفقوا فيه . فكل ما صنعوه : أنهم نصروا الفلسفة على الدين ، حين أخضعوا منطق الدين لمنطق الفلسفة ، وأعلوا كلمة (الحكمة) على كلمة الشريعة . وبعبارة أخرى : أعلوا كلمة الإنسان على كلمة الله ، وكلمة الله يجب أن تكون أبدا هي العليا .

وبهذا باءت مهمتهم الفلسفية بالخيبة ، ورجعوا منها - كما يقول العرب - بخفي حنين . أو بغير خف أصلا !

وأما خسرانهم للدين ، فيتمثل في إعراض الأمة المسلمة عنهم ، واتفاق جمهور علمائها على تكفيرهم ، برغم تحوطهم في قضية التكفير . وبهذا خسروا الصفتين ولم يظفروا بإحدى الحسنين : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٦).

لقد أتعب (الفلاسفة) المسلمون . أنصار المدرسة الأرسطية المشائية - أنفسهم فيما لا طائل تحته في الجانب الميتافيزيقي ، وقد قيم مجهودهم أستاذنا الدكتور

---

(١) انظر في هذا: الكتاب القيم (ابن سينا بين الدين والفلسفة) للدكتور حمودة غرابة رحمه الله .

محمد البهي في كتابه : (الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي) الذي بين فيه حصيلة هذا المجهود ، فقال :

(ما أفاده فلاسفة المسلمين المشائيون في المشرق من الاستدلال على وجود (الله) من (الوجود) نفسه ، إلى جانب ما في الدين من دليل عليه مشتق من العالم الواقعي - نتيجة قبولهم فكرة (واجب الوجود) الإغريقي : لا يتكافأ مع مجهودهم العقلي في التوفيق بين الإسلام والفلسفة ، فيما أثاره واجب الوجود في هذه الفلسفة من إشكالات ، وعلى الأخص في وصف الله بصفاته التي وردت في القرآن الكريم ، وفي علمه لما يجري في ملكوته .

ثم بعد هذا كله لا يصلح تفلسفهم أن يكون أساس توجيه ديني ... لأنه لا يلتئم مع طبيعة الدين كدين ، كما لا يصلح أن يكون أساسا لتوجيه عقلي ، لما فيه من كثرة التعاريج والالتواءات ، نتيجة الخلط من عدة مذاهب وآراء .

ولو درى فلاسفة المسلمين المشائيون قيمة الفكر الإغريقي ، وأنه لم يخلص تماما من الشعر والخيال ، لآثروا أن يكون لهم منطق خاص بهم .

ولو علموا نتائج قبولهم آراء أفلاطون وأرسطو في شرح العقيدة ، على العقيدة من حيث هي عقيدة ، لتركوا للقرآن الكريم وحده - كما هو - الطريق إلى قلوب المصدقين ، وعقول الخاصة من الناس<sup>(١)</sup> . اهـ .

هذا ما قرره أستاذ متخصص في الفلسفة ، عاش عمره دارسا لها ، ومعلما إياها ، ومؤلفا فيها ، ومؤرخا لها ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤) .

ولا أجد كلمة هنا أبلغ من كلمة أديب الفلاسفة ، وفيلسوف الأدباء : أبي حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فقد حكى على لسان شيخ له عرض عليه بعض الرسائل (لإخوان الصفا) فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، ثم ردها عليه

---

(١) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي للدكتور محمد البهي ص ٥٦٥ ، طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة .

وقال : (تعَبُوا وما أَغْنَوْا ، ونَصَبُوا وما أَجْدَوْا ، وحَامُوا وما وَرَدُوا ، وَغَنُّوا وما أَطْرَبُوا ، ونَسَجُوا فَهْلَهُلُوا ، ومَشَطُوا ففْلَفَلُوا ، ظَنُوا ما لا يَكُون ولا يَمَكُن ولا يَسْتَطَاعُ ... أن يَدَسُّوا الفلسفة في الشريعة وأن يَضْمُوا الشريعة في الفلسفة ... وقد توفّر على هذا من قبل هؤلاء قوم كانوا أَحَدًا أنبأيا ، وأَحْضَر أسبابا ، فلم يتم لهم ما أَرَادُوهُ . . . وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة ، وعواقب مخزية ، وأوزار مثقلة)<sup>(١)</sup>.

### عقلانية المعتزلة :

وهناك فئة أقرب منهم ، وأكثر احتراما للنص الإلهي ، وإن كانوا يحسنون الظن بعقولهم أكثر من اللازم ، وهم طائفة من المتكلمين . الذين آمنوا بالقرآن ، وآمنوا بالجملة بالسنة ، ولكنهم عند التعارض يقدمون ما يفيد العقل على ما يفيد الشرع أو الوحي .

وأظهر من يمثل هؤلاء هم : المعتزلة ، ويطلق عليهم : (القَدَرِيَّة) وهم أصحاب المبادئ الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وبعد المعتزلة يأتي الأشاعرة والماتريدية ، وهم - وإن خالفوا المعتزلة وردوا عليهم مقولاتهم المخالفة لأهل السنة - لم يستبعدوا العقل تماما من ناحيتهم ، بل استخدموه في إثبات كثير من القضايا ، وفي الردّ على كثير من الخصوم . ولكنهم عند التعارض يقدمون الشرع على العقل<sup>(٢)</sup>.

وظهور المعتزلة في ساحة الفكر الإسلامي ، كان أسبق من ظهور الفلاسفة ، فقد ظهوروا منذ عصر التابعين ، فقد انشقوا عن حلقة الإمام الشهير الحسن البصري الذي

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٦/٢ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .

(٢) هذا إذا كانا ظنيين ، أما إذا كان أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا ، فالقطعي مقدم على الظني . أما أن يكون كل منهما قطعيًا ، فلا يتصور ؛ لأن القطعيات لا تتعارض .



توفي سنة ١١٠ هـ ، حين خالفه تلميذه واصل بن عطاء في قضية عقدية كبيرة ، وأعلن عن مخالفته شيخه ، فقال الحسن : اعتزلنا واصل !

وكان مع واصل زميله في الاتجاه : عمرو بن عبّيد ، وكلاهما مفكر وداعية ، وكان لهما تلاميذ ، خالفوا الاتجاه العام في الأمة .

وكان الخلاف في أول الأمر محدودا وبسيطا وذا طابع ديني ، ثم مازال يتوسع ويتعمق ، ويدخل في مسائل هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين ، على أيدي رجال معروفين منهم ، مثل : أبي هذيل العلاف (ت ٢٣٥) وإبراهيم النظام (ت ٢٣١) والجاحظ (ت ٢٥٥) وغيرهم من أصحاب النزعة العقلية ، التي لا تعطي الاهتمام الكافي للنصوص الدينية ، وبخاصة نصوص الحديث النبوي ، بل كانت لهم حملاتهم العنيفة على عدد من الأحاديث ، التي يتناقلها من عرفوا بـ (المحدثين) والتي كانوا يسخرون منها ، ويرونها منافية للعقل ، أو للقرآن ، أو للعلم ، أو للواقع .

والتي جعلت رجلا من كبار علماء السنة (وهو الإمام ابن قتيبة ت ٢٧٦) - الذي كان لهم ، مثل الجاحظ للمعتزلة - يقوم بالردّ على المعتزلة ، والدفاع عن الحديث ، وتأويل ما سخر منه أهل الاعتزال ، ذلك في كتابه الشهير : (تأويل مختلف الحديث) .

وكان للمعتزلة موقفهم من تفسير القرآن الكريم ، حيث يؤولون الآيات والجمل في القضايا التي لا تتفق مع أصولهم ومعتقداتهم ، مهما يكن في هذا التأويل من تكلف واعتساف .

ولعل أبلغ تفسير يعبر عنهم هو تفسير العلامة الزمخشري المعروف ، وهو (الكشاف) الذي تلمس فيه النزعة الاعتزالية بوضوح .

فتراه فيما يتعلق برؤية الله تعالى في الآخرة ، أو بما يشير إلى أن كل ما في الكون يقع بمشيئة الله تعالى حتى المعصية ، أو بصفات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة ونحوها ، يميل بها إلى ما يوافق مذهب المعتزلة .

كان أبرز ما يميز المعتزلة عن سائر الاتجاهات - أو الفرق - الإسلامية الأخرى :  
اعتدادهم بالعقل إلى أبعد مدى . حتى إنهم غالبا في مقولاتهم وتفسيراتهم يقدمون  
العقل على الشرع ، فالأدلة الشرعية متهمة عندهم ، ولا يتهمون عقولهم يوما ،  
أو يمتحنونها .

ربما أثارهم بعض الحشوية من الجامدين ، ولكنهم لم يقفوا عند حد في تجاوز  
النصوص البينات ، فقد حكموا فيها فكرهم القاصر ، وعلمهم المحدود بحدود  
البيئة والعصر ، واعتبارهم كثيرا من الأفكار (مسلمات عقلية) ولم تكن كذلك ، لو  
أنصفوا وتحرروا .

ولهذا أنكر من أنكر منهم : الجن رغم ثبوت ذلك بصريح القرآن ومتواتر  
الحديث .

وأنكر مَنْ أنكر : سؤال القبر وما فيه من نعيم وعذاب .

وأنكر من أنكر : الصراط والميزان .

وأنكروا جميعا : رؤية الله تعالى في الآخرة .

وعلة ذلك أنهم سجنوا أنفسهم في إطار العوائد الجارية ، وكأنما المعتاد  
المعروف لازم لزوما عقليا ، مع أن خرق العوائد ممكن ، بدليل وقوع المعجزات  
للأنبياء . وهو ما ناقشهم فيه الإمام الشاطبي مناقشة عميقة في (الاعتصام) حيث  
ذكر : أنه يصح قضاء العقل في عادي بانخراقه ، مع أن كون العادي عاديا مطّردا  
(غير) صحيح أيضا ، فكل عادي يفرض العقل فيه خرق العادة ، فليس للعقل فيه  
إنكار ، إذ قد ثبت في بعض الأنواع التي اختص الباري باختراعها . والعقل لا يفرق  
بين خلق وخلق ، فلا يمكن إلا الحكم بذلك الإمكان على كل مخلوق .

فهو أصل اقتضى للعاقل أمرين :

أحدهما : أن لا يجعل العقل حاكما بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق  
وهو الشرع ، بل الواجب عليه أن يُقدّم ما حقه التقديم - وهو الشرع - ويُؤخّر

ما حقه التأخير - وهو نظر العقل - لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل ، لأنه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة ، فلا معدل عنه ، ولذلك قيل : اجعل الشرع في يمينك ، والعقل في يسارك ، تنبيهها على تقدم الشرع على العقل .

والثاني : أنه إذا وجد في الشرع أخبارا تقتضي ظاهرا خرق العادة الجارية المعتادة ، فلا ينبغي له أن يقدم بين يديه الإنكار بإطلاق ، بل له سعة في أحد أمرين :

١- إما أن يصدق به على حسب ما جاء ، ويكل علمه إلى عالمه . وهو ظاهر قوله تعالى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧) . يعني الواضح المحكم ، والمتشابه المجمل ، إذ لا يلزمه العلم به ، ولو لزم العلم به لجعل له طريق إلى معرفته ، وإلا كان تكليفا بما لا يطاق .

٢- وإما أن يتأوله على ما يمكن حمله عليه ، مع الإقرار بمقتضى الظاهر ، لأن إنكاره إنكار لخرق العادة فيه<sup>(١)</sup> . اهـ .

### ثانيا : المبالغون في اعتبار النقلانية :

وإذا كان هناك مبالغون في اعتبار (العقلانية) فمن الطبيعي - وفق سنة التدافع - أن يكون في مقابلهم مبالغون في اعتبار (النقلانية) بمعنى عدم الاهتمام بالعقل وإعطائه حقه في الفهم والاستنباط والنقد ، وأخذ النقول الجزئية دون التدقيق في ثبوتها ، وعدم ربطها بالمقاصد الكلية .

وهؤلاء هم الذين أسميناهم في بعض كتبنا : (الظاهرية الجدد) وإن لم يكن لهم علم الظاهرية وتبحرهم ، كما تجلّى ذلك في ممثلهم الأكبر : أبي محمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) صاحب (الإحكام) و(المحلى) و(الفصل في الملل والنحل) وغيرها . وهو أحد العقول العبقريّة في تراث الإسلام . ولكنهم أخذوا من (الظاهرية)

(١) انظر : الاعتصام للشاطبي ٥٢٣/١ .

جمودها على النص ، و(حرفيتها) في التفسير ، ورفضها للقياس كله ولتعليل الأحكام ، واعتبار أن لها مقاصد شرعية ، وحكماً واقعية ، تنشد من ورائها .

قد يسمى هؤلاء أنفسهم ، أو يسميهم الناس : (أهل الحديث) . أي الذين يعتمدون في استدلالهم الشرعي على الحديث النبوي ، ولا يكادون يعتمدون على القرآن الكريم . وهم أيضا لا يدققون كثيرا في صحة الحديث وثبوته ، ولا سيما ما يتصل بالمتن أو المضمون ، ولا يعنون كثيرا بموافقة الحديث للعقل .

وقد عرفنا أئمة الحديث الكبار ، لا يقبلون الحديث إلا بشروط ، وخصوصا ما كان منه مصدرا لاستنباط الأحكام من الحلال والحرام ، كما لهم فقههم المعتبر في الاستنباط من الأحاديث المروية ، كما رأينا ذلك في (فقه مالك) رضي الله عنه ، وهو محسوب على مدرسة الحديث والأثر ، وقد عده العلامة الشيخ أبو زهرة في كتابه عنه ، من (فقهاء الرأي) . وأنا أؤيده في ذلك . ومما في مذهبه : القول بالمصلحة المرسلة ، واعتبار عمل أهل المدينة ، والتشدد في ثبوت الحديث . ولهذا قال من قال : لولا مالك لضاقت المسالك .

ومثل ذلك : الإمام أحمد ، الذي يروى عنه في المسألة الواحدة ، عشر روايات أو تزيد . وما ذلك إلا لأنه يجيب عن كل حالة بما يناسبها ، زمانا ومكانا ، وحالا وعرفا .

ومثل ذلك : الإمام البخاري ، الذي كان له مذهبه الفقهي الخاص ، الذي يلزمه الدارسون في تراجمه الشهيرة ، ولذا نراه يتميز أحيانا عن الأئمة المتبوعين . كما في قضية الطلاق ، حيث يميل إلى التضييق في الطلاق ، فلا يقول بوقوع طلاق السكران والغضبان والناسي والهازل والمخطئ ومن لا وطر له .

فالذين يسمون (أهل الحديث) في عصرنا ليسوا على سنة مالك ولا أحمد ولا البخاري ولا أمثالهم ، ممن يسمونهم (فقهاء الحديث) فهم يجمعون بين الحديث والفقه ، ولا يضربون أحدهما بالآخر .

أما هؤلاء ، فقد ظلموا الحديث حين نسبوا أنفسهم ، أو نسبهم الناس إليه ، وهم يزعمون أبدا : أن الحق معهم وحدهم ، وأن الباطل مع غيرهم ، ولا يقولون ما قال المحققون من أهل العلم : رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب . بل يقولون دائما : رأينا هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب .

فهم دائما شديدا الهجوم على مخالفيهم ، ولا تتسع صدورهم لتقبل النقد من أحد غيرهم .

يقولون : نحن معنا الحديث ، وهو وحي من الله . وغيرنا معه الرأي ، وهو من البشر .

وهذه دعوى غير مسلمة على إطلاقها ، فإن من الحديث ما هو وحي ، ومنه ما لا يدخل في باب التشريع أصلا ، كما ذكره حكيم الإسلام في الهند ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) وغيره<sup>(١)</sup>.

على أن الحديث إذا كان وحيا ، ففهمهم للحديث ليس وحيا ، إنما هو من إفراز عقل البشر . والرأي - وإن كان من البشر - فليس مرفوضا دائما ، بل هو المطلوب إذا استعمل في أهله وفي موضعه .

ومما أخذناه عليهم : أنهم يبنون موقف الإسلام في بعض القضايا الكبيرة على أحاديث ليست بذاك ، مثل موقف الإسلام من المرأة ، أو من غير المسلمين ، أو من الزهد ، أو من التوكل ، وغيرها . وهذه في نظري أهم من أحاديث (الحلال والحرام) ، التي شدد فيها العلماء ، وهي تتعلق بأمور جزئية ، وتلك تتعلق بقضايا ومبادئ كلية .

---

(١) انظر : كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) فصل (الجانب التشريعي في السنة النبوية) ص ٣٣-٣٦ ، نشر دار الشروق ، القاهرة .

## لوازم عقلية للمسرفين في النقلية :

هؤلاء لهم (لوازم) لا تفارقهم في فقه الإسلام وعرضهم لأحكامه وتعاليمه ،  
ومنها :

- ١- اهتمامهم بالشكل قبل الجوهر ، وبالظاهر قبل الباطن .
- ٢- تركيزهم على النصوص الجزئية دون وصلها بالمقاصد الكلية .
- ٣- عنايتهم بالمختلف فيه قبل المتفق عليه .
- ٤- إسقاطهم لفقه مراتب الأعمال ، أو فقه الأولويات . ولذا كثيرا ما تراهم يهتمون بالنوافل أكثر من الفرائض ، وبالمكروهات أكثر من المحرمات ، وبالفروع أكثر من الأصول .
- ٥- ومن ذلك : أنهم يعنون بالسنة أكثر من عنايتهم بالقرآن ، ولا يهتمون بأن يكون فهم السنة في ضوء القرآن ، بحيث لا تعارضه .
- ٦- كما لا يجمعون بين النصوص بعضها ببعض ، فإن أحكام الشريعة لا تتعارض ، وكلمات الله يفسر بعضها بعضاً : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) .
- ٧- ومن لوازم هؤلاء أنهم يسرفون في التحريم ، فهم يحرمون بالأحاديث الضعيفة ، وإن كانوا يقوونها بكثرة الطرق ، وهذا ليس حكما على إطلاقه ، أو تكون الأحاديث غير صريحة في الدلالة على التحريم ، فهم يستدلون بصريح غير صحيح ، أو بصحيح غير صريح .
- ولذا تراهم يكادون يُحرّمون على الناس كل شيء ، فالتصوير كله حرام ، حتى التصوير الفوتوغرافي ، الذي يسميه الخليجيون (عكسا) وهو فعلا بمثابة انعكاس الصورة على المرآة .
- وعلى هذا الأساس حرموا استخدام التلفزيون ؛ لأنه يقوم على التصوير ، والتصوير كله حرام ، والسينما كلها حرام ، لأنها تقوم على التصوير .

والغناء كله حرام ، ولا سيما إذا كان مع الآلات ، وخصوصا إذا كان المغني امرأة .

وكشف المرأة وجهها حرام ، لأن وجهها عورة ، وتغطيته واجبة . ولا يكفي المسلمة أن تلبس الخمار الذي تغطي به رأسها وعنقها ونحرها . كما تفعل (المحجبات) في عصرنا . فهؤلاء المحجبات آثمت في نظر هؤلاء .  
ومن ذلك قولهم بتحريم حلق اللحية .

٨- وكما يسرفون في تحريم المحرمات : يسرفون في إيجاب الواجبات .  
وكما حرموا بالأحاديث الضعيفة ، نراهم يوجبون ، ويزيدون على الناس في التكاليف ، بالأحاديث التي لم تسلم من الاعتراض ، أو الأحاديث الصحيحة غير الصريحة في الدلالة .

فيوجبون على كل رجل : أن يقصر إزاره أو قميصه أو ثوبه إلى نصف الساق ، وما دون ذلك فهو في النار .

ويجعلون الإسبال (إسبال الإزار ونحوه) من كبائر الإثم ، بناء على حديث صحيح ورد في ذلك . فإذا قلت لهم : إن هذا الحديث قيده أحاديث أخرى ، تقيد الوعيد بمن فعل ذلك اختيالا وكبرا ، والقاعدة : أن يحمل المطلق على المقيد ، لم ينصتوا إليك ، ولا سيما إذا ناقشتهم بالمنطق العقلي : أن الوعيد الشديد الذي جاء في الحديث في شأن (المسبل) : أن الله لا ينظر إليه يوم القيامة ولا يزكيه ولا يكلمه وله عذاب أليم ، وأن هذا لا يكون إلا لمعصية كبيرة تمس جوهر الدين وقيمه ، مثل الكبر ، الذي هو من أخطر معاصي القلوب .

وكما أوجبوا على الرجل تقصير الثوب : أوجبوا على المرأة لبس النقاب .

ثالثا : التيار الوسطي ، ووضع الضوابط المنهجية للتعامل مع النصوص  
من أهم ما يميز التيار الوسطي : أنه وضع الضوابط المنهجية للتعامل مع النصوص الدينية ، سواء كانت نصوص القرآن أم نصوص السنة . وهذه الضوابط من شأنها أن تقيم توازنا بين النظرة العقلية ، والنظرة النقلية ، بلا طغيان ولا إخسار .

وقد صنفنا كتابين أساسيين في ذلك ، أحدهما : كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟  
والآخر : كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟

وفيهما وضعنا ضوابط للفهم والتفسير ، وحذرنا من المزالق التي تؤدي إلى سوء  
الفهم ، أو سوء التأويل ، أو التحريف .

كما صنفنا قبل ذلك كتابي في (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط)  
وبينا المعالم والضوابط العشرة لاجتهاد معاصر قويم .

وقبل ذلك أصدرت كتابا بعنوان (الفتوى بين الانضباط والتسيب) حذرت فيه من  
(مزائق المتصدرين للفتوى) من الغفلة عن النصوص الثابتة ، والجمود على كل  
قديم ، وإهمال تغير الزمان والمكان .

وسنكتفي هنا ببعض هذه الضوابط ، لأن المجال لا يتسع لها جميعا .

### أ- قطعية ثبوت النص القرآني :

أول ضوابط المنهج الوسطي : أنه لا نقبل بحال : أى كلام أو جدال في ثبوت  
القرآن ، فهو كله ، قطعي الثبوت بلا أدنى شك ، ثابت بالتواتر اليقيني ، حيث تلقاه  
الصحابة من فم رسول الله ، فحفظته صدورهم ، وتلته ألسنتهم ، وكتبته أيديهم ،  
وتلقاه من الصحابة تلاميذهم من التابعين ، وأخذهم عنهم أتباعهم . وهكذا تلقته  
أجيال الأمة بعضها عن بعض ، يتلونه سرا وإعلانا ، في الصلوات الجهرية ، وفي  
غيرها . لا يستطيع أحد أن يزيد فيه كلمة ، أو ينقص منه كلمة .

وقد نقل القرآن ملفوظا ومكتوبا . فأما ملفوظا ، فلا يوجد كتاب في العالم يقرأ  
كما قرأه النبي المنزل عليه وأصحابه : إلا القرآن ، المحفوظ بمداه وغمه ، كما كان  
يقرأ في عهد النبوة ، وألف في ذلك (علم التجويد) .

وأما مكتوبا ، فقد كُتب القرآن في عهد عثمان - الخليفة الثالث - بشكل رسمي  
معتمد من الخليفة ، ومن معه من الصحابة . ولا يزال الرسم العثماني هو المعتمد  
لدى الأمة الإسلامية في كل مكان ، والذي تكتب به المصاحف إلى اليوم .



## ب - التثبت من صحة الحديث :

أما الحديث ، فهو الذي يجب التثبت من صحة ثبوته . نعرضه على المعايير العلمية التي وضعها علماء الأمة لقبول الأحاديث وردها . وهي معايير منهجية صحيحة ، لا مطعن فيها . ولكن الخلل يأتي من عدم تطبيقها تطبيقاً دقيقاً .

فالحديث الصحيح عند أئمة الحديث : هو ما اتصل برواية العدل التام الضبط من مبدأ السند إلى منتهاه وسلم من الشذوذ والعلة .

ولكن بعض العلماء قد يقبلون أحياناً : من ليس عدلاً كاملاً العدالة ، فهناك من غمزه ، أو لينه ، أو تردد فيه .

وقد يقبلون أحياناً العدل الكامل العدل ، ولكنه ليس تام الضبط ، حسبت عليه أوهام وأغلاط في روايته ، أو تغير بآخر عمره .

وقد يكون ظاهر السند متصلاً ، ولكن بالتأمل والتعمق والموازنة ، يتبين للباحث المجتهد : أن الحلقات ليست متصلة تماماً ، بل هناك فجوة في الوسط أو في الأول أو في الأخير . وهذا يسبب ضعف الحديث .

وقد يكون السند متصلاً بالثقات العدول الضابطين ، ولكنه لم يسلم من الشذوذ ، فقد يكون الراوي الثقة الذي رواه : خالف من هو أوثق منه .

وقد لا يسلم من العلة في سنده أو متنه . فالراسخون في العلم إذا وقفوا في سند الحديث اكتشفوا فيه علة تخفى على غيرهم .

وقد تكون العلة في متن الحديث ومضمونه ، كأن يكون مخالفاً للقواطع العقلية أو القواطع العلمية ، أو التاريخية أو الواقعية ، أو لقواطع القرآن ، أو قواطع السنة . وهو ما يجعل أهل العلم يرفضونه ولا يقبلونه ، كما قال الإمام ابن الجوزي : (إذا رأيت الحديث ، تخالفه العقول ، أو تباينه النقول ، أو تناقضه الأصول ، فاعلم بأنه موضوع)<sup>(١)</sup>.

---

(١) كتاب (الموضوعات) لابن الجوزي ص ٥ .

وهذا ما جعلنا نتوقف في بعض أحاديث رواها البخاري أو مسلم أو بعض أصحاب السنن ، لأنها مخالفة للقرآن ، مثل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث : « إن أبي وأباك في النار »<sup>(١)</sup> . وأبوه عليه الصلاة والسلام ، كان من (أهل الفترة) وهم الذين لم يبعث لهم رسول يقيم عليهم الحجة ، ويستوجبوا بعد بعثته العذاب لمن كفر ، وقد قال تعالى في شأن عرب الجاهلية : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس: ٦) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ (سبا: ٤٤) .

وكذلك حديث أبي داود : « الوائدة والموءودة في النار »<sup>(٢)</sup> . فهذا يتنافى مع عدل الله تعالى ، ومع ظاهر القرآن ، فإذا كانت الوائدة في النار بما ارتكبت من جريمة الوأد ، فما ذنب الموءودة؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩) .

ولقد أيدت شيخنا الشيخ الغزالي في إنكار حديث البخاري : « لولا بنو إسرائيل لم يخزن اللحم »<sup>(٣)</sup> . لأن خنوز اللحم وتغيره من سنن الكون وقوانينه الطبيعية ، وهو موجود قبل بني إسرائيل وبعدهم! ولا نرد الحديث إذا أمكن تأويله وحمله على معنى صحيح ، مثل المجاز والكناية ، مثل حديث : [النيل والفرات من الجنة]<sup>(٤)</sup> . بعض الناس سارع برد الحديث ؛ لأن منابع النيل والفرات معروفة ، فكيف يقال : إنها تنبع من الجنة؟ ولكن الإمام ابن حزم - مع ظاهره - قال : (هذان الحديثان ليس على ما يظنه أهل الجهل من أن الروضة مقتطعة من الجنة ، وأن هذه الأنهار مهبطة من الجنة . هذا باطل وكذب) .

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢٠٣) ، عن أنس .

(٢) رواه أبو داود في السنة (٤٧١٧) ، وابن حبان في صفة النار (٧٤٨٠) وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٢) ، عن عبد الله بن مسعود . انظر : تعليقنا على هذا الحديث في كتابي « كيف نتعامل مع السنة النبوية » ص ١١٦ ، ١١٧ ، ط . الشروق ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٠) ، ومسلم في الرضاع (١٤٧٠) ، عن أبي هريرة .

(٤) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٩) ، وأحمد (٧٨٨٦) ، عن أبي هريرة ...

ثم ذكر ابن حزم أن معنى كون تلك الأنهار من الجنة إنما لبركتها .  
ثم يقول في هذا الخبر : (فوضح البرهان من القرآن ، ومن ضرورة الحس على أنها ليست على ظاهرها) <sup>(١)</sup> .

ومن هنا ضعفت بعض الأحاديث التي قبلها كثيرون ، ولكنني أراها تنافي المنطق الإسلامي ، والروح الإسلامية ، والأصول الإسلامية .

وذلك مثل حديث : «بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له» <sup>(٢)</sup> . وقد صححه محدثون كبار ، مثل الشيخ أحمد شاكر ، والشيخ الألباني ، والشيخ الأرناؤوط ، ولكن هذه التصحيحات لم يسغها عقلي ، ووقف هذا الحديث في حلقي لأنه ينافي القرآن الذي يقرر أن الله أرسل رسوله ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (التوبة: ٣٣) ولم يرسله بالسيف ولا بالرمح .

وبالبحث وجدت في الحديث راويا مختلفا فيه اختلافا كبيرا ، وهو عبد الرحمن ابن ثابت بن ثوبان ، ومثله لا يؤخذ منه حديث يعلن عن اتجاه الإسلام : أهو مع السلم أم مع الحرب ؟

وكذلك حديث : «افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة» <sup>(٣)</sup> فقد توقفت عنده ، ولم أجد له سنداً واحداً خلا من النقد ، وذكرت أقوال

---

(١) المحلى لابن حزم (٢٣٠/٧ ، ٢٣١) مسألة (٩١٩) .

(٢) رواه أحمد (٥١١٤) ، وقال مخرجه : إسناده ضعيف ، وابن أبي شيبه في الجهاد (١٩٧٤٧) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٩٧) : رواه أحمد ، وفيه : عبد الرحمن ابن ثابت ، وثقة ابن المديني وغيره ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقي رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١) ، عن ابن عمر .

والحديث لم يأت من طريق واحدة صحيحة متصلة سالمة من النقد ، وإنما صححه من صححه بطرقه ، وكلها لا تسلم من مقال ، ولنا في الحديث كلام طويل من جهة سنده ومتمه . انظر كتابنا : (فقه الجهاد) الفصل الخامس من الباب الثالث (٣٣٥/١-٣٤٦) .

(٣) رواه أحمد (١٦٩٣٧) وقال مخرجه : إسناده حسن ، وحديث افتراق الأمة منه صحيح بشواهده ، وأبو داود في السنة (٤٥٩٧) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤) ، عن معاوية .

وانظر : كلامنا عليه في كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفريق المذموم) ص ٣٤ ، طبعة دار الشروق .

من شكك في الحديث ، وخصوصا زيادة : « كلها في النار إلا واحدة » فقد حذر منها الإمام ابن الوزير ، وقال : (احذرهما فإنها من دسيس الملاحدة) <sup>(١)</sup>.

ومثل ذلك : حديث : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » <sup>(٢)</sup>. فهذا يخالف الواقع ، فقد كان زمن عمر بن عبد العزيز خيرا من زمن الحجاج قبله . وقد وجدت له تأويلا مقبولا ، وهو : أنه كان خطابا خاصا للصحابة الذين خوطبوا به ، فظنه بعض من سمعه أنه خطاب عام للأمة كلها .

وإذا وجدت تأويلا مستساغا للحديث ، لم يسعني أن أردّه وأرفضه ، وخصوصا ما كان في الصحيحين أو أحدهما ، وهذا قد رواه البخاري عن أنس .

وفي حديث (رضاع الكبير) لم يسعني أن أردّه ، وقد اشتهر بين الصحابة ، وعمل به بعضهم مثل : أم المؤمنين عائشة ، وخالفها سائر أمهات المؤمنين ، كما خالفها عامة الصحابة ، واعتبروه حكما خاصا استثنائيا ، في شأن قضية سالم مولى أبي حذيفة وزوجته سهيلة ، الذي كان يعتبر ابنا لهما ، قبل أن يحرم الإسلام التبني ، وقد رُبِّيَ في بيت أبي حذيفة حتى بلغ مبلغ الرجال ، وشكت سهيلة امرأة أبي حذيفة : ما تحسه من ضيق زوجها أبي حذيفة من وضع سالم في البيت ، فقال لها الرسول : « أرضعيه تحرمي عليه » <sup>(٣)</sup>.

وليس معنى قوله : « أرضعيه » أن تعطيه ثديها ليلقمه ويمتص اللبن منه . فهذا لا يتصور أن يقصده الرسول ، بل تحلب له اللبن في كوب وتناوله إياه ليشربه .

وقد كان لى موقف من الحديث الضعيف ، خالفت به جمهور المحدثين ، وهو : تساهلهم في رواية الضعيف في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب ونحوها .

---

(١) العواصم والقواصم ١٨٦/١ .

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨) ، وأحمد (١٢١٦٢) ، والترمذي في الفتن (٢٢٠٦) عن أنس .

(٣) رواه مسلم في الرضاع (١٤٥٣) ، عن عائشة .

فقد ذكرت في مقدمتي لكتابي (المنتقى من الترغيب والترهيب) رأبي وضوابطي لذلك فلتراجع<sup>(١)</sup>.

### ج - وصل النصوص الجزئية بالمقاصد الكلية :

ومن الضوابط المنهجية للمدرسة الوسطية : أنها تربط النصوص الشرعية الجزئية التي جاء بها القرآن ، أو الأحاديث النبوية بمقاصدها الكلية ، وأهدافها العامة .  
وقد بينا في كتابنا (دراسة في فقه مقاصد الشريعة) : أن في هذا المجال مدارس ثلاثة : طرفين وواسطة بينهما .

١- المدرسة الأولى : (الظاهرية) التي لا تهتم بالمقاصد ، ولا تؤمن بأن أحكام الشرع معلة ، ولا سيما في المعاملات وشئون الحياة المختلفة ، شئون الأسرة ، والجماعة والدولة ، والشئون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، والعلاقات الدولية . فهؤلاء لا ينظرون إلى المقاصد بإطلاق .

٢- المدرسة (المعطلة للنصوص) في مجال الشريعة ، لا في مجال العقيدة كالمعطلة القدامى ، وهؤلاء نقيض المدرسة السابقة تماما ، فإذا كان هؤلاء لا ينظرون إلى المقاصد الكلية ، فهؤلاء لا ينظرون إلى النصوص الجزئية ، من قرآن وسنة ، زاعمين أنهم يوافقون روح الإسلام ، أو مقاصد الإسلام . بل يتجاوزون تلك النصوص عمدا ، باسم المصلحة أو التقدم ، أو مواكبة العصر أو العولمة ، أو الحداثة أو غير ذلك . مدعين أن إمامهم في ذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، الذي عطل النصوص باسم المصالح!! وقد رددنا على هذه الدعاوى على عمر الفاروق ، بالمنطق العلمي الموثق بالدليل في كتابنا : (السياسة الشرعية) .

٣- وبين المدرستين تقوم (المدرسة الوسطية) تعطى كل جانب حقه : جانب النص الجزئي ، وجانب المقصد الكلي ، ولا تضرب أحدهما بالآخر .

---

(١) انظر : مقدمة كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) ص ٤٤-٥٦ .

## د - لا تعارض بين عقل صريح ونقل صحيح :

ومن ضوابط هذا المنهج : أنه لا يوجد عندنا نقل صحيح يتعارض مع عقل صريح ، بل نرى دائما : التوافق بين صريح المعقول ، وصحيح المنقول ، أو بين الثابت عقلا ، والثابت دينا وشرعا .

وأساس هذا : أن العقل نعمة من الله ، والوحي نعمة أيضا من الله ، فكلاهما من آثار الألوهية البارة الرحيمة . وآثار الله تعالى لا تتناقض ، ولا تتعارض . وإنما يحدث التعارض في أفهام الناس .

فقد يظن بعض الناس بعض الأمور من صلب الدين ، ويجادلون عنها ، ويتهمون من عارضها ، وعند التحقيق يتبين أنها ليست من الدين في شيء ، وأنها ألصقت بالدين وليست منه .

وقد يكون الأمر بالعكس : أن يحسب بعض الناس بعض النظريات أو الدعاوى العلمية : حقائق أثبتها العقل ، وأيدها البرهان ، وهي مجرد افتراضات لا أكثر من ذلك ، أو تفسيرات أو استنتاجات قابلة للقياس . مثل نظرية (داروين) ، التي خالفه فيها (الداروينيون الجدد) ، ومثل نظريات بعض الفلاسفة القدماء في شكل الكون ، وغير ذلك .

وقد صنف الإمام ابن تيمية كتابا في عشرة مجلدات في (درء تعارض العقل والنقل) مبينا أن العقل الحق لا يتعارض مع النقل الحق .

## هـ - الإيمان بسنن الله ورفض المبالغة في تصديق الخوارق والأوهام :

ومن مظاهر العقلانية - في فهم النصوص - التي يؤمن بها التيار الوسطي : إيمانه المطلق بسنن الله في الكون وفي الاجتماع البشري ، وأنها لا تتبدل ولا تتحول ، ومنها : احترام شبكة الأسباب والمسببات التي أقام الله عليها هذا العالم بمن فيه وما فيه .

ومن هنا نرفض المبالغة في الخوارق ، ونرفض اتباع الأوهام ، التي لا تستند إلى علم موثق ، ولا إلى وحي مصدق ، ولا إلى واقع شاهد ، كأولئك الذين

يزعمون أن الجنى يدخل في جسم الإنسان ، ويتسلط عليه ويتحكم فيه ، فهذا يتنافى مع تكريم الله للإنسان وجعله في الأرض خليفة ، وتسخير ما في السماوات وما في الأرض له ، وقد أخبر سبحانه أن الشيطان يقول يوم القيامة للناس : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (إبراهيم: ٢٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (الإسراء: ٦٥) .

وكذلك رفضت البدعة التي شاعت في بعض العواصم ، وروج لها المروجون ، وهي : العلاج بالقرآن ، وفتح (عيادات) الاستشفاء بالقرآن . وهو أمر لم يفعله الصحابة ولا التابعون ولا أتباعهم ، ولا المسلمون في عصورهم الذهبية ، ولو لجؤوا إلى ذلك ما علا شأن الطب عندهم وأصبحوا فيه معلمي الدنيا كلها ، وغدا لديهم أشهر الأطباء ، وأشهر المراجع العلمية . وكان منهم من جمع بين علم الدين وعلم الطب ، مثل ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) ، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، وابن النفيس (ت ٦٨٧هـ) (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) وهو من فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي (ت ٧٧١هـ) في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) .

## و - فهم السنة في ضوء القرآن :

وقد تحدثنا عن هذا الضابط المنهجي في كتابنا (كيف نتعامل مع السنة) . فإن من المتفق عليه : أن القرآن هو المصدر الأول للإسلام : عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاقا وقيما ومفاهيم ، وأن السنة هي الشارحة والمبينة له ، ويجب أن يظل القرآن هو المحور الذي تدور حوله السنة ، ولا تعارضه بحال ، إذ لا يجوز للبيان أن يعارض المبين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤) .

وقد ذهب الإمام الشافعي إلى أن السنة إنما هي مما استنبطه النبي ﷺ من القرآن . فتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها ، إنما هو قياس على تحريم الجمع بين الأختين .

فإذا وجدنا سنة تعارض القرآن معارضة حقيقية ، فإن ذلك دليل على الطعن في ثبوتها . ولهذا لم أقبل صحة حديث : «الوائدة والموءودة في النار»<sup>(١)</sup> . وإن صححه من صححه من كبار المحدثين ، مثل الشيخ الألباني (في صحيح الجامع الصغير وزياداته) لأنه يخالف القرآن الذي يقول : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾؟ (التكوير: ٨، ٩) . وهو يوحى بأنها لا ذنب لها فتقتل من أجله ، فكيف يكون مصيرها النار؟ وكيف تدخل النار ، وقد قتلت طفلة لم تبلغ من التكليف الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؟

### ز - ربط النصوص بعضها ببعض :

وهذا ضابط مهم ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا ، ويفسر بعضه بعضا ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) . فلا بد من جمع نصوصه في الموضوع الواحد ، بعضها إلى بعض ، حتى تتضح الصورة كاملة ، فيحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، ويبين المجمل بالمفصل ، وكذلك السنة بعضها ببعض ، ونصوص القرآن والسنة جميعا : لا يجوز أن ينظر إلى كل منهما نظرة منفصلة معزولة عن النصوص الأخرى ، فهذا يوقع الباحث في الخطأ ، وإن لم يقصد إليه .

ومن ذلك رد المتشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، والجزئيات إلى الكلّيات ، والفروع إلى الأصول ، حتى يؤمن الزلل ، والوقوع في الخلط والخلل .

### ح - عصمة مجموع الأمة من الضلالة :

وأخيرا ، هناك ضابط في غاية الأهمية ، يعصم دين الأمة من التفكك والانحلال إلى أديان شتى . . وهو : أن الله تعالى عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ؛ لأن هذه الأمة هي آخر الأمم ، ورسولها هو خاتم الرسل ، وكتابها هو آخر الكتب

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٤ .



المنزلة من عند الله . وقد تكفل الله بحفظه وصيانتة ، فلا يحرف ولا يتبدل ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) .

ومن لوازم حفظ هذا الذكر (القرآن) : أن يحفظ الله الأمة التي تحمله وتبلغه للناس . وحفظ الأمة ليس بمجرد حفظ وجودها المادي ، بل بحفظ وجودها المعنوي : أن تبقى حاملة لرسالتها ، حامية لشريعته ، مبلغة لدعوتها . وذلك بوجود جماعات فيها ، ومنها ، تحافظ على هويتها ، وتدافع عن وجودها المعنوي والرسالي ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨١) .

كما صحت الأحاديث واستفاضت عن وجود طائفة من الأمة تقوم على الحق حتى يأتي أمر الله ، وهم على ذلك ، يسميهم العلماء (الطائفة المنصورة) .

ومن المؤكد : أن القرون الأولى في هذه الأمة هي خير القرون ، لأنها أقرب إلى عهد النبوة ، والاقتراب من أنواره . وما أجمعت عليه الأمة في تلك القرون من العقائد والعبادات والمفاهيم والأخلاق والأحكام القطعية : يجب أن يظل موضع احترام لا يجوز تجاوزه . فهو يمثل الثوابت لهذا الدين . ومن أراد الاجتهاد - ممن يملك مؤهلات الاجتهاد - وجب عليه أن يكون اجتهاده في إطار هذه المسلمات .

أما أن يأتي أناس قليلو البضاعة من علوم الشرع ، وعلوم اللغة ، ويخرجوا علينا باجتهادات ما أنزل الله بها من سلطان ، تخالف دين الأمة التي عرفته من كتاب ربها وسنة رسولها ، بدعوى أن لديهم (قراءات جديدة) للقرآن . قراءات تنشئ لنا ديناً جديداً ، وشرعاً جديداً ، لم يعرفه عمر ولا عليّ ، ولم يدر بخاطر ابن مسعود أو ابن عباس ، ولا أحد من الصحابة أو التابعين ، ولم يعرف أئمة الأمة عنه شيئاً . فهذا ما يجب أن يرفض منهجياً ؛ لأن هذا يجعل هذا الدين عجينة طرية ، يشكله من يشاء كما يشاء ، ويمكن بذلك أن يكون لكل عصر دين ، ولكل بلد دين ، بل لكل مجموعة دين ، بل لكل شخص دين ، ويكون الدين في هذه الحالة مفترقاً لا جامعاً . ولا يمكن أن تتكون به أمة واحدة .

لهذا قرر علماؤنا : أن الأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة .  
وهذا ما يجب على كل باحث عن الحق مراعاته والتزامه .

### الاختلاف في دلالة النص :

أما الذي يحتمل الخلاف ، وتعدد وجهات النظر ، فهو دلالة النص ، سواء كان نصا قرآنيا ، أم كان نصا حديثيا . فهنا معترك الأفهام ، ومزلة الأقدام . وفيه يطول الأخذ والرد ، والجذب والشد ، بين المدارس المختلفة ، والاتجاهات المتباينة .

والاختلاف هنا قد يكون أساسه عقليا ، كما نرى ذلك واضحا في الحرفية (المدرسة الظاهرية) ومقابلها المدرسة المقاصدية ، أو مدرسة الفحوى .

وقد يكون أساس الاختلاف نفسيا ، فهذا يميل إلى التيسير ، وذاك يميل إلى التشديد ، هذا يأخذ بالرخص ، وذاك يأخذ بالعزائم ، هذا يجنح إلى الأيسر ، والآخر يجنح إلى الأحوط .

ويمثل المدرستين : ما يعرف في تراثنا برخص ابن عباس وشدائد ابن عمر رضي الله عنهم جميعا .

### مكانة العقل في الإسلام :

لا يجهل مسلم يملك الحد الأدنى من العلم بدينه : أن الإسلام يُغالي بالعقل ، ويُعلي من قيمته ، ويعتبره مناط كل تكليف شرعي ، فلا يخاطب بأحكام الشرع وتكاليفه إلا العقلاء ، ومن فقد العقل - لصغر أو جنون - فقد عدم أهلية التكليف .

والقرآن - كتاب الإسلام - هو الكتاب الديني الوحيد الذي ينوّه بأولي الألباب ، وأولي النهي ، أي أصحاب العقول ، وهو الدين الذي يكرر الأمر بالنظر والتفكير والتدبر ، وكثيرا ما ختمت آياته بمثل هذه الفواصل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، كما حمل القرآن نصوصًا مثل قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا ﴾ ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ ، وجاء فيه مثل هذه العبارات التي لم تُعهد قبله في ساحة أهل الأديان : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨) ، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١١١) ، ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨) ، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٤٣) ، ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وقد ألفنا كتابا كاملا عن (العقل والعلم في القرآن) أبرزنا فيه قيمة العقل ، وما يثمره من علم ، في كتاب الله .

ومن أهم ما بيناه في هذا الكتاب : أن القرآن بتعاليمه وتوجيهاته عمل على إنشاء (العقلية العلمية)<sup>(١)</sup> التي عليها تقوم النهضة ، وتبنى الحضارات ، وتتأسس المعارف والعلوم ، وهي نقيض العقلية الخرافية ، التي تصدق كل ما يقال لها ، ولو كان يرفضه العقل والنقل .

وهذه العقلية أسسها القرآن على سبعة ركائز ، بينها بتفصيل من قبل ، ونسردها هنا مركزة :

١- رفض الظن في موضع اليقين ، كما قال تعالى في ذم المشركين ومنهجهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨) ، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

٢- رفض اتباع الهوى ، وتحكيم العواطف ، فهذا يؤثر على النظرة العلمية والموضوعية للأشياء . قال تعالى ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦) .

---

(١) انظر : كتاب (العقل والعلم في القرآن الكريم) الفصل الخامس ص ٢٤٧-٢٨٢ نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

٣- رفض التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَآؤَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠) .

٤- رفض التبعية للسادة والكبراء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٦٧) . وحمل القرآن الشعوب تبعة هذه التبعية ، فقال : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (هود: ٩٧، ٩٨) .

٥- الدعوة إلى النظر والتفكر في الكون والإنسان ، أو في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) .

٦- ضرورة إقامة الدليل على أى دعوى : الدليل النقلي في الشرعيات : ﴿ قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس: ٥٩) ، والبرهان العقلي في العقديات والعقليات : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤) ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١) . ودليل المشاهدة في الحسيات أو ما يمكن أن يرى . كما قال عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا أَلَمَتِيكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ (الزخرف: ١٩) .

٧- رعاية سنن الله في الكون والمجتمع ، وهي سنن لا تتبدل ولا تتحول . كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) ، ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣) .

ومن هنا أنكر النبي ﷺ : السحر والتنجيم وتعليق التمام ، والتبرك بالأشجار والأحجار ، وكل ما لا يقوم على نظام الأسباب والمسببات . إنما يقوم على الأوهام والأباطيل .

### العقل أساس النقل :

يقول علماء الكلام أو أصول الدين : إن العقل أساس النقل ، يعنون : أن الوحي إنما ثبت بطريق العقل . فالعقل هو الذي دلَّ على إمكان الوحي الإلهي للبشر ، ودلَّ على الحكمة فيه ، ودلَّ على وقوعه بالفعل ، وأقام البرهان على صحة نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته ، فلو فقدنا الثقة بالعقل لانهار النقل أيضا ، إذ لم يثبت إلا به .

ولهذا كان أول ما درسناه في (علم العقائد) في كلية أصول الدين بالأزهر ، هو : تقرير الثقة بالعقل ، وذلك في قول الإمام النسفي في أول جملة استفتح بها رسالته في العقائد : قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافا للسوفسطائية . وأسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والعقل ، والخبر الصادق<sup>(١)</sup> .

ولكن العقل بعد أن يقيم الأدلة القاطعة على نبوة محمد ﷺ ، وأنه رسول الله حقا ، وأن الكتاب الذي جاء به إنما هو من عند الله ، ليس له فيه إلا التلقى والحفظ ثم التبليغ إلى الناس ، بعد ذلك يعزل العقل نفسه كما قال الإمام الغزالي<sup>(٢)</sup> ليتلقى بعد ذلك عن الوحي ما يخبر الله به من حقائق الوجود وعوالم الغيب ، كما يتلقى عنه أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦) .

(١) انظر : العقائد النسفية بشرح سعد الدين التفتازاني ، وحاشية الخيالي .

(٢) انظر : المستصفى من علم الأصول للإمام الغزالي ٧/١ .

## عناية القرآن بالعقل فعلا وقوة :

ولقد ذكر بعض الباحثين : أن القرآن عني بالعقل من حيث هو فعل ، مثل : (عقل) و(يعقل) ولم يعنَ به من حيث هو جوهر أو قوة ، يتم بها التعقل والتفكير .

وهذه في الواقع نظرة قاصرة لما جاء في القرآن عن العقل ، فإن القرآن الكريم قد عني بالأمرين معا ، وقد غفل الباحث أن القرآن عني بالعقل باعتباره جوهرًا أو قوة حين نوه في ستة عشر موضعا في كتاب الله بـ (أولي الألباب) فالألباب : جمع لُبّ ، واللُب هو : العقل . كأن القرآن يعتبر (العقل) هو لباب الإنسان ، والجسم هو القشرة ، أو الغلاف . وقد تحدثنا عن هذا التعبير في كتابنا : (العقل والعلم في القرآن) <sup>(١)</sup> .

كما عبر القرآن عن العقل بـ (الفؤاد) في آيات كثيرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) ، ومعنى هذا : أن الله أعطى الإنسان أدوات الإدراك والتجربة ، والفؤاد - الذي هو العقل - وهو أداة التفكير المنطقي والاستدلال .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (الأحقاف: ٢٦) .

وأحيانا يعبر القرآن عن العقل بالقلب كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦) .

---

(١) انظر : كتابنا العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٢ .

وقال تعالى في شأن أهل جهنم : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ  
لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ  
هُمْ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وقد يعبر القرآن عن العقل أو العقول بـ (النهي) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ (طه: ٥٤) .

### شهادات المنصفين من المفكرين الغربيين :

إن (العقلانية) في القرآن أمر واضح تمام الوضوح ، لا يخطئه أي قارئ للقرآن  
برئ من العصبية والتقليد ، بل يجدها ماثلة في ثنايا سوره : مكية كانت أو مدنية ،  
وليس هذا قول المسلمين وحدهم ، بل هذا ما شهد به كثير من الغربيين المنصفين  
بوضوح .

### شهادة جاك بيرك :

وآخر من قرأنا لهم ذلك : ما قاله كبير المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ،  
أو كما يُعبرُ هو عن نفسه بأنه (مستعرب) وليس بـ(مستشرق) ، وهو العالم  
الاجتماعي الكبير المعروف في عالم الفكر والثقافة : الأستاذ (جاك بيرك) ، الذي  
ترجم معاني القرآن إلى اللغة الفرنسية ، بعد أن قضى في ذلك ، عشرين عاما  
أو تزيد ، وقال في ذلك : (لقد تبينت لي بوضوح (عقلانية القرآن) في كل سورة  
من سوره ، وفي كل آية من آياته ، وذلك ثمرة مصاحبة ومعايشة طويلة للقرآن) .

### شهادة ماكسيم رودنسون :

وهناك شهادة أخرى أكثر تفصيلا وبيانا ، نجدها في فصل (العقيدة القرآنية) من  
كتاب الكاتب اليهودي الماركسي الفرنسي المعروف (ماكسيم رودنسون) ، الذي  
ألفه عن (الإسلام والرأسمالية) . فرغم ما في الكتاب من مأخذ ، نجده ينصف  
الإسلام - أو القرآن - في هذا الجانب ، ولا بأس أن أنقل بعض فقرات من هذا  
الفصل .

يقول (رودنسون) : (القرآن كتاب مقدس ، تحتل فيه العقلانية مكانا جد كبير ، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين . بل إن أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحي نفسه ، هو الوحي الذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور ، وعلى خاتمهم محمد ، يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان . فهو في مناسبات عديدة يكرر لنا أن الرسل قد جاءوا بالبينات . فإذا تساءلت : ما الذي يضمن صحة الدلالة في هذه البينات ، بدا لك أن هذه الضمانة - لدى محمد - تكمن في معايير من التلاحم الداخلي ، من التوافق الجوهرى بين مختلف ما أنزل من وحي في حقب مختلفة ، على شعوب مختلفة ، وبواسطة رسل مختلفين . بل إن الوحي الذي أنزل على محمد نفسه : يضمّنه أنه متمثل جوهرى مع الوحي الذي أنزل على غيره من قبل ، والذي يبدو له أمرا وثقه التاريخ . وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحي مثله ، وحي يحمل نفس السمات الإلهية شكلا ومضمونا ، أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أنزل على موسى وعلى محمد . . . فإذا لم يقبلوا هذه المعايير ، ففي المستطاع اللجوء إلى محاكمة تماثل (الرهان) المعروف لدى (باسكال) . وذلك هو ما يفعله (مؤمن من آل فرعون يكتّم إيمانه) دفاعا عن موسى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (غافر: ٢٨).

والقرآن ما ينفك يقدم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية : ففي خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية ، تنوع رائع التطابق مع حاجات البشر ، ﴿ لَا يَتْلُوَ الْقُرْآنَ وَالْآلَبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) .

يقول المؤلف : وفعل (عقل) بمعنى : ربط الأفكار بعضها ببعض ، فهو (البرهان العقلي) يتكرر في القرآن حوالي خمسين مرة . ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكاري ، وكأنه لازمة : (أفلا تعقلون)؟ والكفار ، أولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم (قوم لا يعقلون) ، لأنهم قاصرون عن أي جهد عقلي يهز تقاليدهم الموروثة ، وهم بهذا كالجماادات والأنعام ، بل أكثر



عجمة ، ولذلك كان الأب (هنري لامنس) على حق في قوله : إن محمدا (ليس بعيدا عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفكر البشري) !

فالكفار - ككل المحافظين في كلِّ العصور - يقولون إنه يكفيهم أن يتبعوا ما كان عليه آباؤهم ، ومحمد - ككل المجددين - تستثيره هذه الحماسة : أفلا يدركون أن آباءهم قد أهملوا فكرهم قبل أن يضعوا قواعد حياتهم؟ ولذلك يكره الله هؤلاء الناس ، الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم . ولئن كان يرسل الآيات على وجوده وإرادته ، وأهمها الآيات المنزلة على نبيه محمد ، فلكي يفهمها الناس ، ويجعلوا منها أساسا لتفكيرهم . ونرى الله يقدم البيئة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٨) ، ولما كان الإنسان حُرًّا ، فأقصى ما يسع الله فعله<sup>(١)</sup> : هو أن يضع أمامهم هذه الآيات ، هذه البيّنات التي ستكون حاسمة قاطعة بمجرد أن يعملوا حواسهم ، ومملكة المحاكمة فيهم . فإن فعلوا فلعلّها تهديهم إلى الإيمان . فإن اهتمدوا كانوا (عالمين) ، وكان لهم نصيب مما جاء الرسول من العلم ، هذا العلم الذي هو نقيض الجاهلية والجهل ، جهل الإنسان البدائي قبل الوحي الذي يأتي بالحق والصدق . وأما من ظل على كفره فهو الجاهل بإرادته ، ذلك الذي ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠) ولأمثال هذا يجب أن يقال : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

على أن الفهم العقلي للحقيقة لا يكفي وحده ، فيهود المدينة مثلا كانوا يفهمون الدعوة كل الفهم ، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يحرفوها عامدين . وكذلك ينبغي الانتقال من العقل المحض إلى العقل العملي ، وإدراك أن الخير والمصلحة هما في اتباع ما أمر به الله ، والالتحام بالجماعة التي يبينها رسوله بأمر منه<sup>(٢)</sup> .

---

(١) هكذا تعبير المؤلف ، أو لفظ المترجم !!

(٢) انظر : كتاب (الإسلام والرأسمالية) فصل (العقيدة القرآنية) ص ١٣٤ - ١٣٨ من الترجمة العربية .

## اللاهوت القرآني في دقة الرياضيات :

وينقل (رودنسون) عن دراسة لـ (شارل توراي) عن مصطلحات اللاهوت في القرآن قوله : (من الصعب أن يتصور المرء لاهوتا أكثر دقة رياضية) ويعلق (رودنسون) قائلاً : «ودقة الرياضيات تفترض العقلانية ، وهذا بالطبع لا يعني أن كل الأشياء ، في هذه العقيدة القرآنية ، تُدرك بالعقل ، فكثير منها لا يبلغه العقل ، وهذه بالذات آية من آيات الله على قدرته وعلى إحاطة علمه ، وهذه الأشياء التي لا قِبَلَ للعقل البشري أن يدركها بقوته وحدها ، يكشف الله للناس عن بعض منها بواسطة أنبيائه ، أما باقيها فيظل إلى الأبد في عالم الغيب ، ومهمة العقل هي أن يفهم صدق ما تقوله رسالات الرسل عن المجهول الذي لا طاقة له على معرفته ، وأن يدرك أيضا أن مصلحته هي في إطاعة تعاليمهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد حديث طويل عن العهدين القديم والجديد ، وموقف الآباء والأحبار من العلاقة بين الإيمان والعقل ، ينقل عن القديس الشهير (توما الأكويني) في القرن الثالث عشر الميلادي قوله : (إن صفات الله غير المرئية يحيط بها الإيمان بطريقة لا يستطيعها العقل الطبيعي حين يرقى من المخلوقات إلى الخالق) ، (مثلا إذا رفض المرء - أو لم يرد حقا - أن يؤمن إلا بواسطة العقل الإنساني ، فإن إدخال العقل يحط من قدر الإيمان)!

ويعقب (رودنسون) على ذلك بقوله : (في مقابل هذا ، تبدو العقلانية القرآنية صلبة كأنها الصخر)!<sup>(٢)</sup>.

## ٢- حاجة البشر إلى الوحي :

مع إيمان التيار الوسطي بمنزلة العقل في الإسلام ، وما نيط به من مهام في فقه الدين ، ومعرفة الدنيا ، وما قام به القرآن من تكوين العقلية العلمية : يظل العقل الإنساني محدودا في معرفته بحدود الزمان والمكان ، والخبرة والقدرة البشرية .

---

(١) انظر : كتاب (الإسلام والرأسمالية) فصل (العقيدة القرآنية) ص ١٣٩

(٢) الإسلام والرأسمالية ص ١٥٠ من الترجمة العربية للكتاب .

وتظل هناك معارف محجوبة عنه لا يستطيع إدراكها ولا الوصول إليها ، لأنها فوق طاقته ، وليس من اختصاصه . مثل معرفة العالم غير المنظور (عالم الغيب) وما فيه من الملائكة والكرسي والعرش ، ومثل الدار الآخرة وما فيها من حساب وميزان ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار . . ومثل معرفة صفات خالق الكون ، وبارئ الإنسان ، وواهب الحياة ، الذي عرفه الإنسان بفطرته وعقله بالإجمال ، ولكنه لا يعرف أسمائه وصفاته . . ومثل ما يحبه الله تعالى ويطلبه من عباده من التكاليف التي ترضيه عنهم ، وما يغضبه من الأخلاق والأعمال التي تسخطه عليهم .

ثم إن هناك قضايا كبيرة يختلف فيها البشر اختلافا كثيرا ، ويحتاجون إلى كلمة فصل بينهم ، من سلطة أعلى منهم ، تملك حق أمرهم ونهيهم . ولا يملك هذه السلطة إلا رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، الله وحده . قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣) ، ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ١٠) .

وبهذا كان الناس في حاجة إلى الوحي الإلهي ، ليهدي الناس إلى التي هي أقوم ، ينزله الله على من اصطفاهم من خلقه : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥) .

إن الوحي الرباني هو الذي يسد العقل إذا أخطأ ، ويرشده إذا ضل ، ويأخذ بيده في مفارق الطرقات ، وهو منارة الناس في الظلمات ، وملاذمهم إذا عميت عليهم المسالك ، والتبست عليهم الغايات ، واختلفت عليهم الأدلة .

فإذا كان العقل نورا من الله للإنسان ، فإن الوحي نور أقوى منه وأثبت ، يكمله ويقويه ويسدده ، فهو كما قال تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (النور: ٣٥) .

هل يغني الفلاسفة عن الأنبياء ؟

وربما قال بعضهم : ألا يكفي البشر أن يكون فيهم بين الحين والآخر : عباقرة لهم عقول كبيرة ، يستطيعون أن يهدوهم إذا ضلوا ، وأن يقوموهم إذا انحرفوا ، وأن يحكموا بينهم إذا اختلفوا ؟ مثل الفلاسفة الذين ظهروا في بلاد وعصور شتى .

ونقول بصراحة : لقد أثبت تاريخ الفكر الإنساني عجزه أن يقوم بهذه المهمة ، وأثبت بكل وضوح عجز الفلاسفة الكبار عن الهداية والتقويم والإصلاح والحكم بين المختلفين .

### ركام الفلسفات وتناقضاتها :

اقرأ تاريخ الفلسفة والفكر في الشرق والغرب ، وأجل بصرك في المدارس الفلسفية هنا وهناك قديماً وحديثاً ، فماذا تجد؟

تجد المثاليين من الفلاسفة يعارضهم الواقعيون ، وتجد الروحيين منهم يناقضهم الماديون ، وتجد الإلهيين يصارعهم الملحدون ، وتجد دعاة الواجب في مقابلة دعاة المنفعة .

وتجد من ينادي بالرجوع إلى الضمير ، ومن يصرّح بأن الضمير خرافة!

والقائلين بخيرية الإنسان ، والقائلين بأنه ذئب مقنّع!

وتجد الداهيين إلى أن الأصل في العالم الثبات ، والمعارضين لهم أن الأصل هو الصيرورة والتغير ، والمنادين بالفلسفة الفردية ، والداعين إلى الفلسفة الجماعية ، والداعين إلى الديمقراطية ، والمؤيدين للديكتاتورية ، والمتحمسين لرعاية القيم والأخلاق ، والقائلين بأن الغاية تبرر الوسيلة ، والمؤمنين بإنسانية واحدة ، والمتعصبين لنظرية تفاضل الأجناس ، وتجد من يقول بفلسفة القوة ، ومن يدعو إلى فلسفة الحق .

وكل فريق يزعم أن الصواب معه ، وأن الخطأ عند غيره ، وكلهم من العقل يستمدون ، وعنه يصدر<sup>(١)</sup>ون !

بل وجدنا في مدارس الفلسفة من ينكر وجود أي حقيقة كانت ، فلا الدين حقيقة ، ولا الدنيا حقيقة ، لا الله حقيقة ، ولا الإنسان حقيقة ، حتى أنكروا وجودهم ذاته !!

---

(١) انظر : كتابنا (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) فصل (تقديم العقل على الشرع) ص ٣٢١ ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة . ط . رابعة ١٣٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .

وهؤلاء هم الذين يسمونهم (العنادية) ، أي : المعاندين لوجود الحقائق في أي مجال .

وهناك من قالوا بنسبية الحقائق كلها ، فلا توجد حقيقة مطلقة في أي شيء .  
فالحقيقة كل الحقيقة عند زيد ، لا مانع في أن تكون هي الباطل كل الباطل عند عمرو . وكلاهما صواب ، وهؤلاء يسمونهم (العندية) .

وهناك من شككوا في الحقائق كلها ، ولما قيل لهم : إذن هناك حقيقة أقررتم بها ، وهي الشك في ثبوت الحقيقة ، قالوا : نحن نشك ، ونشك في أننا نشك!!  
وهؤلاء هم الذين يسمونهم (اللاأدرية) أي الذين يقولون في كل قضية : لا ندري !  
وهكذا كانت الفلسفة (السوفسطائية) التي واجهها سقراط ، والتي لا تزال تظهر وتتجدد في صور وأشكال مختلفة ، وبأسماء مختلفة .

وهذا التعارض في اتجاهات الفكر ، وثمرات العقل ، هو الذي جعل أحد أساتذة الفلسفة<sup>(١)</sup> يقول : إن الفلسفة لا رأي لها . يعني : أنك تجد في الفلسفة الشيء وضده ، والرأي ونقيضه ، فهي بهذا لن تشفي لك علة ، ولن تنق لك غلة .  
ثم إن العقل البشري تحدّه وتؤثر فيه أوضاع المكان والزمان ، أي ظروف البيئة والعصر ، البيئة الجغرافية ، والبيئة الاجتماعية والثقافية ، كما تحدّه وتحكمه طاقة الإنسان وقدرته على المعرفة ، من خلال وسائل وأدوات هي محدودة أيضاً .

وفوق ذلك كله ، نجد هذا العقل ، مهما يحاول التجرد من الذاتية ، كثيراً ما يقع - بوعي أو بغير وعي - أسيراً للمؤثرات والميول الشخصية والحزبية ، والإقليمية والعنصرية ، والمحلية والطائفية وغيرها ، مما يوجه أحكامه وجهة معينة بعيدة عن الحياد والموضوعية .

وقد رأينا العقول البشرية حين سارت وحدها بمعزل عن هدى الله تعالى ونوره ، ضلّت ضلّالا بعيدا ، فعبدت ما لا يستحق أن يُعبد من الحيوان والنبات والجماد ،

---

(١) هو : شيخنا وأستاذنا الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين بالأزهر ، وشيخ الأزهر بعد ذلك .

وحرمت على نفسها الحلال باسم الآلهة المزعومة ، واستحلت الحرام القبيح ، مثل قتل الأولاد من إملاق أو خشية إملاق ، وقسم الناس أنفسهم طبقات شتى يعلو بعضها على بعض ، وكلهم من خلق الله تعالى .

ولم يسلم من ذلك كبار الفلاسفة ، حتى رأينا مثل (أفلاطون) يقول بشيوعية الأطفال والنساء !

ورأينا مثل (أرسطو) يقول بتفاضل العروق والأمم ، ويقول بصريح العبارة : اليوناني سيد حر ، والأجنبي (البربري) عبد له ، ولا يستعبد اليوناني أخاه !  
ويعلق مؤرخ الفلسفة الأستاذ يوسف كرم على هذا ، فيقول : لم يستطع أرسطو أن يسمو فوق عرف عصره<sup>(١)</sup>.

### حصاد الفلسفة :

ما حصاد الفلسفة خلال القرون القديمة والوسيطة والحديثة؟ ما الذي قدمته الفلسفة للبشرية من هداية للعقل . أو طمأنينة للقلب ، أو سكينة للروح؟ إنها أثارت أسئلة عويصة ولم تجب دائما عنها ، أو أجابت إجابات ينقض بعضها بعضاً!

إنها هدمت أكثر مما بنت ، وتكلمت كثيراً ، وكان السكوت أحياناً خيراً لها ولأهلها ، لو كانوا يعلمون .

وها هو أحد مؤرخي الفلسفة في عصرنا ، وهو أحد أنصارها ، والمعجبين بها (ول ديورانت) الأمريكي صاحب الكتاب الشهير في التاريخ (قصة الحضارة) ، يقول في كتابه الذي سماه (مباهج الفلسفة) مبيناً الحصيلة الأخيرة من وراء مشوارها الطويل :

(ما طبيعة العالم ؟ ما مادته وما صورته ؟ وما مكوناته وهيكله ؟ وما مواده الأولى وقوانينه ؟ ما المادة في كيفها الباطن ، وفي جوهر وجودها الغامض ؟

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم ص ١٦٥ ، والتفكير الفلسفي في الإسلام سليمان دنيا ص ٢٩٤ .

ما العقل؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين : الخارجي الذي ندركه بالحس ، والباطني الذي نحسه في الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية ، كما قال الشاعر : (ما يكتبه الخالق في مطلع النهار نقرؤه في آخر النهار)؟ أم ثمة في المادة أو العقل ، أو في كليهما ، عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية ؟ ... هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجب عليها جميع الناس . وهي منابع فلسفاتنا الأخيرة ، التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر ، في نظام متماسك من الفكر . إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيارات الأرض .

ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق لا مناص منه . لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس ، فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل! فهذه النظرة الكلية - وهي فتننا في هذه المغامرات اللطيفة - ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن . ويكفي أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشيء من الأمانة ، لتتأكد من أن الحياة والعالم في غاية التعقيد والدقة ، بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما . وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلاً قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شيء<sup>(١)</sup> . فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوي جهلنا! وكلما كثر علمنا قلّت معرفتنا ، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة ، وشكوك جديدة . (فالجزيء) يكشف عن (الذرة) ، والذرة عن الإلكترون (الكهيرب) ، والإلكترون عن الكوانتوم (Quantum) (الكويمية) . ويتحدى الكوانتوم سائرمقولاتنا (Categories) وقوانيننا وينطوي عليها . والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في الشك . وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . وفي خلال هذا الضباب يجب علينا نحن (الزغب على الماء) أن نفهم البحر !

---

(١) هذا التعبير وأمثاله شائع في الفكر الغربي ، وهو من تأثير العقائد الوثنية القديمة لدى الإغريق والرومان . والعقلية الغربية قلما تعرف التوحيد المصفى .

وينتهي (ول ديورانت) إلى هذه النتيجة فيقول :

(ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ، وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة ؟ ! فلا يهدأ لهم بال ؛ حتى يحطمو كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات ، أو ما يهدئ به هذه الحرب) <sup>(١)</sup> انتهى .

هذه هي ثمرة الفلسفة في النهاية ، لم تحل مشكلة ، ولم توفر للناس نهجا صالحا ، يشفى الصدور ، ويقنع العقول ، وتطمئن به القلوب . ومن هنا بدت حاجة البشر إلى معين ، يسدده إذا أخطأ ، ويرشده إلى ما لا سبيل إلى معرفته من شؤون الغيب ، ويحكم بين العقول إذا اختلفت ، ولم تجد فيما بينها من تحتكم إليه ؛ فيضع له من المعايير والقواعد والتوجيهات ما يضيء له الطريق ، ولم يكن إلا الوحي الإلهي ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور: ٤٠).

### ٣- هل ألغى الوحي دور العقل ؟

ربما يقول بعض العقلانيين : إذا كان الإسلام منهجا إلهيا وضعه رب الناس للناس . أفليس معنى هذا هو إلغاء دور الإنسان وعقله أمام هذا المنهج ، وتنحيته من طريقه ، والحكم عليه بالسلبية المطلقة تجاهه ، فليس له إلا التلقي والتنفيذ والتسليم ، دون أن يقول : لِمَ ؟ أو كيف ؟ إذ لا تكافؤ بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني ، فإذا قال الوحي كلمته ، فليس على العقل إلا الإذعان والتسليم ؟ ونقول في الإجابة عن هذا التساؤل :

### الوحي لم يلغ دور العقل :

إن القدر الإلهي لم يلغ دور (إرادة) الإنسان ، وفاعليته في الكون ، مع وجود يد الله تعالى فيه ، ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية ، والإرادة الإنسانية ، أو بين قدرة الخالق ، وقدرة المخلوق .

---

(١) انظر : (مباهج الفلسفة) ص ٦١ ، ٦٢ ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، نشر مكتبة الأنجلو مع مؤسسة فرانكلين .



وكذلك لا يلغي الوحي الإلهي دور (العقل الإنساني)، وإيجابيته في فهم الوحي ، والاستنباط منه والقياس عليه ، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية .

إن وجود النص الإلهي المقدس ، ليس عائقا للعقل عن التحليق والإبداع ، فقد ترك الوحي للعقل مجالات شتى يثبت فيها ذاته ، ويبرز قدراته .

لقد ترك الوحي للعقل أمورا كثيرة في مجالات متعددة :

ما تركه الوحي للعقل في مجال العقيدة :

أ- ترك للعقل في مجال العقيدة : أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود :

الحقيقة الأولى : وجود الله ووحدانيته ، فوجود الله - كما تهدي إليه الفطرة السليمة - يقتضيه كذلك النظر الصحيح ، والعقل الصريح ، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) .  
﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦) .

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢) . ﴿ أَمْ أَرْتَدُّوا مِنْ دُونِهِ ءِلَٰهَةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٢٤) .

وفي موضع آخر يقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءِلَٰهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَآبَتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (الإسراء: ٤٢، ٤٣) .  
﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون: ٩١) .

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة . فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل ، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله . العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية ، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص

الوحي ، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام : إن العقل أساس النقل ، ذلك أن العقل - بعد اقتناعه بوجود الله تعالى وكمالهِ سبحانه - يعلم أن من تمام حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم : ألا يترك عباده سدى ، وألا يدهمهم في بحر لجي من الجهالة والعمى والغى ، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق مبلغين عنه .

والعقل بعد أن يعلم ذلك ، لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول من الله ، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه ، وأنه لا يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله ، فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

والعقل هو الذى يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية ، التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين .

والعقل هو الذى يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه ، وأنها تصديق من الله له في دعواه ، فهي بمثابة قوله : صدق عبدي فيما يبلغ عني . والله تعالى لا يُصدّق الكاذب ، لأن تصديق الكاذب كذب ، والكذب محال على الله تعالى . كل هذه مقدمات عقلية محضة ، ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً ، ولا قام الدين رأساً .

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة ، ويتأمل في صفاته وأخلاقه ، وأقواله وأعماله ، ومدخله ومخرجه ، ليعرف منها : هل هو أهل لاصطفاء الله ، فيقبله ويتبعه؟ أو ليس كذلك ، فيرفضه ويعرض عنه؟

ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد ﷺ ، إلى العقول المفكرة وحدها ، فقال في صرامة ووضوح : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْنِي وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبا: ٤٦) .

وقال يخاطب الرسول عن القرآن : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

ما تركه الوحي للعقل في مجال التشريع :

ب - وترك الوحي للعقل في مجال التشريع : أن يجول ويصول في أمرين :  
الأول : في فهم النصوص ، والاستنباط منها ، وربطها بعضها ببعض ، ورد فروعها إلى أصولها ، وظواهرها إلى مقاصدها ، ووصلها بالمقصد العام للإسلام ، وحمل مطلقها على مقيدها ، وخاصها على عامها ، وتبيين مجملها بمفصلها ، وهنا تتفاضل العقول ، وتتفاوت الأفهام ما بين مدرسة الأثر ، ومدرسة الرأي ، ومدرسة الظاهر ، ومدرسة المقاصد ، وما بين ميسر ومشدد ، سنة الله في الخلق .

والأمر الثاني : فيما لا نص فيه ، وهذا مجال رحب ، وترك هذا المجال مقصود من الشارع ، وهو ما سميناه (منطقة العفو) أخذنا من الحديث النبوي الذي رواه أبو الدرداء مرفوعا : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا » ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مریم: ٦٤) <sup>(١)</sup> . وهذه المنطقة يملؤها المجتهد بالقياس على المنصوص بشروطه ، أو بالأخذ بالاستحسان ، أو بالمصلحة المرسله بضوابطها ، أو برعاية العرف ، أو غير ذلك من الأدلة التبعية ، أو أدلة ما لا نص فيه . فهنا يفرع المجتهد على الأصول ، وقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويؤسس القواعد ، في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج ، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات والحاجات بقدرها ، واعتبار العرف ، ورعاية ظروف الزمان والمكان .

---

(١) رواه البزار (٤٠٨٧) ، وقال : إسناده صالح ، والدارقطني في الزكاة (٢٠٦٦) ، والحاكم في التفسير (٣٤١٩) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الضحايا (١٩٥٠٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (١١١٦٠) : رجاله ثقات . وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٣٨٥٨) ، والألباني في الصحيحة (٢٢٥٦) .

ولا عجب بعد ذلك : أن اختلفت المشارب ، وتعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي : ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي . بل لا يوجد عند أمة من الأمم - دينية أو غير دينية - نظير لها في التأصيل والتدليل ، والتفريع والتنويع ، وفي السعة والشمول .  
ما تركه الوحي للعقل في مجال الأخلاق :

ج - وترك للعقل في ميدان الأخلاق : أن يصدر حكمه ، وفتواه في كثير من الأعمال ، التي يلتبس فيها الخير بالشر ، ويشتبه الحلال بالحرام . ولم يغفل شأنه ، بجانب الوحي ، كمصدر للإلزام الأدبي ، ومقياس للحكم الخلقي . فإن الشريعة نفسها ، بعد أن بينت الحلال الصريح ، والحرام الصريح ، تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف ، ويشتبه فيها الحكم ، وفوضت لكل امرئ أن يستفتي فيها قلبه ، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه ، أخذا بالأحوط والأسلم . هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه »<sup>(١)</sup> ، ويقول : « استفت قلبك واستفت نفسك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك »<sup>(٢)</sup> .

ما تركه الوحي للعقل في كشف آفاق الكون والحياة :

د - ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق الكون العريض ما شاء ، صاعدا إلى الأفلاك ، وهابطا إلى الأرض ، ومتأملا في النفس : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) ، عن النعمان ابن بشير .

(٢) رواه أحمد (١٨٠٠٦) وقال مخرجه : إسناده ضعيف ، والدارمي في البيوع (٢٥٣٣) ، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨٣) ، وحسنه النووي في الأربعين ، الحديث السابع والعشرون ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤) ، حسن لغيره ، عن وابصة بن معبد .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ (يونس: ١٠١) ، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿ (١٠٢) وَفِي  
 أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ (الذاريات: ٢٠، ٢١) ، ومتدبرا في وقائع التاريخ : ﴿ أَفَلَمْ  
 يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ بَلَاغًا  
 لِّلْأَبْصَارِ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ (الحج: ٤٦) ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ  
 سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿ (آل عمران: ١٣٧).

ترك له أن يكشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع ، وأن يسخر من قواه  
 ما قدر عليه ، فكل ما فيه سخره الله لمنفعته : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (الجاثية: ١٣) ، ﴿ وَسَخَّرَ  
 لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿ (١٤) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ  
 وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿ (١٥) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴿

(إبراهيم: ٣٢-٣٤).

ترك الوحي للعقل أن يبتكر ، ويخترع في وسائل الحياة ، وأمور الدنيا ما شاء ،  
 ما دام ملتزما بحدود الحق والعدل : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »<sup>(١)</sup> ، ﴿ وَلَا تَنْسَ  
 نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ (القصص: ٧٧).

كما ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين ، وينتفع بتراث السابقين ،  
 ومعارف اللاحقين : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَأْوَى الْأَبْصَارِ ﴿ (الحشر: ٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَلَيْسَ بَلَاغًا  
 لِّلْأَبْصَارِ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ (الحج: ٤٦) ، ﴿ أَتَشْنَوْنَ  
 بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (الأحقاف: ٤) ،  
 ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ (النحل: ٤٣) .

« الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » .

\* \* \*

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) ، عن أنس .



## تردد العلم بين ما هو خاص وما هو عام

لا شك أن هناك من الحقائق العلمية ما هو مطلوب من الناس جميعاً ، وعلينا أن نعلمهم هذه الحقائق ، ونوصلها إلى الناس بأيسر الطرائق التي تيسر عليهم ، ولا تكلفهم شططا في تحصيلها .

والأصل في العلوم أنها كلها في خدمة البشر ، وأنهم جميعا يحبون الحصول عليها ، والإتقان لتعلمها ، والتفوق فيها .

ولكن الله تعالى جعل بعض العلوم فيها خصوصية ، فهي ليست لكل الناس ، وإنما لنوع منهم ، هيأه الله لذلك ، وزوده بأسباب معرفته ، وما يتعلق به دون غيره .  
**علم تأويل الأحاديث :**

من ذلك ما ذكره القرآن الكريم من إعطاء يوسف بن يعقوب - الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - ما سمّاه القرآن علم تأويل الأحاديث ، ويعني به تأويل الرؤى والأحلام التي يراها الناس ، وتفسيرها مهم ، وهذا مما خصّ الله به يوسف عليه السلام ، كما قال أبوه يعقوب حين عرض عليه ابنه ما رآه من النجوم والشمس والقمر ، حين رآهم له ساجدين ، فقال له : ﴿ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وَكَذَلِكَ نَجْتِبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ (يوسف: ٦،٥) .

وكذلك يقول القرآن بعد أن اشتراه عزيز مصر يوسف في صغره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف: ٢١) .

ولذلك قال له موسى بكل أدب وتلطف : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ \* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ (الكهف: ٦٦-٨٢) .

هذه القصة التي سجلتها سورة الكهف لموسى عليه السلام والعبد الذي آتاه الله من لدنه علما ، واسمه (الخضر) كما في البخاري ومسلم ، ووقعت معه هذه الوقائع الثلاث بما لها من تأويل ، وخصوصا الحادث الثاني ، قتل الغلام ، لما علم أنه إن عاش فسيرهق والديه طغيانا وكفرا .



وحينما أُدخِل يوسفُ السجنَ ، من بعد ما رأوا الآيات التي تثبت براءته ونقاء صفحته ، يقول : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٣٧) .

فهذا علم اختصَّ الله به يوسف عليه السلام ، تكريماً من الله له ، وإعزازاً لأمره ، ولم يعطِ ذلك لكل من أراد من الناس .

والإِلا فَمَنْ مِنَ النَّاسِ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَوَّلَ رُؤْيَا مَلِكٍ مِصْرَ فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعِ سَنَبِلَاتٍ خَضِرٍ ، وَآخِرُ يَابِسَاتٍ ، بِمَا فَسَّرَهُ بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : ﴿ أَضْغَثُ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ ﴾ (يوسف: ٤٤) .

ولذلك قال يوسف عليه السلام من بعد ، في أواخر حياته ، وبعد أن جمع الله شمله بأبويه ، وإخواته وأسرته : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١) .

علم نقل الأشياء بغاية السرعة من أماكن بعيدة ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ :

ومن الأشياء التي ذكرها لنا القرآن في قصة سليمان : أنه بعد أن عرفت ملكة سبأ المعروف اسمها باسم « بلقيس » ، أن سليمان ليس مجرد ملك من ملوك الدنيا ، وإنما هو نبي من أنبياء الله الكرام ، قررت أن ترحل إليه من اليمن إلى الشام ، لتُسَلِّمَ مع سليمان الله رب العالمين .

وقد علم سليمان بذلك : فأراد أن يُريها بعض العجائب التي أعطاها الله له ، وذلك بأن يأتوا إليه بعرشها قبل أن تحضر هي بنفسها ، فقال سليمان : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٨، ٣٩) .

أي أنّ هذا العفريت يمكنه أن يأتي بعرش المرأة من اليمن إلى فلسطين مُدّة مُقامه في المجلس ، أي نحو خمس ساعات ، أو نحو ذلك .

ولكن سليمان استكثر هذه المدة ، واعتبرها طويلة ، ولهذا سمع محاولة أخرى أمهرَ وأقصى سرعةً من ذلك ، عرضها أحدُ الحاضرين من الملأ في مجلسه : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠) .

أي أنّ هذا الشخص من الحاضرين في ملأ سليمان ، ولا شك أنه من الإنس ؛ لأن الآخر أطلق عليه أنه : ﴿ عَفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، فلا بد أن يكون هذا من الإنس ، ولا مجال أن يكون من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم يكونوا من ملأ سليمان ، وحضور مجالسه .

فهو يستطيع بما عنده من علم الكتاب ، وأسراره التي لم يشرحها للناس ، ولم نعرف عنها شيئاً ، إلا أنّها مما تعلمه من علم الكتاب ، أن ينقل العرش من بلدٍ إلى آخر ، أو من قطرٍ إلى آخر ، في مدّة هي أَوْجَزُ ما يتخيّله عقلُ بشر ، وهو ما قاله الرجل : ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠) . أي أنّه إذا فتح عينه ليرى ، فقبل أن يغلقها ، يأتي بالعرش إليه .

سبحان الله العظيم ، سبحان ربي الأعلى ، في لمح البصر ، ينقل هذا الشخص ، الذي لا نعرف اسمه ، عرش الملكة بلقيس من اليمن إلى فلسطين بالشام ، وهذا علم منحه الله لهذا المخلوق البشري ، ومكّنه منه ، وتعلمه بوسائله الخاصة المتعلقة بعلم الكتاب ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤) .

ولكن عرفنا من هذه القصة أنّ نقل هذه الأشياء من بلدٍ إلى آخر ، ومن مُحيطٍ إلى مُحيط ، ليس مستحيلاً ، ولكنّه مقدور للبشر ، وعليهم أن يبحثوا عن الوسائل . العلم اللدنيّ الذي منحه الله للخضر :

ومن العلوم التي يمنحها الله تعالى لبعض عباده ولا يحتاج إليها البشر جميعهم : ما سمّاه بعضهم : (العلم اللدني) ، الذي أخذ اسمه من قوله تعالى عن سيدنا موسى

في رحلته التي حدثنا عنها في سورة الكهف : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ دُنَا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥) .

فاعتبر بعضهم علم البشر الذي يصلون إليه نوعين :

نوع من لدن البشر أنفسهم ، ومن سعيهم بوسائلهم لتحصيله ، عن طريق الأسماع التي تستوعب المعلومات ، والأبصار التي تشاهد الممكنات ، والعقول التي تكتشف الحقائق ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) .

وهذا يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا ، فكل له مصادره ، وله وسائله ، ويمكن الحصول عليه ، كل على قدر واديه ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَأَلَتْ أُوْدِيَّةٌ بِقَدَرِهَا ﴾

(الرعد: ١٧) .

ونوع آخر من العلوم ، سمّاه من سمّاه : (العلم اللدني) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ دُنَا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥) .

فعلمه من لدن الله عز وجل ، وليس من لدن غيره ، لا يأتي بطريقة الآخرين من تحصيل قضايا ألفها علماء آخرون ، ولا من طريق تراتيب معينة ربّها الآخرون ، ليصل بها إلى ما يريد اكتسابه من حقائق علمية ، أو قوانين معرفية ، أو أخبار منقولة ، أو غير ذلك مما يحرص الناس على تعلّمه .

وهذا العلم له خصوصية تميّزه عن غيره مما يتصف به العلم الديني ، فهذا وإن كان داخلا في مضمون العلم الديني ، فيتميز عن غيره بخصائصه الذاتية .

فمن هذه الخصائص : أنه ليس ممنوحا للكافة ، وإن كانوا من أولي الفضل والنهي والتقوى ، كما نرى أن سيدنا موسى عليه السلام ، وهو من أولي العزم من الرسل ، وهو الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليه التوراة ، فيها هدى ونور ، لم يمنحه الله من هذا العلم اللدني ما أعطى عبده الذي لم يذكر لنا اسمه ، وأرشد موسى إلى أن يتبع هذا الرجل ليتعلم منه مما علمه الله رشدا .

## موسى والخضر :

وخلافنا إنما هو مع الغلاة من الصوفية ، الذين اعتبروا كشفهم وإلهامهم مصدرًا للأحكام الشرعية ، فيُحلّون على أساسه وحده ، ويُحرّمون !

ويأخذون من قصة موسى والخضر : أن (العلم اللدني) مُقدم على (العلم الشرعي) ، وأن هناك «شريعة» يعلمها الفقهاء ، و«حقيقة» يعرفها الأولياء! وأن الحقيقة مقدمة على الشريعة ! فالشريعة للعوام والحقيقة للخواص ! وأن من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم !

ويستدلون على هذه التفرقة بهذه القصة ، التي ذكرها الله في سورة الكهف . فموسى - في نظرهم - كان ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة ، وقتل الغلام بغير جناية ، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراما ولا معونة .

وأما الخضر فكان ينظر بعين الحقيقة ، ولهذا بيّن لموسى ما وراء كل أمر من هذه الأمور الثلاثة من أسرار وغيوب ، فسلم موسى للخضر ؛ لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر ، علم الشريعة ، والخضر كان معه علم الباطن ، وهو علم الحقيقة!

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم أو كسب ، إنما هو علم وهبي ، من لدن الله مباشرة ، وبلا واسطة ، ويسمونه : «العلم اللدني» أخذًا من قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥) .

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع ، الذي يُعرف بالنصوص ، ويُعلم بالشواهد والأدلة ، ويُطلب من العلماء ، ويروى بالأسانيد ، ويسمونه هم : «علم الورق»!

وإنما يعنيه علم «الباطن» أو «الحقيقة» أو «العلم اللدني» كما يسمونه ، علم الخضر لا علم موسى ، علم «أصحاب الأذواق» ، لا علم «أصحاب الأوراق» ، علم الصوفية لا علم المحدثين والفقهاء .

بل قال بعضهم في جراءة عجيبة : إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله جل جلاله!!

ولا ريب أن هذا من الجهل والعُجب ، والغرور ، والشُرود عن سواء الصراط ، الذي سار عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الغر الميامين . والتابعون لهم بإحسان ، بل هو الذي سار عليه شيوخ الصوفية الأوائل أنفسهم ، وربوا عليه مريديهم ، وشددوا في ذلك ، ولم يتهاونوا فيه .

وقد بين الإمام الشاطبي في «الموافقات» أن من خصائص الشريعة عمومها لكل المكلفين في كل الأوضاع والأحوال .

فلا يخرج عنها ولي ولا غيره بدعوى الكشف أو غيره ، وأن العوائد الجارية ضرورية الاعتبار شرعا ، فليس الاطلاع على المغيبات ، ولا الكشف الصحيح بالذي يمنع جريانها على مقتضى الأحكام العادية ، والقُدوة في ذلك رسول الله ﷺ ، ثم ما جرى عليه السلف الصالح رضي الله عنهم .

ثم تعرض لقصة «الخضر» ، التي يحتج بها قوم على جواز الخروج عن ظاهر الشريعة لمن سموهم الأولياء ، أو أهل الكشف ، وقال فيها : «وأما قصة الخضر - عليه السلام - وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (الكهف: ٨٢) . فيظهر به أنه نبي ، وذهب إليه جماعة من العلماء استدلالا بهذا القول .

ويجوز للنبي أن يحكم بمقتضى الوحي من غير إشكال ، وإن سلم فهي قضية عين ، ولأمر ما ، وليست جارية على شرعنا .

والدليل على ذلك أنه لا يجوز في هذه الملة لولي ، ولا لغيره ممن ليس بنبي أن يقتل صبيا لم يبلغ الحلم ، وإن علم أنه طبع كافراً ، وأنه لا يؤمن أبداً ، وأنه إن عاش أَرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وإن أُذِن له من عالم الغيب في ذلك ؛ لأن الشريعة قد قررت الأمر والنهي ، وإنما الظاهر في تلك القصة أنها وقعت على مقتضى

شريعةٍ أخرى، وعلى مقتضى عتاب موسى عليه السلام، وإعلامه أنّ ثمّ علماً آخر، وقضايا أخر لا يعلمها هو .

فليس كل ما اطلع عليه الولي من الغيوب يسوغ له شرعا أن يعمل عليه ، بل هو على ضربين :

أحدهما : ما خالف العمل به ظواهر الشريعة من غير أن يصح رده إليه ، فهذا لا يصح العمل عليه البتة .

والثاني : ما لم يخالف العمل به شيئا من الظواهر ، أو إن ظهر منه خلاف فيرجع بالنظر الصحيح إليها ، فهذا يسوغ العمل عليه . وقد تقدم بيانه .

فإذا تقرر هذا الطريق فهو الصواب ، وعليه يربّي المربي ، وبه يعلّق همّ السالكين ، تأسّيّا بسيد المتبوعين رسول الله ﷺ ، وهو أقرب إلى الخروج عن مقتضى الحظوظ ، وأولى برسوخ القدم ، وأحرى بأن يتابع عليه صاحبه ، ويُقتدى به فيه ، والله أعلم<sup>(١)</sup> .

وقبل الشاطبي بين شيخ الإسلام ابن تيمية بالأدلة : الغلط الذي وقع لأولئك القوم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة ، مجتهدا أن يردّ ما فعله الخضر إلى الشريعة .

ومما ذكره : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، ولا أوجب الله على الخضر متابعتة وطاعته ، بل قد ثبت في الصحيحين : « أن الخضر قال له : يا موسى ، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه »<sup>(٢)</sup> ، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

(١) الموافقات : ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في العلم : (١٢٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠) ، عن ابن عباس .

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال فيما فضله الله به على الأنبياء ، قال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة »<sup>(١)</sup>.

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعتة وطاعته ، والاستغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته ، مستغنيا عنه بما علمه الله .

وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد : إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه .

ومن سوغ هذا ، أو اعتقد أن أحداً من الخلق - الزُّهَّاد والعبَّاد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعتة ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل ، وافقه موسى ، ولم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن كان قد يكون أفضل من الأول ، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله ، إما بإذن لفظي أو غيره ، فيتصرف ، وذلك مباح في الشريعة ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا ، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك ، لئلا يأخذها [وهذا]<sup>(٢)</sup> خير من انتزاعها منهم .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٥٢١) عن جابر ابن عبد الله .

(٢) في الفتاوى : بياض بالأصل ، والسياق يقتضيه .

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت ، فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها<sup>(١)</sup> ، فسألوا النبي ﷺ عنها ، فأذن لهم في أكلها ، ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ؛ لأنه كان مأذونا فيه عرفا ، والإذن العرفي ، كالإذن اللفظي . ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظاً<sup>(٢)</sup> . ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته ، قام بجمع أهل المسجد ، لما علم من طيب نفس أبي طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة<sup>(٣)</sup> ، وكذلك حديث جابر<sup>(٤)</sup> .

وقد ثبت أن لحاماً ، دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه<sup>(٥)</sup> ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما . وكذلك قتل الغلام ، كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٠١) بلفظ : « أن جارية لهم كانت ترعى غنما بسلع ، فأبصرت بشاة من غنمها موتاً ، فكسرت حجراً فذبحتها ... » ، عن ابن عمر .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٩٨) بلفظ : « . . . فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : « هذه يد عثمان » . فضرب بها على يده . . . » ، عن ابن عمر .

(٣) إشارة إلى الحديث المتفق عليه : « . . . أرسلك أبو طلحة » فقلت : نعم ، قال : « بطعام » فقلت : نعم ، فقال رسول الله ﷺ لمن معه : « قوموا » فانطلق وانطلقت بين أيديهم ، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس .... » رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٨) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٠) ، عن أنس .

(٤) إشارة إلى الحديث المتفق عليه : « إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ... فقال : قوموا » فقام المهاجرون ، والأنصار ، فلما دخل على امرأته قال : ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . . . » رواه البخاري في المغازي (٤١٠١) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٩) .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٦) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦) ، عن أبي مسعود الأنصاري .



فلهذا ثبت في صحيح البخاري<sup>(١)</sup> أن نجدة الحروري (من رؤوس الخوارج) لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم »<sup>(٢)</sup> .

ونقل الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » عن الإمام القرطبي كلمة قيمة تعليقا على قصة موسى والخضر وما يستفاد منها من أحكام وعبر ، قال فيها :  
ولننبه هنا على مغالطتين :

الأولى : وقع لبعض الجهالة أن الخضر أفضل من موسى ؛ تمسكا بهذه القصة ، وبما اشتملت عليه ، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ، ولم ينظر فيما خصّ الله به موسى عليه السلام من الرسالة ، وسماع كلام الله ، وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء ، وأنّ أنبياء بني إسرائيل كلّهم داخلون تحت شريعته ، ومخاطبون بحكم نبوته ، حتى عيسى ، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة ، ويكفي من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَخَطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِيسَلَتِي وَيَكَلِّمِي ﴾ (الأعراف: ١٤٤) .

قال : والخضر وإن كان نبيا فليس برسول باتفاق ، والرسول أفضل من نبي ليس برسول ، ولو تنزلنا على أنه رسول ، فرسالة موسى أعظم ، وأمته أكثر ، فهو أفضل ، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل ، وموسى أفضلهم . وإن قلنا : إن الخضر ليس بنبي ، بل وليّ ، فالنبي أفضل من الولي ، وهو أمر مقطوع به عقلا ونقلا ، والصائر إلى خلافه كافر ؛ لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة .

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٨١٢) ، لم أجده في البخاري ، وأورده الحميدي في الجمع بين الصحيحين في أفراد مسلم (١٢٢٢) ، وكذا ابن الأثير في جامع الأصول (١٠٩٣) ، المزي في تحفة الأشراف (٦٥٥٧) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٤٢٥/١١) وما بعدها . وما ذكره عن ابن عباس هنا ، فإنما قصد به - كما قال السبكي - المحاجة والإحالة على ما لا يمكن قطعاً لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر ، وليس مقصوده - رضي الله عنه - أنه إن حصل له ذلك يجوز القتل (انظر روح المعاني للآلوسي : ١٧/١٦) .

قال : وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانا لموسى ليعتبر .

الثانية : ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة ، فقالوا : إنه يستفاد من قصة موسى والخضر : أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامّة والأغبياء ، وأما الأولياء والخواص ، فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص ، بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويُحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم ، لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، فتنجلي لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربّانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون الأحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكلّيات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى ، ويؤيده الحديث المشهور : « استفت قلبك وإن أفنوك »<sup>(١)</sup> .

قال القرطبي : وهذا القول زندقة وكفر ؛ لأنه إنكار لما علّم من الشرائع ، فإن الله قد أجرى سنّته ، وأنفذ كلمته ، بأنّ أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رُسله ، السفراء بينه وبين خلقه ، المبينين لشرائعه وأحكامه ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٥) . وقال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤) ، وأمر بطاعتهم في كل ما جاءوا به ، وحث على طاعتهم ، والتمسك بما أمروا به ، فإن فيه الهدى ، وقد حصل العلم اليقين ، وإجماع السلف على ذلك ، فمن ادّعى أن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه ، غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول ، فهو كافر يقتل ولا يستتاب .

وقال : وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا ؛ لأن من قال : إنه يأخذ عن قلبه ، لأن الذي يقع فيه هو حكم الله ، وأنّه يعمل بمقتضاه ، من غير حاجة منه

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٠ .

إلى كتاب ولا سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، كما قال نبينا ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي »<sup>(١)</sup> .

قال : وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال : أنا لا آخذ عن الموتى ، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت ! وكذا قال آخر : أنا آخذ عن قلبي وعن ربي ! وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع ، ونسأل الله الهداية والتوفيق .

وقال غيره : من استدلل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ، ويجوز له فعله ، فقد ضلّ ، وليس ما تمسك به صحيحاً ، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع ، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غضبها ، ثم إذا تركها أعيد اللوح ، جائز شرعاً وعقلاً ، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر . وقد وقع ذلك واضحاً في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم ولفظه : فإذا جاء الذي يسخرها فوجدتها منخرقة تجاوزها فأصلحها ، فيستفاد منه وجوب التأنّي عن الإنكار في المحتملات . وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة . وأما إقامة الجدار ، فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان<sup>(٢)</sup> ، والله أعلم .

ومن هنا يتبين لنا أن العلم الشرعي لا يستغني عنه أحدٌ ، ولا يخرج عن حكمه أحد ، أيّا كانت منزلته في دين الله ، أو في دنيا الناس .

فاللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢).

\* \* \*

---

(١) رواه الطبراني (١٦٦/٨) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦/١٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩٣) : رواه الطبراني ، وفيه عفير بن معدان ، وهو ضعيف ، عن أبي أمامة الباهلي .

(٢) فتح الباري : ٢٢١/١ ، ٢٢٢ ، طبع دار الفكر .



(٧)

## تردد العلم بين الظني والقطعي

من المهم في المجال العلمي : أن تفرّق بين الظني والقطعي ، فيما يثبت من الأحكام ، في الشرعيات والعقليات ، فللظني حكمه ، وللقطعي حكمه ، وكثير من الناس يخلط بينهما ، فتختلط عليه الأمور ، وتلبس عليه المسالك ، وتتعارض عنده المسائل بعضها ببعض .

وكل من القطعي والظني يكون في العقليات والشرعيات .

### لا تناقض بين القطعيات :

ومن المعروف عند أهل العلم : أن القضيتين القطعيتين إذا ثبتت قطعيتهما يقيّن لا يمكن أن يختلفا ، أو يتناقضا ، فإن القطعيات لا يناقض بعضها بعضا أبدا . فلا يمكن أن يجتمعا معا ، ولا يمكن أن يرتفعا معا ، هذا في القطعيات العقلية ، وفي القطعيات الشرعية .

فإذا ثبت أن هناك قضيتين متناقضتين ادّعي أنهما قطعتان ، فلا بد أن هذه الدعوى غير حقيقية ، ولا بد أن فيها غلطا ، فلا بد أن إحدى القضيتين ظنية ، أو أن كليهما ظنية ؛ إذ تناقض القطعيات مستحيل .

وإذا تناقضت قضيتان ، كليهما دينية ، وكليهما قطعية ، فهذا ما ينقضه المنطق ، وما هو متفق عليه ، وما هو مقطوع به .

أما إذا ثبت أن إحدى القضيتين قابلة للنقض ، فلا بد أن فيها خللا جعلها غير قطعية ، إذ القطعي لا يناقض القطعي أبدا ، دينيا كان أم دنيويا

وقد تكون إحدى القضيتين دينية شرعية ، والأخرى عقلية دنيوية ، ولكنهما قطعتان ، فإذا كانتا قطعتين ، فلا يجوز أن تناطحا إحداهما الأخرى ، ولو حدث

ذلك ، فلا بد أن يُحذف القطعُ من إحداهما ، ويثبت له الظنية ، أو يُحذف القطع من كليهما ، وتثبت لهما الظنية .

ومن اللازم أن يعرف الناسُ حكمَ القطعي والظني في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وحكم القطعي والظني في الأمور العقلية ، وحكم القطعي والظني في الأمور المختلطة بينهما .

### تعارض القطعي والظني :

وإذا تعارض القطعي والظني ، قُدِّم القطعي لا محالة بالإجماع .

وأما إن كان كلاهما ظنياً ، فهنا يُرجع فيه إلى ما يُعرف بـ (التعارض والترجيح) في الأدلة ، وهو باب معروف في أصول الفقه ، وفي أصول التفسير ، وفي أصول الحديث .

ومن المقرر المعروف في الدوائر العلمية : أن المسلم لا يُحكم عليه بالكفر إذا أنكر أمراً ظنياً ، فالظني لا يُحكم له بالقطع أنه من صلب الإسلام ، بل هو متردد بين هذا وذاك ، والكفر غاية في بابه ، فلا يدخل المسلم في الكفر ، وعنده فرصة ألا يدخل فيه ، ومن ذلك إذا لم يقتحم باب القطعيات في الدين ، أما الظنيات فله فيها فسحة .

أما القطعيات فهي اليقينية ، التي يُحكم بالكفر على من أنكرها ، أو بعضها ، أو واحدة منها ، فيكفي أن ينكر المسلم - الذي ثبت إسلامه - قضية واحدة قطعية ، كأن ينكر سورة من القرآن ، ولو كانت من قصار المفصل ، مثل سورة العصر ، أو سورة قريش ، أو سورة الكوثر ، أو سورة الإخلاص ، ونحوها . ولو أنكر ما ليس بسورة مما هو ثابت في القرآن يكفر به .

أو أنكر حكماً من الأحكام الشرعية القطعية الثابتة ، مثل فرضية الصلوات الخمس ، أو الجمعة ، أو فرضية الزكاة ، أو الصيام ، أو الحج ، أو تحريم الخمر أو الربا ، أو حلّ البيع والشراء في الأشياء المباحة ، أو حلّ الزواج بغير المحارم ،

أو غير ذلك من الأشياء المعروفة بين الناس ، فهذا يُعدّ من الكفر المقطوع به في نظر الإسلام .

### منكر القطعي يستتاب :

ومما يترتب على معرفة القطعي والظني : أن من أنكر قطعياً من الدين الثابت ، يجب أن يُستتاب ، ويطلب منه ذلك ، ويعرّف بخطر ما ذهب إليه ، وأنه عرض نفسه للخروج من الإسلام ، وأنه يترتب عليه كذا وكذا ، وأنه مطلوب منه أن يراجع نفسه ، ويتوب إلى الله تعالى مما وقع فيه ، وهذا متاح لكل من ارتكب خطأ وخطيئة ، مهما تكن عواقبها ، فإن الله سبحانه يتوب على من تاب ، من كافر أو مؤمن ، وكان الله تواباً رحيماً .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٧٠، ٧١) .

ولا يمكن أن تحكّم على شخص بالردة عن الإسلام ، إلا بجحود أمرٍ قطعي مُجمع عليه من أمور الإسلام ، أما الأمر الذي يُختلف فيه ، فهو يُبقي صاحبه على أصل الإسلام ، ولا يخرج به إلى دين آخر ، أو إلى غير دين .

وهذا احتياط مهم ، حتى لا يتسرع البعض - لسبب أو لآخر - فيكفر الناس ويخرجهم من الإسلام ، وينضمّوا بسبب حماقة بعض الناس إلى أعداء الإسلام .

### مبالغة بعض المتكلمين في التقليل من قطعية القرآن :

هذا وقد بالغ بعض المتكلمين الكبار ، ومنهم من ينتسب إلى أهل السنة ، مثل الإمام فخر الدين الرازي وأمثاله في الاعتداد بالأدلة العقلية ، والتقليل من قطعية النصوص الشرعية من الكتاب والسنة المتواترة ، وسمّوها : (الظواهر اللفظية) .

وزعموا أن هناك احتمالاتٍ عشرة أو تسعة ، تردُّ على كل لفظ أو نصٍّ ، تجعله لا يفيد اليقين أو القطع ، ومن ذلك ما ذكره الرازي ، وهو : احتمال وجود المعارض العقلي .

وهذه دعوى مرفوضة ولا شك ، ولا أدري كيف تصدر من عالم كبير ، اشتهر بالتأليف في التفسير ، والكلام ، والفقه ، والأصول ، كما اشتهر في علم الطب نظراً وممارسة ، وغدا يشار إليه بالبنان في عصره ، وبعد عصره ، حتى يذكر في بعض الكتب بوصف (الإمام) دون ذكر اسمه أو لقبه؟!!

ولكن هذا يدلنا على أن كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ، ما عدا المعصوم بالوحي ﷺ .

كما يدلنا على قيمة ما جاءنا من أحاديث مرفوعة وموقوفة في التحذير من زلات العلماء ، وزیغات الحكماء .

وهذه النصوص التي سمّوها (ظواهر لفظية) ، إنما أنزلها الله في كتابه ، أو أنطق بها رسوله ﷺ ، لتكون : « بياناً للناس » ، قال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) .

كما وصف الله القرآن بأنه (بيان) ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذُرًا لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) .

ووصفه كذلك بـ ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ، كما في قوله تعالى : ﴿ حَمْدٌ ۝۱ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (الدخان: ٢، ١) .

وفي سورة الحجر : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر: ١) .

وفي سورة النمل : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ١) .

وجاء في مطالع عدة سور مثل سورة « يوسف » : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (يوسف: ١) . وسورة « الزخرف » : ﴿ حَمْدٌ ۝۱ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (الزخرف: ٢، ١) .

وقبل ذلك وصفَ الله تعالى القرآن بأنه ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ ، كما في قوله سبحانه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

(البقرة: ١٨٥) .



كما أنه عز وجل جعل القرآن حكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه ، فهو يبين لهم ما غمض عليهم ، ويحلّ لهم ما أشكل عليهم : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (النحل: ٦٤) .

وكذلك شأن كتب الله تعالى ، ورسله ، كما وضّحه القرآن : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥) .

**نقض وصف النصّ القرآني بأنه محتمل :**

فكيف يوصف النص القرآني بعد ذلك بأنه « محتمل »؟!؟

لو قيل هذا في الآيات المتشابهات ، التي تحتل أكثر من تفسير ، لكان هذا مقبولا ، أمّا الآيات المحكمات اللاتي هن ﴿ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ، والمرجوع إليها عند الاختلاف ، والمحكمة عند التنازع ، فكيف يقال فيها ذلك؟!؟

وقد قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: ٥٩) .

فكيف يردّ إلى ما يقبل في ذاته التنازع ، ولا يفصل النزاع؟!؟

تحدث الإمام الرازي في كتابه (المحصول في أصول الفقه) ، في الظنون التي تردّ على نصوص القرآن الكريم ، والأحاديث المتواترة ، وتجعلها دائما غير قطعية! بل هي أميل إلى إفادة الظنية ، فهناك احتمالات ، أو ظنون تنقل النص من القطعية إلى الظنية .

فهناك احتمال في صحة اللغة ، والنحو ، والصرف ، والمرجوع فيها إلى الأدباء ، وهم معتمدون في تصحيح الصحيح منها ، وإفساد الفاسد على أقوال هؤلاء الأكابر ، من شعراء الجاهلية والمخضرمين .

وإذا كان الأدباء قدحوا فيهم ، وبيّنوا لحنهم وخطأهم ، في اللفظ والمعنى والإعراب ، فمع هذا كيف يمكن الرجوع إلى قولهم ، والاستدلال بشعرهم؟  
فثبت أن المقصد الأقصى في صحة اللغة والنحو والتصريف : الظن .

الظن الثاني : احتمال أن يكون اللفظ مشتركا ، ونفي الاشتراك ظنيّ .

الثالث : أن يكون اللفظ مجازا ، ونفي المجاز مظنون .

الرابع : أن يكون اللفظ منقولاً من معناه اللغوي إلى معنى آخر ، أرادته العُرف ، أو الشرع ، فيصبح هو المراد وليس الأصل .

الخامس : أن يكون هناك إضمار ، فإنه لو كان هناك مضمّر لكان هو المراد لا الظاهر .

السادس : عدم التخصيص للعام ، فإن احتمال التخصيص يخرج عن الظاهر .

السابع : أن يكون هناك احتمال للنسخ ، ولا شك أن هناك احتمالا في الجملة ، وبتقدير وقوعه لم يكن الحكم ثابتا .

الثامن : أن يكون في الكلام تقديم وتأخير ، فإن احتمال هذا في الكلام يخرج عن الظاهر .

التاسع : نفي المعارض العقليّ ، وشرح الفخر الرازي هذا بقوله : « فإنه لو قام دليل قاطع عقلي على نفي ما أشعر به ظاهر النقل ، فالقول بهما محال ؛ لاستحالة وقوع النفي والإثبات ، والقول بارتفاعهما محال ؛ لاستحالة عدم النفي والإثبات .

والقول بترجيح النقل على العقل محال ؛ لأن العقل أصل النقل ، فلو كذبنا العقل لكنا كذبنا أصل النقل ، ومتى كذبنا أصل النقل فقد كذبنا النقل ، فتصحیح النقل بتكذيب العقل يستلزم تكذيب النقل ، فعلمنا أنه لا بد من ترجيح دليل العقل ، فإذا رأينا دليلا نقليا فإنما يبقى دليلا عند السلامة عن هذه الوجوه التسعة ، ولا يمكن العلم بحصول السلامة عنها إلا إذا قيل : بَحْثْنَا واجتهدنا ، فلم نجدُها ، لكنّا نعلم أن الاستدلال بعدم الوجود على عدم الوجود لا يفيد إلا الظنّ .

فثبتَ أَنَّ التمسكَ بالأدلة النقلية مبني على مقدمات ظنية ، والمبني على الظني ظنيٌّ ، وذلك لا شكَّ فيه ، فالتمسك بالدلائل النقلية لا يفيد إلا الظنَّ»<sup>(١)</sup>.

هذه المحاولات من آثار (علم الكلام) ، الذي دخل على المسلمين ، في أول الأمر ، متأثراً بأفكار غير إسلامية ، تأثرت به الفرق المختلفة من المعتزلة وغيرهم ، واستفاد منه بعض الإسلاميين المدافعين عن القرآن والسنة معا ، للردِّ على بعض الشبهات ، ولكن كان له آثاره الضارة على العقل الإسلامي الخالص ، حتى رأينا الرجال الكبار ، مثل الإمام الفخر الرازي ، وأمثاله ممن اعتبرهم العلماء المشهورون أئمةً في الفقه ، وفي الأصول ، وفي الديانات ، يعارضون الأصول النقلية بهذه المقدمات ، التي تشكك في قطعيتها ، وتنتهي بها إلى الظنية ، وهذا لا يقبل في منطق الدين ، ولا في منطق العقل السليم .

ولهذا قام شيخ الإسلام ابن تيمية بالردِّ على الرازي ومن وافقه في هذه المقدمات ، وذلك في كتابه الكبير : (درء تعارض العقل والنقل) ، الذي ظهر في عشرة مجلدات ، وناقش فيه القضية من جذورها ، وأيدها بعلمه الغزير ، وثقافته الواسعة ، وبمنطقه القوي ، وعقله النفاذ ، الذي وفق بين صحيح المعقول ، وصريح المنقول .

### تعقيبات الرازي المهمة :

كما أننا لكي نكون منصفين ، وجدنا الإمام الرازي نفسه يعترف أحيانا بخطر هذا الكلام إذا ترك بظاهره دون تعقيب عليه .

فوجدنا الرازي يقول في أعقاب هذا الكلام في (المحصول) هذه الكلمات المهمة :

«واعلم أنَّ من الإنصاف أنَّه لا سبيل إلى استفادة اليقين من هذه الدلائل اللفظية ، إلا إذا اقترنتُ بها قرائنٌ تفيد اليقين ، سواء كانت تلك القرائن مشاهدة ، أو كانت منقولة إلينا بالتواتر»<sup>(٢)</sup>.

(١) المحصول للرازي ٤٠٤/١ ، ط . مؤسسة الرسالة ، الثالثة ١٩٩٧ م .

(٢) المصدر السابق ٤٠٨/١ .

وكذلك في كتابه : (الأربعين في أصول الدين) قال في تعقيبهِ على ما ذكره من أقوال المتكلمين ، كلاماً مهماً جداً ، يجب أن يُعرف وينقل وينشر ، لما له من أهمية وخطورة ، قال :

«واعلم أن هذا الكلام على إطلاقه ليس بصحيح ؛ لأنه ربما اقترن بالدلائل النقلية أمورٌ عُرف وجودُها بالأخبار المتواترة ، وعلى هذا التقدير تكون الدلائل السمعية المقرونة بتلك القرائن الثابتة بالأخبار المتواترة ، مفيدةً لليقين»<sup>(١)</sup>.

فهذا الكلام يقوّي موقف الرازي ، ويجعل للدلائل القرآنية مجالا في الأدلة القطعية ، وليس معقولا أن تكون العقليات وحدها هي القاطعة ، وما أنزله الله من كتاب ، ومن بعثه من رسول ، لا يفيد الناس إلا الظن ، مع قول القرآن الصريح : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس: ٣٦) . وقال عز وجل في سورة النجم : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم: ٢٨) .

#### غلاة المحدثين في مقابل غلاة المتكلمين :

وفي مقابل هؤلاء الغلاة من المتكلمين ، نجد غلاة آخرين من المحدثين ، وهم الذين يقولون : إن أحاديث الآحاد تثبت بها العقائد الأساسية ، بل يعتبرون مضمون أى حديث صحّ عندهم ، عقيدة يجب الإيمان بها ، وإن كان هذا الحديث ليس صحيحا لذاته ، وإنما صحيح لغيره ، أي بتعدد طرقه الضعيفة ، ذاهبين إلى أن حديث الآحاد الصحيح يُوجب اليقين ، أو العلم القطعي ، وخصوصا ما كان في الصحيحين أو أحدهما .

وأبرز من يمثل هؤلاء في عصرنا هو الشيخ المحدث العلامة ناصر الدين الألباني رحمه الله ، الذي اعتبر الحديث الصحيح حجةً بنفسه في الأحكام وفي العقائد جميعا .

---

(١) الأربعين : ٢٢٤-٢٢٦ .

وضرب لذلك أمثلة من العقائد اللازمة على كل مسلم ، والمأخوذة من الأحاديث التي صححها بعض العلماء أو صححها هو .

من مثل : أن «الحجر الأسود نزل من السماء أبيض ، فسودته خطايا بني آدم»<sup>(١)</sup> ، وأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء<sup>(٢)</sup> ، وإن طال الزمن .

وما الحكم إذا لم يصح عند المسلم ما صح عند الشيخ من أحاديث ؛ لأن المسلم يجدها معارضة للقرآن ، أو للعقل ، أو للعلم ، أو للواقع ؟

خذ مثلاً هذه الأحاديث التي صححها الشيخ الألباني ، وذكرها في صحيح الجامع الصغير ، حول «لحوم البقر ، وأنها داء» وحول أن «الموءودة في النار» .

---

(١) إشارة إلى حديث : «الحجر الأسود من الجنة ، وكان أشد بياضا من الثلج ، حتى سودته خطايا أهل الشرك» . رواه أحمد (٢٧٩٥) وقال مخرجه : قوله : «الحجر الأسود من الجنة» صحيح بشواهده ، وأما بقية الحديث فليس له شاهد يقوِّيه ، والترمذي في الحج (٨٧٧) وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٥٧٧) ، عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد (١٦١٦٢) وقال مخرجه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٧) ، (١٥٣١) ، والنسائي في الجمعة (١٣٧٤) ، وابن ماجه في الصلاة (١٠٨٥) ، والحاكم في الجمعة (٢٧٨/١) وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (١١٥٨) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٢٧) .

وقد أعل هذا الحديث جمع من الأئمة الكبار ، وعلته أن حسين بن علي الجعفي لم يسمع من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وإنما سمع من عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم لا يحتج به فلما حدث به حسين الجعفي غلط في اسم الجد فقال جابر .

قال ابن رجب في شرح علل الترمذي (٨١٨/٢) : بعد أن ذكر الحديث . . . هو حديث منكر ، وحسين الجعفي سمع من عبد الرحمن بن يزيد بن تميم الشامي ، وروى عنه أحاديث منكرة فغلط في نسبه . وممن ذكر ذلك البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وأبو داود وابن حبان وغيرهم .

- «عليكم بالبانِ البقر ، فإنها دواء وأسمانها فإنها شفاء! وإياكم ولحومها فإن لحومها داء»<sup>(١)</sup>.

قال الألباني في صحيح الجامع : صحيح ونسبه إلى ابن السني ، وأبي نعيم ، والحاكم ، عن ابن مسعود ، وأشار إلى أنه في كتابه (الصحيح) برقم : ١٩٤٣ .  
كيف يعتقد مسلم بمضمون هذه الأحاديث ، وهو يراها مخالفةً للقرآن وللعلم وللواقع؟!

فالقرآن يقول : ﴿ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةً الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ١) .  
وبهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم .

ويقول تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٢) .

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذُكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٤) .

فذكر هنا البقر باسمها ، ودافع عن حلها .  
وقد ضحى الرسول عليه الصلاة والسلام بالبقر ، وذبحها بيده ، وأكل منها هو وأصحابه .

وصحح الشيخ حديث : «الوائدة والموءودة في النار»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رواه الحاكم في الطب (٤/٤٠٤) ، وصححه ، وتعقبه الذهبي بقوله : «سيف» وهاه ابن حبان . وضعف إسناده ابن حجر في إتحاف المهرة (١٢٨٢٨) ، وأبو نعيم في الطب النبوي (٨٥٨) . وقال الزركشي في اللآلئ المنثورة ص ١٤٨ : منقطع وفي صحته نظر ، فإن في الصحيح أن النبي ﷺ ضحى عن نسائه بالبقر وهو لا يتقرب بالداء .  
و«سيف» : هو ابن مسكين ، قال الدارقطني : ليس بالقوي ، وقال ابن حبان : يأتي بالقلوبات والأشياء الموضوعة .

(٢) رواه أبو داود في السنة (٤٧١٧) ، وابن حبان في صفة النار (٧٤٨٠) .

ذكره في صحيح الجامع برقم : ٧١٤٢ ، وقال : صحيح ، رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وهو في المشكاة : ١٢ في ابن حبان والطبراني عن الهيثم بن كليب . وكيف تكون الموءودة في النار ، وهي طفلة لا ذنب لها ، ولا تكليف عليها يقينا ، والحديث يقول : « رفع القلم عن ثلاث : عن الصغير حتى يكبر .... »<sup>(١)</sup> إلخ . والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩) . وهو يدل على أنها لا ذنب لها ، فكيف تكون في النار ؟ ! وكيف يقبل ذلك الألباني ، ولا يجعل معارضة القرآن الصريحة ، سببا في ضعف الحديث؟! ثم ذكر الشيخ الألباني مع هذا الحديث حديثا آخر جاء في الزيادة ، هو قوله : « الوائدة والموءودة في النار ، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم »<sup>(٢)</sup> . رقم : ٧١٤٣ ، وقال عنه : صحيح ، ونسبه إلى أحمد والنسائي ، عن سلمة بن يزيد الجعفي .

ومعنى هذا أنّ الوائدة أصبح لديها فرصة تنقذها من النار ، وهي أن تسلم ، ولكن الطفلة الموءودة ليس لها سبيل إلى النجاة . وهذا ما أخذناه على بعض المحدثين في كتابنا : (كيف نتعامل مع السنة النبوية؟) ، إنهم يقررون القواعد ، ويقفون جامدين أمامها ، ولا يطبقونها بقوة وصراحة ، كما قرروا .

### موقفنا من مناقشات بعض الأقدمين حول القطعية والظنية :

لقد تفاوت البشر تفاوتًا كبيرا فيما بينهم حول القطعيّات والظنيّات ، فكثيرا ما نرى بعض الناس يعتقدون أن ما يشتغلون به من علوم الدنيا ، أو من علوم الدين هو الأمر القطعيّ ، الذي لا يجوز أن يشكك فيه أحدٌ ، ولا أن يختلف فيه الناس .

(١) رواه أحمد (٢٤٦٩٤) وقال مخرجه : إسناده جيد ، وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨) ، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢) ، عن عائشة .

(٢) رواه أحمد (١٥٩٢٣) ، وقال مخرجه : رجاله ثقات ، والنسائي في الكبرى في الصلاة (١١٦٤٩) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٦) : رجاله رجال الصحيح .

فإذا ناقشتَ هذا الأمر ، وحللتَه إلى جذوره الأولى ، لتختبر جزئياته كلها ، ومقدماته كلها ، هل هي قطعية حقا؟ وجدتها : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُهُ الظُّمُثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (النور: ٣٩) .

ولذلك لا بد لنا أن نستيقن من كل شيء ، وأن نقف على أرض صلبة ، ونعتمد على قطعيات يقينية ، لا ادعائية ، ولا يغرنا الصخب ، ولا الضجيج ، الذي تسمعه أذاننا هنا وهناك ، فيحدث هولا مُرعبا ، يخيفنا أن نجهر بالحقيقة ، وأن نواجه الباطل بالحق ، ونخاطب الهوس بالعقل ، ونحاسب الظن باليقين ، ونضرب التهريج بكلمة الصدق .

لقد رأينا للأسف من علماء المسلمين ، الذين بلغوا مراتبَ عالية في الثقافة الدينية ، وفي الثقافة الكونية والعلمية ، من يفرطون في أمر الدين ، خاضعين لمنطق الفلسفات ، التي سادت عصرهم ، فجعلوا كلام الله تعالى في كتابه المنزل ، على لسان نبيه المرسل ، في آياته المحكمات ، اللائي جعلهن الله (أم الكتاب) ، جعلوا هذه الآيات البينات ، مجرد ظواهر لفظية ، ليست قطعية ولا يقينية ، على خلاف ما هي واضحة المفهوم ، بينة المعاني ، قاطعة الدلالة ، ليس فيها أدنى غموض ، ولا مجالَ فيها لاختلاف ، أو لشبهة ، أو لاعتراض سؤال .

إننا هنا يجب أن نعود بالأمر إلى أصله ، ونرد العلمَ به إلى أهله ، ولا نترك الحقيقة تتسرب منا ، من حيث نشعر ، أو لا نشعر .

فماذا يقول علماؤنا الأفذاذ ، من القدماء والمحدثين والمعاصرين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ٧) .



ممن نأخذ علمنا و يقيننا ؟ :

ونحن نسأل هنا : عمن نريد أن نأخذ علمنا ، الذي نرجع إليه ، ونرتوي به ، ونجد فيه كل اليقين الذي نطلبه ، ونقطع به ، ولا نرتاب فيه؟ أناخذ من الذين في قلوبهم زيغ ، ممن يتبع المتشابهات ، ويركض خلفها ، ويجد فيها ضالته! أم ممن سماهم القرآن : «الراسخين في العلم» ، المتمكنين ، الذين رسخ العلم في عقولهم ، والسكينة في قلوبهم ، وظهر لهم الحق واضحا ، فلم يضربوا الأمور بعضها ببعض ، بل ردوها بعضها إلى بعض ، حتى اتضحت معالمها ، وبرزت كوامنها ، ولاحت حقائقها ، وتميز بعضها عن بعض .

إن الراسخين في العلم في أمتنا من علمائنا الكبار في علم التفسير ، وعلم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الأصول ، وعلم الكلام ، وعلم التاريخ ، وعلم السلوك ، وعلوم اللغة ، وغيرها من المعارف ، كل هؤلاء يؤكدون لنا أن القرآن هو المصدر الأول لثقافتنا الأساسية ، وهو الأساس الأول لقطعاتنا اليقينية ، من بيناته نستمد ، وعلى محكماته نعتمد ، وعلى أصوله نقيم بنياننا الفكري ، ومن قطعاته نغرس معتقداتنا الأصلية ، ومفاهيمنا الفكرية . وهو ما لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يشكك فيه متعلم ، ولا يتردد فيه مثقف . انظر إلى آيات القرآن ، تجدوها في غاية الوضوح ، ونهاية الجلاء .

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢) .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥) .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٩) .

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦) .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء: ١٣٥) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (النساء: ١٤٤) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (المائدة: ١) .

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: ٢) .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا ۗ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨) .

﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٩) .

﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(المائدة: ٥٤) .

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ  
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ  
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩) .

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾  
(الأنعام: ١٢) .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾  
(الأنعام: ١٤) .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٤) .  
﴿ أَفَغْيَرَ اللَّهُ ابْتِغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾  
(الأنعام: ١١٤) .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا  
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (الأنعام: ٣٤) .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٨) .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ  
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥) .  
﴿ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا  
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٣) .

﴿ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا  
لِبَاسَهُمَا ﴾ (الأعراف: ٢٧) .

﴿ يَبْنِيْ ءَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (الأعراف: ٣١) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣) .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَتَّبِعُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨١) .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُدًى لَّهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَنُحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨) .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٠) .

﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُوا  
فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى  
وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٣٩، ٤٠).

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ  
اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦١﴾ \* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ  
لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ  
حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٠-٦٢).

ونكتفي بهذه الآيات من كتاب الله ، فلو استمررنا في القرآن كله ، لوجدنا الآيات  
تلو الآيات كلها أضواء من الشمس في رابعة النهار ، وأوضح من كل كلام يقال  
للناس في العلم أو الحياة ، وكل هذه الآيات المبينة المجتمعة الحاشدة تعطي لكل  
من يقرأها بغير شك قضايا يقينية ، في الدين خاصة ، وفي بعض الأمور التي لها  
علاقة بالدين ، من قضايا الكون والإنسان والحياة الكبرى .

ومن هنا نحن نعجب ، ونستغرب ، أو نتوقف كثيرا ، عندما نقرأ بعض ما يقوله  
علماءنا الكبار ، من رجال علم الكلام أو الفلسفة ، مما يتضمن لونا من التشكيك  
في أوليات القرآن ومسلماته وقطعياته ، ونحن على يقين مطلق بثبوتها ودلالاتها  
القطعية التي لا يتطرق إليها أي ريبة ولا شبهة ، والحمد لله رب العالمين .

### الحقائق العلمية والنظريات العلمية عند سيد قطب :

ولم أرَ في المفسرين ، وعلماء القرآن المعاصرين ، من هو أشدَّ إيمانا بأن  
القرآن هو مصدر اليقينيَّات والحقائق ، وليس العلم ولا غيره من أدوات البشر ، من  
الشهيد العلامة سيد قطب رحمه الله ، فهو لا يسلم بما يسميه علماء الطبيعة ،  
وعلماء الكون بـ«الحقائق العلمية» ، التي يلجج بها الكثيرون ؛ لأنَّ هذه («الحقائق  
العلمية» هي - كما يقرر العلماء المحدثون كذلك - مجرد احتمالات راجحة .

وليست قطعية الدلالة ، ولا مطلقة الدلالة . إنها حقائق ظنية - بما أنها احتمالات راجحة - وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا .

فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة ، ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية ، وإنما يعتمد على نتائج قياسية ، يجري تجاربه على عدد محدود - مهما كثر - من المادة التي هي موضوع التجربة . ثم يقيس ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب ؛ لأن كل أجزاء المادة - موضوع التجربة - ليست في يده ، ولا تحت سلطانه البشرى المحدود . وكذلك ليست جميع الظروف والعوارض خاضعة لسلطانه ، ولا داخلة في علمه ، ولأن عمره - لا الفردي ، ولكن الإنساني - محدود كذلك لا يملك فيه إجراء التجربة على كل أجزاء المادة موضوع التجربة ، والإحاطة بجميع الظروف والعوامل . فهو مضطر اضطراراً أن يتخذ البرهان القياسي ، لا البرهان الإحصائي .

ومن المسلم به سواء في المنطق العقلي ، أو في العرف العلمي ، أن البرهان القياسي هو برهان ظني ، لا قطعي ، وهو برهان مقيد الدلالة ، لا مطلق الدلالة كذلك . . وذلك فضلاً على عامل « النسبية » الذي يتدخل في الموقف ، ويجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة « نسبية » لا مطلقة ، فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله سبحانه بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله ، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان ، وبحكم أنه سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهي الصفات اللازمة لعلم الحقيقة القطعية المطلقة ، وهي الحقيقة التي يقص منها في كتابه من القصص ما يشاء . . ومن ثم لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ، ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية النسبية المقيدة ، لا من ناحية الاعتقاد وحدها ، ولكن كذلك من الناحية المنهجية العلمية !

وهذه هي الأخرى . .

ثم إنه لا بد من إدراك طبيعة المنهج القرآني . فهو منهج هداية . هداية للضمير البشرى ، وللعقل البشري معا ؛ ليستقيما على منهج واضح ثابت مستقر في القواعد الكلية الأساسية .

ثم هو منهج هداية كذلك لنظام الحياة البشرية ؛ كي يصبح واقع الحياة متناسقا مع استقامة الضمير والعقل ، وبحيث يسمح هذا الواقع للضمير والعقل أن يسلكا طريقيهما في سلام واستقامة إلى ما يحبه الله ويرضاه .

و حين يستقيم نظام الحياة المادية الاجتماعية الاقتصادية السياسية الخلقية ، ويستقيم الضمير والعقل ، فإن الله سبحانه يدعُ للإدراك البشري أن يبحث وأن ينقب عن سنن الكون وقوانينه ، وأن يعرف منها ما هو مقدر له أن يعرف ؛ لينتفع به في تنمية الحياة وترقيتها ؛ وليقوم بوظيفته الأساسية ، وهي الخلافة في الأرض ، لتعميرها وتنميتها وترقيتها ، فالحقائق العلمية الكونية متروكة تفصيلاتها للإدراك البشري ، وبحثه وكده وتجربته ، وصوابه وخطئه ، ولم يتكلف المنهج القرآني بيان تفصيلاتها له ؛ لأنها داخلية في طوقه بالقدر الذي يلزم له في أداء وظيفته ، وإنما تكفل الله له ببيان أصول عقيدته ، ونظام حياته ؛ لأن علمه المحدود لا يكفي في هذا المجال الأساسي ، الذي تقوم عليه حياته .

يقول سيد قطب :

لم ينزل القرآن إذن ليكون كتابَ علوم فلكية ، أو طبيعية ، أو بيولوجية ، أو فسيولوجية ، أو طبية ، والحقائق التي وردت فيه عن مثل هذه المسائل ، إنما وردت في صورة الإشارات الكلية ، في معرض الهداية الاعتقادية ، ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الاعتقادية التي أحاطت بهذه المسائل ، وبالقدر الذي يكفي لتصحيح العقيدة ، فلا ينبغي إخراج المنهج القرآني عن طبيعته في هذا الصدد ، فإنما قيمة هذا المنهج لا تحتاج إلى مزيد من التفصيلات العلمية ! وهو قطعي الدلالة ومطلق الدلالة في موضوعه ، فلا يجوز حمله على دلالات ظنية غير قطعية ولا مطلقة ولا نهائية .

إنّ هذا لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من «الحقائق العلمية» - وليس «النظريات العلمية» قط - في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية ، ونضرب لذلك أمثلة للمنهج المأمون في الانتفاع بالكشوف العلمية في هذا المجال :

حين يقول الله سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢) .  
﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨) . ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر: ٢١) ... إلخ ، فإنه يجوز لنا أن ننتفع بما تكشفه  
البحوث العلمية من دقة النظام الكوني ، ومن الموافقات الكثيرة في تركيبه لضمان  
التناسق المطلق بين أجزائه ، ومن الضبط المطلق في حركته وفي ظواهره ، سواء في  
المجال الفلكي أو الطبيعي ، أو الحيوي ؛ لتوسعة مدى الرؤية البشرية لدلالة هذه  
النصوص ، كذلك حين يقول الله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ  
لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾  
(النحل: ٧٨) . فإنه يجوز لنا أن ننتفع بالكشوف العلمية المستحدثة ، فيما تكشف  
عنه من الدقة الباهرة ، والتعقيد المدهش في أجهزة السمع والبصر ، وفي الإدراك  
العقلي للإنسان ، لتوسيع مدى الرؤية البشرية لحقيقة هذا الذي يمتنّ الله به على  
عباده من الأجهزة الباهرة الفائقة ، التي لا يقاس إليها شيء كل ما صنّعه البشر  
من الأجهزة والمعامل ! .

ولكن حين يقول الله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (الأنبياء: ٣٠) . فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على  
نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها ، فهذه ليست سوى نظرية ،  
أي مجرد فرض ظني ، وليست نهائية في موضوعها ، بل إن هناك الآن نظريات  
أخرى تُعادلها ، وترجح عليها !

كذلك حين يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (فصلت: ١١) .  
فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية « السديم » ، فالسديم ليس إلا  
مجرد نظرية ، ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون ، التي لم  
يشهدها أحد من البشر ، ولا غيرهم من خلق الله : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (الكهف: ٥١) .



ولعل هذه الأمثلة أن توضح المنهج الصحيح المأمون في التعامل بين الإشارات القرآنية ، والنظريات والحقائق العلمية البشرية ، وفي هذا القدر كفاية ، لنخلص منه - على بصيرة - إلى النظر في تلك الإشارات الواردة في النصوص القرآنية التي نحن بصدددها .

نحن - كما أسلفنا - لا نملك تحديد مدلول الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض ، ولكنها - قطعاً - غير أيام هذه الأرض ، أو أيام أى كوكب أو نجم ، فأيام الأرض ، وأيام الكواكب والنجوم الأخرى ، إنما وُجدت بعد وجود تلك الكواكب والنجوم ، ونتيجة لدورتها .

والذي نأخذه من هذه النصوص القرآنية الأخيرة أن نشأة الأرض ، وإعدادها لاستقبال الحياة والأحياء ، وتزويدها بأقوات هذه الأحياء ، تم في أربعة أيام ، وأن نشأة السماوات وإعطائها مداراتها وأفلاكها وهياكلها ونظامها ، تم في يومين من هذه الأيام الستة ، التي لا نملك تحديد مدلولها .

وأن السماء في فترة من فترات نشأتها كانت دخاناً ، ولا نملك نحن تحديد الهيئة التي كانت عليها وهي دخان ، ولا نحب أن نحدد مدلول هذا النص بنظرية «السديم» ، التي تقول : إن هذه الكواكب والنجوم قبل تجمعها هكذا في كتل ، كانت سديمًا ، فمدلول السديم ذاته غير محدد علميًا في هذه النظرية ، وليس هناك استقرار علمي حتى اليوم على طبيعة مادة الكون الأساسية ، فبعد أن تبين سذاجة التصورات الفلسفية الأولى ، التي كانت ترجع الكون إلى العناصر الأربعة : (الماء والهواء والتراب والنار) ، اتجه التفكير إلى السديم الغامض ، ثم إلى الذرة ، حتى تبين أن الذرة ليست أصغر عنصر ، وأنها مركبة من إلكترونات وبروتونات ، وأن هذه حين تنطلق بتحطيم الذرة فإنها لا تسلك سلوكًا موحدًا ، فهي تارة تتصرف كما لو كانت حزمة من الأشعة ، وتارة تتصرف كما لو كانت إبلا من القذائف ! ومن يدري غدا ماذا يُتكشف وراء الإلكترونات والبروتونات ؟!

كذلك قد تفيد كلمة (دُخان) الحالة الغازية ، وأن السماء كانت مجرد غازات ، ولكن لا يجوز تقييدها بهذا المعنى على وجه التحديد .

والذي يخلص لنا من وراء هذا كله ، أن هناك نشأة للسموات ، كانت فيها على غير ما انتهت إليه .

### السموات في نظر سيد قطب : ولكن ما السموات ؟

(إن النصوص القرآنية تقول : إنها سبع سماوات طباق ، وأنها قائمة على غير عمد ، وأن السماء الدنيا - أي القريبة من الأرض - مُزينة بمصابيح ، فما معنى هذا؟ ما معنى السموات ؟ وما معنى أنها طباق ؟ هل معناها أنها طباق بعضها فوق بعض ، وأنّ منها سماءً قريبة من الأرض ، يظهر فيها نورُ الكواكب ، أمّا الأخرى فبعيدة ، أو ليس لها جوٌّ تنتقل فيه الأشعة ، ومن ثمّ لا يرى أهلُ الأرض نورَها ، كما يرون نورَ الكواكب الذي يخترق جوَّ كوكبهم ويرى فيه؟

أو هل يعني أنها مطابقة بعضها لبعض من ناحية التركيب والتكوين؟ وهذا العدد (سبع) ماذا يعني على وجه التحديد ؟ من المتعذر القطع بشيء في هذا الشأن . وكل ما يمكن القطع به هو أن هناك سبع كائنات ، كل منها سماء ، وأن واحدة منها هي التي نراها قريبة منا .

وقد يكون الكون الذي نتصوره نحن بتقديراتنا العلمية ، وبكل أجهزتنا ومراصدنا ، والذي يحتوي ملايين المجرات ، كل مجرة منها تحتوي ملايين النجوم كشمسنا هذه القريبة ، وأكبر منها .

قد يكون هذا كله مجرد سماء واحدة من هذه السموات السبع ، وهي السماء الدنيا ، أمّا الأكوان الستة الأخرى ، فلا سبيل لنا إلى كشف شيء منها . أمّا أنها بغير عمد ، فظاهرٌ أن النجوم والكواكب معلقة في فضاء لا يعرف الناس سعته ، وأنها قائمة هناك بقدرة الله ، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا<sup>(١)</sup>.

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ط دار الشروق القاهرة ، الأولى ١٩٨٦ م .

## رأينا فيما ذهب إليه سيد قطب :

ونحن مع ما قرره سيد قطب عن قيمة العلم الكوني ومدى قطعته ، والتشكيك في كثير مما يحسبه الكونيون من العلميين قطعيات و يقينيات ، وهو ليس كذلك . وهذا ما أكدناه من قديم في كتابنا (الإيمان والحياة) حين نقلنا عن بعض العلماء :

### نتائج العلم تقريبية لا يقينية :

إن نتائج العلم ليست - كما يظن بعض الناس - قطعية يقينية ، مائة في المائة (١٠٠٪) وبصورة دائمة ، فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة في كثير من نتائج العلم ، ذلك أن أساس العلم هو التجربة ، والتجربة أساسها الحس ، والحواس كثيراً ما تُخدع ؛ وهذا ما أقرّ به المحققون من العلماء .

يقول عالم أمريكي معاصر هو الأستاذ «ماريت استانلي كونجدن» في مقال له «إن العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ، ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته ، وأوصافه ، واستنتاجاته .

ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ ، وهي تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات كذلك ، وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ، ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل والإضافة والحذف وليست نهائية»<sup>(١)</sup>.

وتاريخ العلم يبين لنا أن كثيراً من الآراء التي كانت في بعض العصور حقائق علمية ، لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل الشك ، دار عليها الفلك دورته ، فإذا هي في عصور تالية أغاليط وأباطيل ، لا يقوم عليها برهان ، ولا شبه برهان .

---

(١) من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ، لنخبة من العلماء الأمريكيين ، مقال : «درس من شجيرة الورد» ، دار القلم بيروت ، ص ٢٤ .

بل إنّ بعض العلوم الأساسية قد تغيرت أسسها ، وتبدلت موازينها ، كما رأينا ذلك في قرننا العشرين .

يقول الكاتب التركي الأستاذ «بيامي صفا» في بحث له عن «المفهوم الجديد للإنسان»<sup>(١)</sup> :

« إنّ إنسانَ القرن العشرين يعيش في أزمة منذ أن بدأ يدرك خطأ هذا المعنى الذي أضفاه على نفسه ، منذ نهاية القرون الوسطى ، أي بدأ يدرك خطأ «تأليه» نفسه . وما حركات التجديد في العصر الحديث إلا بداية للنفور الموجه إلى هذا المعنى .

فقد عرف الإنسانُ عدم كفاية العلم الذي أراد أن يضعه مكان الدين ، ومكان موازين القيم المعنوية ، فلقد شهد العلم نفسه انهيارَ أساسين وقاعدتين من قواعده ، هذين الأساسين اللذين كانا بمثابة البداة حتى نهاية القرن الماضي . فكما قال «أورتاكاوي كست» في اجتماع جنيف : بأن الفيزياء والمنطق اللذين هما أساسا العلم - العلم الذي قام عليه بناء المدنية الغربية - قد هَدَمَا نفسيهما ، بنفسيهما : « إنّ فجاعة الدراما ربما لا تكون ظاهرة لكل عين ، لأنّ عينَ غيرِ الخبيرِ لا تكشف في قطرة دم تحت الميكروسكوب علاماتِ مرضٍ قاتل .

ولكنّ كل خبير يستطيع أن يقدر بأن الوضع الذي سقط فيه المنطق والفيزياء اليوم لهو أبلغ في الإشارة إلى الأزمة التي تعانيها مدنيتنا من جميع فجائع السياسة والحرب ، لأن هذين العلمين كانا بمثابة الصندوق الذي يخبئ فيه الغربيون فائضهم من الذهب ، استعداداً لاستقبال الأيام المقبلة بأمن وطمأنينة .

وبعد أن شرح العالم الشهير كيف غيرَ الفيزياءُ أساسه ، وكيف أن المنطق - في ظرف خمسين سنة بواسطة أبحاث ودراسة «رسل» و «وايتهيد» و «هليبرت» - قد غيرَ أساسه أيضاً ، تابع كلامه : « إن مدنيتنا أصبحت تعلم الآن أنّ أسسها في

---

(١) عن مجلة «المسلمون» ٨٢٠ - المجلد الثامن العدد الثامن ذو الحجة ١٣٨٣ هـ - أيار (مايو) ١٩٦٤ م . ترجمة الأستاذ أورهان محمد علي .

حالة إفلاس ، ولذلك نراها تشك في نفسها ، ولكن ليس من الممكن أن تموت حالاً أية مدنية لمجرد هزة شك ، وإنما على العكس فإنني أرى أن المدنيات لا تموت إلا من تصلب المعتقدات وتحجرها . وكل هذه تشير إلى أن شكل مدينتنا ، أو بالأصح شكل المدنية التي يبجلها الغرب قد جفّ وانتهى»<sup>(١)</sup> .

ولكننا نعتقد أنه يوجد بعض اليقينيات الكونية التي لا نشك في قطعيتها ، ولا نرتاب فيها بحال ؛ لأنها لا تحتل غير ما بدا لنا ، وأدركناه بعقولنا ، واجتمعت عليه كلمتنا .

انظر مثلاً : إذا قلت : إن القدماء أخطؤوا في اعتبار الماء عنصراً طبيعياً واحداً ، وإنه ثبت أنه مركب كيماوي من عنصرين طبيعيين ظهرا عند التحليل للماء ، هما الأكسوجين والهيدروجين فهذه حقيقة علمية اكتشفها علم البشر ، وقامت عليها تطبيقاتهم وسلوكياتهم .

ومثل ذلك ما كان يعتقد الفلاسفة والعلميون الكبار قديماً من أن التراب مثل الهواء والنار ، كلها عناصر أولية ، ثم اكتشف الإنسان بوسائله وبإمكاناته خطأ النظرية القديمة القائمة على أن الدنيا كلها تتركب من عناصر أربعة طبيعية فقط ، هي : الماء والهواء والتراب والنار ، ثم عرف الإنسان خطأ ذلك كله ، وأن كل واحد من هذه الأربعة ليس مفرداً كما كان يظن ، وإنما هو مجموعة من العناصر ، عرفها العلماء وحللوها ، واستفادوا منها .

ومثل ذلك : ما كان يعتقد كثير من المتعلمين ، من أن الأرض مبسطة ، وأنها واقفة ثابتة والشمس تجري حولها لمستقر لها ، وكان المسلمون في كتبهم يعتقدون أنها كروية ، وأقاموا على ذلك الأدلة العلمية والعقلية ، ثم أصبح ذلك حقيقة كونية ثابتة بالملاحظة التي لا تكذب ، والناس يطوفون حولها بالطائرات وغيرها ، فهذه من الحقائق الكونية الجازمة والثابتة التي لا يجوز التشكيك فيها أو في ثبوتها بحال .

---

(١) من كتابنا (الإيمان والحياة) ص ٣٠١-٣٠٢ ، ط مكتبة وهبة ٢٠٠٧ م .

وهناك أشياء ، وحقائق كثيرة من هذا النوع ، لا أظن مفكرنا سيد قطب رحمه الله يرتاب فيها أو في قطعيتها ، ولو قال ذلك ، لاستحق أن نخالفه ، فنحن أيدناه بالحق للحق ، ولا مانع أن نخالفه أيضا للحق بالحق .

### أهمية النصوص القطعية في التفسير :

كما أن النصوص القطعية يُستفاد منها في تفسير القرآن ، حيث يعتبر الاعتصامُ بها من المعالم البارزة ، والضوابط المهمة ، لحسن الفهم عن الله ورسوله ، فمن تمسك بها لا يزيغ أبداً .

وهذا الضابط يكمل ضابطاً آخر ويعضده ، وهو رد المتشابهات إلى المحكمات .

وأعني بالنصوص القطعية هنا : ما اجتمع فيه الأمران : قطعية الثبوت ، وقطعية الدلالة .

وقطعية الثبوت إنما تتحقق في القرآن الكريم ، والمتواتر من الأحاديث ، وما يلحق بالمتواتر من أحاديث الصحيحين ، التي تلقىها الأمة بالقبول ، واحتف بها من القرائن والدلائل ، ما يرفعها من مرتبة الظن - الذي هو الأصل في أحاديث الآحاد - إلى مرتبة القطع واليقين .

فالأصل في قطعي الثبوت أن يكون من القرآن ، والقليل من السنة ، فمن المقرر المعلوم أن جمهرة السنة من أحاديث الآحاد .

أما قطعية الدلالة ، فنعني ألا يحتمل النص إلا تفسيراً واحداً ، ووجهاً واحداً ، بحكم وضعه اللغوي أو الشرعي ، أو بدلالة القرائن المُحتفة به ، التي تزيل أي احتمال لفهم آخر .

ومن هذه القرائن والدلائل : إجماع الأمة على هذا الفهم ، واتفاق طوائفها ومذاهبها عليه .

فقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩١، ٩٠) . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠، ٩١) .

يدلّ بطريق القطع واليقين على تحريم الخمر والميسر ، بدليل الأمر بالاجتناب (الذي لا يذكر في القرآن إلا مع الأوثان ، والطاغوت والكبائر)<sup>(١)</sup> وترتيب الفلاح عليه ، وقرنها بالأنصاب والأزلام ، وجعلها رجساً من عمل الشيطان ، مع بيان بعض آثارها الروحية والاجتماعية الضارة .

ولا غرو أن أجمعت الأمة على تحريم الخمر ، بل على اعتبارها من الكبائر ، فلا مجال لمُماحكٍ يُمارى بالباطل ، لِيُشَكَّكَ في هذا التحريم القاطع ؛ لأن القرآن لم يذكر لفظ « التحريم » صراحة ، بل « الاجتناب » .

وقد ردّدنا على هذا الهراء الباطل في بعض كتبنا فلتراجع<sup>(٢)</sup> .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧٩) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩) .

(١) مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ (الزمر: ١٧) . وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ تَجَتَّبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (النساء: ٣١) . وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (الشورى: ٣٧) .

(٢) انظر : كتابنا « فتاوى معاصرة » : ١/ ٦٤٤-٦٤٨ تحت عنوان « تحريم الخمر من قطعيات الدين » نشر دار القلم - الطبعة السابعة ١٩٩٨ .

فهذا دالٌّ على تحريم الربا تحريماً شديداً ، بهذه الألفاظ الزاجرة الهائلة ، وهو ما لا خلاف عليه ، كما لا خلاف بين الأمة على تحريم « ربا النسيئة » وهو : الزيادة المشروطة على رأس المال في مقابل الأجل ، وإنما الخلاف بين الأمة فيما عُرِفَ باسم « ربا الفضل » وهو ربا البيوع ، وهو محرّم بالحديث سداً لذريعة الربا الحقيقي ، الذي هو ربا النسيئة ، فتحريمه هو تحريم الوسائل ، لا تحريم المقاصد ، كما بين ذلك الإمام ابن القيم في « إعلام الموقعين »<sup>(١)</sup> . وتسمية هذا النوع « ربا » تسمية مجازية ، كما قال شيخنا دراز رحمه الله<sup>(٢)</sup> . فلا محلّ لمقول مجترئ يزعم أن « الربا » الذي آذن الله مرتكبيه بحربٍ من الله ورسوله ، والذي لعنَ آكله ومؤكله وكاتبه وشاهداه ، على لسان محمد ﷺ ، لم يكن معلوماً للأمة ، وأن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين من جميع المذاهب ، الذين حرّموا ربا النسيئة ، أخطؤوا الفهم عن الله ورسوله ، وقالوا في الدين بغير علم ، وحرّموا ما أحلَّ الله ، افتراءً على الله ، أو أن الرسول ﷺ لحق بربه ، ولم يقم بما أوجب الله تعالى عليه ، من بيان ما أنزل إليه للناس ، فكأن هؤلاء يتهمون الرسول الكريم بالخيانة في التبليغ عن ربه ، أو التقصير في بيان ما نُزِّلَ إليه ، أو يتهمون الأمة كلها بالغباء والجهالة ، ففهمت عن الله ورسوله غير ما أراداه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! والعلماء متفقون على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ، فكيف بتركه بالكلية؟! .

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا : أن النصّ الواحد ، قد يتضمن عدّة أحكام ، بعضها قطعي في دلالاته ، وبعضها ظنيّ ، فلا يجوز اتخاذ الجزء الظني في النصّ دليلاً على إنكار القطعي منه .

فقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨) .

(١) انظر : الإعلام : ١٣٥/٢ - ١٤٦ ط . السعادة بمصر .

(٢) انظر : دراسات في الإسلام - الربا بين الإسلام والقانون الوضعي .



يدل جزماً على وجوب قطع اليد من السارق والسارقة ، ولا احتمال فيه بوجه من الوجوه أن يكون هذا الأمر للاستحباب ، ولا احتمال لأن يكون قطع اليد مجازياً ، على نحو ما قال بعضهم في شاعرٍ هجاه : اقطع لسانه ، أي بالعطاء والنوال . كما زعم ذلك بعض المعاصرين ، الذين يستشنعون إقامة الحدود ، تأثيراً بالفكر الغربي .

ولكن أي يد تُقطع؟ ومن أين تُقطع؟ وما النصاب - أو الحد الأدنى من المال - الذي تُقطع فيه؟ وما الشروط اللازمة لإقامة الحد؟ وما الشبهات التي تدرؤه؟ هذه التساؤلات والإجابة عنها ، تدخل في الدلالات الظنية للنص ، وهي معترك الأفهام بين الفقهاء ، ولكل فيها رأيه ، واجتهاده ، وترجيحه ، في دائرة الأصول المرعية ، والقواعد المتبعة .

ومن المؤكد : أن النصوص القطعية - ثبوتاً ودلالة - لا تُناقض القواطع العقلية ، ولا اليقينيّات العلمية بحال ، كما لا يمكن أن تُناقض المصالح القطعية للناس . أما قواطع العقل والعلم ، فلأن القطعيات لا يُناقض بعضها بعضاً ، وإلا لم تكن قطعيةً ، وهو خلاف المُفترض ؛ وما يُظن من تناقض في ذلك ، فلا بد أن يكون أحد الطرفين - من الدين أو العقل - أُدخل في دائرة القطع واليقين خطأً ، وهو لا يعدو دائرة الظن .

وأما المصلحة القطعية ، فلا يمكن أن تُناقض النصَّ القطعي أو يُناقضها بحال ؛ وهو ما أكده علماء الأمة قديماً وحديثاً .

وإذا توهم هذا التناقض ، فلا بد من أحد أمرين :

إما أن تكون المصلحة مظنونة ، أو موهومة ، مثل مصلحة إباحة الربا لطمأننة الأجانب ، أو إباحة الخمر لاجتذاب السياحة ، أو إباحة الزنى للترفيه عن العُزَّاب ، أو إيقاف الحدود ، مراعاة لأفكار العصر !! أو غير ذلك مما يموّه به مموّهون من عبيد الفكر الغربي .

وإما أن يكون النص الذي يتحدثون عنه غير قطعي ، وهو ما وقع فيه كثير من الباحثين ، ولا سيما من غير المتخصصين والمتضلعين من علوم الشريعة وأسرارها ، فحسبوا بعض النصوص قطعية ، وليست كذلك .

ومن أمثلة ذلك : أن العلامة الشيخ محمد أبا زهرة ، ذكر في كتابه عن «الإمام أحمد بن حنبل» عندما تحدّث عن رأي نجم الدين الطوفي (ت ٧١٦هـ) في تقديم المصلحة على النص إذا تعارضا ، فقال : «إنه لا يمكن أن يكون ثمت تعارض بين مصلحة يقينية ، ونص قطعي»<sup>(١)</sup> .

### تعليق الدكتور متولي على كلام الشيخ أبي زهرة :

وعلق الدكتور عبد الحميد متولي أستاذ القانون الدستوري المعروف في كتابه «مناهج التفسير في الفقه الإسلامي» على كلمة الشيخ أبي زهرة بقوله : الواقع أن هذا القول - فيما نعتقد - لا يتفق مع الواقع ، ومع ما كان يراه بعض كبار الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، بل ولا مع ما كان يراه الرسول ذاته .

«فالرسول نهى عن قطع يد السارق في زمن الحرب ، خشية أن ينتقل السارق إلى صفوف الأعداء هرباً من القصاص ؛ الأمر الذي يدل على أن الرسول رأى أن النص القرآني المعروف (الذي يقضي بقطع يد السارق) لم يكن يتفق تطبيقه في تلك الحالة (حالة الحرب) مع المصلحة .

«وعمر بن الخطاب لم يطبق نص الآية القرآنية المعروفة التي وردت بشأن إعطاء الصدقات إلى «المؤلفة قلوبهم» ؛ لأنه وجد المسلمين ، لم يعودوا بحاجة إلى المعضدين والمؤيدين من تلك الطائفة ، ومن ذلك نرى أنه لم يطبق النص لزوال حكمته ؛ أو بعبارة أخرى : وجد أن تطبيق النص أصبح في عصره لا يتفق مع المصلحة»<sup>(٢)</sup> اهـ .

(١) انظر «ابن حنبل» لأبي زهرة ص ٣١٠ - ٣١٣ .

(٢) انظر : «مناهج التفسير في الفقه الإسلامي» للدكتور متولي ، نشر شركة عكاظ بالسعودية - ط . أولى ص ٩١ ، والكتاب يحمل عنواناً كبيراً ، لم يتأهل له مؤلفه بما ينبغي من عدة ، ولهذا اضطربت آراؤه ، وخف ميزانه ، ومن أراد أن يقرأ في الموضوع فليرجع إلى ==

والواقع أن تعليق الدكتور متولي ، على شيخنا أبي زهرة ، في غاية الخلل والاضطراب وسوء الفهم ، فهو يجعل بيان الرسول ﷺ للنص القرآني من باب تعارض المصلحة مع النص ، ونسي أن مهمة الرسول - بنص القرآن ذاته - أن يبين للناس ما نزل إليهم ، وأن من هذا البيان تخصيص العام ، وتقييد المطلق بإجماع العلماء كافة .

وقد بين الرسول بالنسبة للنص القرآني في حد السرقة : النصاب الذي يوجب القطع ، فلا قطع في أقل من ربع دينار ، أو فيما دون ثمن المجن ، ولا قطع فيما يؤخذ من غير حرز ، كالذي يؤخذ من الحقول للأكل ، ولا قطع فيمن أخذ من مال ابنه أو ابنته لقوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »<sup>(١)</sup> ويقاس عليه كل من سرق من مال له فيه حق . والقطع إنما يكون لليد اليمنى ، ومن الرُّسْغ ، لا من المِرْفَق ، ولا من العَضْد ، . . . إلى آخر ما جاءت به السُّنَّة مبينة للقرآن ، وكان من ذلك : نهيه ﷺ أن تقطع الأيدي في الغزو<sup>(٢)</sup> .

فكيف اعتبر الباحث هذا الأمر وحده معارضة للنص باسم المصلحة؟ وهل يعتبر الدكتور متولي النص من القرآن وحده؟ أم يشمل النص من الحديث النبوي أيضاً؟

---

= كتاب الدكتور محمد أديب صالح « تفسير النصوص في الفقه الإسلامي » في مجلدين ، وهو دراسة جادة متخصصة حصل بها على الدكتوراه من جامعة القاهرة ، وأثنت عليها لجنة المناقشة ثناء طيباً ، طبعة المكتب الإسلامي في بيروت .

(١) رواه أحمد (٦٩٠٢) وقال مخرجوه : حسن لغيره ، وأبو داود في البيوع (٣٥٣٠) ، وابن ماجه في التجارات (٢٢٩٢) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٦) ، عن عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه أبو داود (٤٤٠٨) ، والترمذي (١٤٥٠) وقال : حديث غريب ، كلاهما في الحدود ، والنسائي في قطع السارق (٤٩٧٩) ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٦٠١) ، عن بسر بن أرطاة .

فما ذكره في هذا المقام لا يدخل في باب التعارض قطّ ، لا بين نصٍّ ومصلحة ، ولا بين نصّين ، بل هو من باب بيان السُّنة للقرآن<sup>(١)</sup>.

أما ما ذكره الدكتور متولي عن موقف عمر من «المؤلفة قلوبهم» وأنّه عطّل النص لتعارضه مع المصلحة في عصره ، فهذه دعوى عريضة على ابن الخطاب رضي الله عنه ، فهو لم يعطل نصّاً ، وما كان له أن يفعل ، ولا يملك هو ولا غيره ذلك . وما قاله الدكتور هنا ترديد لقول أناس سبقوه . لم يعطوا الموضوع حقه من الدرس والتأمل .

وقد ردّدنا على ذلك في بعض كتبنا ، ولا بأس أن نضع هنا شيئاً منها ، يستلزمه هذا الكلام .

### الرد على هذه الدعوى :

لقد ردّ كثيرون من أهل العلم والفقه على هذه الدعوى العريضة ، التي تنتهي إلى تجميد النصوص ، بل إلى إلغاء شريعة الخالق بأهواء المخلوقين . ولكنّي أكتفي هنا برّد عالم واحد متمكّن ، هو العلامة الشيخ محمد المدني ، أحد كبار علماء الأزهر وأدبائه وكتابه ، وعميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، رحمه الله .

### رد الشيخ محمد المدني :

ردّ الشيخ محمد المدني رحمه الله على هذه الدعوى في أثناء ردّه على مقالة اللباييدي المثيرة في مجلة (رسالة الإسلام) حيث أصدر رسالة صغيرة مركّزة في الردّ عليه تحت عنوان (السلطة التشريعية في الإسلام : بحث على بحث) . كما ردّ الشيخ أيضاً على هذه الدعوى في إحدى مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر تحت عنوان (نظرات في فقه عمر) والتي نشرت أخيراً في كتاب تحت عنوان

---

(١) ومما يدخل في بيان السُّنة للقرآن هنا : اعتبار التوبة مسقطة للحق ، كما رجح ذلك ابن تيمية وابن القيم . انظر : إعلام الموقعين : ١٩/٣ - ٢٢ - ط . السعادة .

(نظرات في اجتهادات الفاروق عمر بن الخطاب) <sup>(١)</sup> ومن هذا الكتاب نقبس هذه الكلمات المضيئة بنور الحق والدليل .

يقول رحمه الله : إِنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ : أَنَّ عَمَرَ وَالصَّحَابَةَ الَّذِينَ وَافَقُوهُ ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، لَمْ يَخْرُجُوا عَنْ دَائِرَةِ النَّصِّ ، وَلَمْ يَعْلَقُوهُ ، وَإِنَّمَا فَهَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا قَالَ : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أثبت لفريقٍ من الناس نصيباً من الزكاة بوصف معين هو مناط الاستحقاق ، ووجوب الإعطاء ، ذلك هو كُونُهُمْ « مُؤَلَّفَةُ قُلُوبِهِمْ » .

ولما كان التأليف ليس وصفاً طبيعياً يحدث للناس كما تحدث الأعراض الطبيعية ، بل هو شيء يقصد إليه ولي الأمر ، إِنْ وَجَدَ الْأُمَّةَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَيَتْرَكُهُ إِنْ وَجَدَهَا غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ إِلَيْهِ ، فَإِذَا اقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةُ أَنْ يُؤَلَّفَ أَنْاسٌ وَأَلْفَهُمْ فَعَلَا ، أَصْبَحَ الصَّنْفُ مَوْجُوداً فَيَسْتَحِقُّ ، وَإِذَا لَمْ تَقْتَضِ الْمَصْلَحَةُ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَتَأَلَّفْ أَحَدًا ، فَإِنَّ الصَّنْفَ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَعْدُومًا ، فَلَا يَقَالُ : (إِنَّهُ مَنَعَهُ) ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مَعَنَا أَحَدٌ يَجْرِي عَلَيْهِ الضَّمِيرُ الْبَارِزُ فِي « مَنَعَهُ » .

وبذلك يتبين أن النص لم يُعْطَلْ ولم يُعْلَقْ ، وَإِنَّمَا الْمَحَلُّ هُوَ الَّذِي انْعَدَمَ ، فَلَوْ أَنَّ ظَرْفًا مِنَ الظُّرُوفِ عَلَى عَهْدِ عَمَرَ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، قَضَى بِأَنْ يَتَأَلَّفَ الْإِمَامُ قَوْمًا فَتَأَلَّفَهُمْ ، لِأَصْبَحَ الصَّنْفُ مَوْجُودًا ، فَلَا بَدَّ مِنْ إِعْطَائِهِ .

وقد يرد على هذا : أَنَّ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ كَانُوا مَوْجُودِينَ فَعَلَّا عَلَى عَهْدِ عَمَرَ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَأَلَّفَهُمْ ، فَعُمِرَ مَنَعُهُمْ مَعَ وَجُودِهِمْ ، فَلَا يَقَالُ إِذَنْ : إِنْ عَدِمَ الْإِعْطَاءُ لَعَدَمَ وَجُودِ الصَّنْفِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَعْنَى مَصْلَحِي قَدَرِهِ عَمَرَ ، وَهُوَ : أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَعَزَّهُ اللَّهُ ، وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ سَبَبٌ لِلتَّأْلِيفِ ، وَهَذَا يَتَّفَقُ مَعَ مَا يَقْرَرُهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، مِنْ أَنَّ إِعْطَاءَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، حُكْمٌ مَعْلَلٌ بِحَاجَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى التَّأْلِيفِ ، فَإِذَا انْتَفَتْ عِلَّتُهُ انْتَفَى ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمَعْلَلُ ، يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا .

---

(١) نشرتها دار النفائس ، ودار الفتح في بيروت .

قد يرد علينا هذا ، وربما كانت عبارة عمر المروية في هذا الشأن ، وهي قوله :  
« إن الله قد أعزّ الإسلام ، وأغنى عنكم » مؤيدة لهذا الإيراد .

ونقول في الردّ على ذلك : إن قول عمر للمؤلفة قلوبهم ، الذين كانوا يأخذون على عهد رسول الله ﷺ : « إن الله قد أعزّ الإسلام وأغنى عنكم » معناه أن رسول الله ﷺ قد أَلَف قلوبكم لمصلحة الإسلام ، فصار لكم هذا الوصف ، وصف « المؤلفة قلوبهم » فأعطاكم ، لكن هذا الوصف لم يستمرّ لكم إلى الآن ؛ لأن الإسلام قد عزّ واستغنى ، فزالت الحاجة إلى التأليف ، فلم يبقَ بيننا « مؤلفة قلوبهم » بمعنى أنهم موصوفون بهذا الوصف الآن ، وإن كانوا « مؤلفة قلوبهم » باعتبار ما مضى .

وهذا الوصف مما يتغيّر ويتبدّل كوصف الفقر ، فقد يكون المرء فيما مضى فقيراً ، فيكون له في الزكاة نصيبٌ ، ثم يصبح غنياً فلا يكون له فيها نصيب .

ولا ينبغي أن يتوهم أن هؤلاء الناس استحقوا هذا الوصف إلى آخر عمرهم ، أو أن الإمام يجب أن يعدّهم كذلك إلى آخر عُمرهم ، وإنما الأمرُ أمرٌ تقدير المصلحة في نظر الإمام ، فإن أدّاه اجتهاده إلى أن يتألف أعطى ، وإلا فلا .

وإذن فليس معنًا نصٌّ وقف العملُ به أو علّق ، أو نُسخ أو عدّل ، ولكن معنًا نصٌّ معمول به ؛ لأن معناه مقيدٌ من أوّل الأمر بالقيّد الطبيعي ، الذي لا يعقل انفكاكه عنه ، كأنه قيل : (والمؤلفة قلوبهم إن وجدوا) ، كما يقال مثل هذا في الفقراء والمساكين مثلاً ، إنما الصدقات للفقراء إن وجد فقراء ، والمساكين إن وجد مساكين ، وفي الرقاب إن وجدت رقابٌ مملوكة .

فإذا كان هناك من يريد أن يحاول أن يجادل عمر رضي الله عنه في أن التأليف ، أي إيجاد صنف المؤلفة قلوبهم ، واجبٌ على الإمام في كل حال ، فهذا جدال في موضع من مواضع الاجتهاد ، وليس في محلّ النص ، والفرق بين وجوب التأليف ، ووجوب إعطاء المؤلفة قلوبهم حين يكون هناك تأليف واضح ، فالأوّل : أمر

مصلحي يختلف فيه النظر ، والثاني : حكم نصي لا يمكن التصرف فيه بالإبطال ، أو التعديل ، أو التعليق .<sup>(١)</sup> انتهى كلام الشيخ المدني .

### تعليق الشيخ الغزالي :

ويعلق الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله على موقف عمر فيقول :  
« فهم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص : خطأ بالغ ، فعمر حرّم قومًا من الزكاة ، لأن النص لا يتناولهم ، لا لأن النص انتهى أمده .

هب أن اعتمادًا ماليًا في إحدى الجامعات خُصص للطلبة المتفوقين ، فتخلف في المضمار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم ، فهل يُعدُّ حرمانهم إلغاءً للاعتماد؟! إنه باقٍ يصرف منه من استكملوا شروط الصرف .

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل ، تألفًا لقلوبهم ، أو تجنبًا لشروورهم . . . أبعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتألف حفنة من رجال القبائل الطماعين؟ ليذهبوا إلى الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من سائر المسلمين؟!<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

---

(١) من كتابنا : (السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها) ص ١٧٥-١٧٧ ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

(٢) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ٤٤ ، ٤٥ ط دار الأنصار بالقاهرة .





(٨)

## تيارات الفكر الإسلامي الأصيل هل لها قدرة على التحول والتعديل والتغيير؟

ومما ينبغي أن يكون موضع البحث هنا : الجواب عن سؤال مهم ، وهو : هل تقدر تيارات الفكر الإسلامي الأصيل على التحرك والنمو؟ وهل تستطيع في مسيرتها أن تعدّل أو تغيّر ، فتنتقل من سلب إلى إيجاب ، ومن إيجاب إلى سلب؟ أم إن طابع هذه التيارات هو الجمود الذي لا يقبل التطور ، والثبات الذي يرفض التغيير؟

والذي نجيب به ، ونحن مطمئنون : أن هذا التيار تيار حيّ متحرّك ، وما دام حيّاً متحرّكاً ، فهو قادر على النمو ، وعلى التغيير ، وعلى التطور ، مثل كل الكائنات الحية العاقلة .

وإذا كان الفكر موصولاً بالدين ، فالدين لا يمكن أن يجمّد الفكر ، بل هو يعطيه قوّة ، ويمنحه قُدرة على الأخذ والرد ، والجذب والشد ، والمجادلة والمصاولة ، والتفكير المجرّد ، التفكير للوصول إلى الحق ، التفكير بإخلاص لله ، كما يقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ: ٤٦) .

فالله تعالى يأمر رسوله أن يعظ أمته بموعظة واحدة ، يوصيهم بهذه الوصية الفذة : أن يقوموا لله ، أن ينهضوا ويتحركوا ، ولا يقعدوا ويناموا ، وأن يثوروا من مقاعدهم ومضاجعهم لله ، أي : مخلصين لوجهه ، لا طلباً للدنيا ، ولا للمال ، ولا للجاه ، ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، أن يقوم الواحد مع صديقه ورفيقه وزميله ، أو وحده بعيداً عن (العقل الجمعيّ) ثم يتفكّر - أو يتفكرا - التفكير الحر ، غير مربوط بماض ، ولا بمجتمع ، ولا بأفكار سابقة .

وهذا أقصى ما يطالب به دين فرداً من الأفراد ، أو جماعة من الناس ، أو أمة من الأمم .

وقد رأينا في تيارات الفكر الإسلامي ، وبين كبار العلماء المستقلين ، تحرُّكات إيجابية في تفكيرهم ، وتنقُّلات في الساحة العقلية ، بعضها يُعتبر تنقُّلات كبيرة ، بهرت الناظرين ، وبعضها يوشك المخالفون ألاَّ يصدقوه ، مع أنَّه أمر واقع ، ما له من دافع .

### ● تغير إمام الحرمين :

وأبرز مَنْ نرى فيهم التغيُّر الفكري ، الذي هزَّ العالم مِنْ حوله . هو تغيُّر العقل الكبير ، عقل الرجل الأشعري البارز ، الذي كان له صولاته وجولاته ، في ميدان الكلام ، وفي مجال الفقه ، وأصول الفقه ، وهو الذي إذا قال الشافعية : (الإمام) في علم الفقه ، لا ينصرف هذا اللقب إلا إليه .

إنه إمام الحرمين ، صاحب الكُتب الكلامية الشهيرة في علم الأشاعرة : (الإرشاد) ، و(الشامل) ، و(اللُّمَع) التي تمثِّل المرحلة الأولى من مراحل علم الكلام عند الإمام . ثم تبدأ المرحلة الثانية والأخيرة بكتابين هما : (البرهان) في أصول الفقه ، وهو عمل لا سابق له غير رسالة الشافعي ، و(العقيدة النظامية) في علم الكلام .

وله في الفقه كتابه الفريد ، الذي سبقَ به مَنْ قبله ، وأعجزَ به مَنْ بعده ، إنه (نهاية المطلب في دراية المذهب) ، الذي حققه وعلَّقَ حواشيه أخونا العلامة الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب ، عليه رحمة الله .

### ● تغير الغزالي :

وكذلك تغيُّرات تلميذه ، حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، الذي اتَّفَق المسلمون على أنه مُجدِّد القرن الخامس الهجري ، كما قال السيوطي في رجزيته :

والخامسُ الخَبْرُ هو الغزالي وعده ما فيه من جدال

وقد بدأ الغزالي بما بدأ به علماء الأمة ، فأتقَنَ علوم الفقه ، والأصول ، والكلام ، والملل والنحل ، والفلسفات المختلفة ، واعترف هو أن بضاعته مزجاة في علم الحديث ، ودرس الفلسفة اليونانية ، ولخصَّها في كتابه (مقاصد الفلاسفة) ، ثم ردَّ عليهم في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، مركزاً على عشرين مبدأً من مبادئهم ، فخطأهم في سبعة عشر منها ، وكفَّهم في ثلاثة :

- أن العالم قديم ولم يخلقه الله .
- وأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات في هذا الكون .
- وأن البعث الأخروي بعث روحاني لا جسماني ، ولا توجد جنة ولا نار ، بالصورة التي يتصورها ويصورها المسلمون .
- ورد الغزالي على الباطنية ، وبيّن أن ما قالوه : ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

ثم بعد ذلك ترك الغزالي هذا كله ، وهجر الناس ، وترك الإمامة والأستاذية ، ومال إلى طريقة المتصوفة ، وأعجب بهم ، وألف في طريقتهم (إحياء علوم الدين)، وما يتعلّق به من كتب التصوف .

وقد سجّل ذلك الغزالي في كتابه الرائع (المنقذ من الضلال) ، ولكنني هنا لن أتحدّث عن الإمام الغزالي ، ومراحل فكره وتنقله ، وأكتفي هنا بذكر شيخه وإمامه : إمام الحرمين الجويني .

### ● ماذا عن التطور الفكري عند إمام الحرمين ؟

نذكر هنا ما أتحفنا به قلم الدكتور محمد عبد الفضيل القوصي ، في كتابه أو كُتِبَ : (تطور الفكر الكلامي عند إمام الحرمين الجويني) ، وهو دراسة موجزة ، ولكنها قيّمة ، ومما قال فيها :

(لقد احتفظ لنا التراث الأشعري المدوّن - لحسن الطالع - ببعض الملامح التي يمكن أن نستشفّ منها مجرى التطور الفكري عند الجويني ، على نحو ربما يماثل ما نجده لدى الرازي ، بل احتفظ لنا ذلك التراث بما برح يُحدّثه هذا التطور من ردود الأفعال المتعاقبة ، التي تراوحت ما بين المدح والقدح ، والاستحسان والاستهجان ، لكنها - على أية حال - ملامح شحيحة ، لا وجه لمقارنتها بتجربة الغزالي ، التي تكفل هو نفسه بوصف شعابها ومنعرجاتها . على أن هذا التطور عند الجويني يثير من الإشكالات والاحتمالات بقدر ما يحمل من الحلول والإجابات ، وهذا شأن إمام الحرمين .

ألم يكن - كما قال التاج السبكي<sup>(١)</sup> - : « لا يخلّي مسألة عن إشكال ، ولا يخرج  
إلا عن اختيار يخترعه لنفسه ، وتحقيقات يستبدّ بها » ؟

يُبدَأُ الحديث عن التطوُّر الفكري - سواء عند الجويني ، أو عند غيره -  
لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا رُتِّبَت المصنِّفاتُ ترتيباً متدرّجاً ، بحسب زمان  
تصنيفها حتى يتبيّن السابق من اللاحق ، فبدون هذا الترتيب الزمني : يكون الحديث  
عن التطوُّر رجماً بالغيب وتخرُّصاً على غير هدى .

فماذا نفعل بإزاء ترتيب مصنِّفات الجويني ، والمصادر التي بين أيدينا تسرد  
قائمة تلك المصنِّفات سرّداً مُجرّداً في الأغلب الأعمّ ؟

لا مناص إذن من تلمّس الشواهد حيناً ، ومن الاستعانة بالاستبطان النقديّ حيناً ،  
وقُصَّارى ما نُحصِّله من هذا وذاك : الرُّجحان ، وغلبة الظن .

١ - فإمام الحرمين يذكر في (الإرشاد)<sup>(٢)</sup> : (ومن ابتغى مزيداً فليتأمل « الشامل ») ،  
وفي هذا ما يدل على أن الشامل سابق على الإرشاد ، وإذا قارنّا بين عديد من  
أفكار (الشامل) و(الإرشاد) من جهة ، وبين (لمع الأدلة) من جهة أخرى ،  
كالمقارنة بين عناصر قضية حدوث العالم ، أو الآيات المتشابهات<sup>(٣)</sup> ، فلن  
نجد كبير فرق ، ممّا يجعلنا نرجّح أن يكون (الإرشاد) ، و(الشامل) و(اللمع)  
ثمّاراً لمرحلة واحدة ، هي المرحلة المتقدمة من فكر الجويني ، وممّا يجعلنا  
نرجّح هذا : أن الجويني - في الشامل والإرشاد - يجهر بالقول بـ(الحال)<sup>(٤)</sup> :  
(الذي هو صفة لموجود ، لا موجودة ولا معدومة) ويعتمد عليه في براهينه .

---

(١) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ١٩٢/٥ ، ط . الأولى ١٩٦٧ م . القاهرة .

(٢) الجويني : الإرشاد : ص ٣٣٧ تحقيق الدكتور محمد يوسف موسى ، القاهرة ١٩٥٠ م .

(٣) الجويني : اللمع : ص ٧٦ ، وما بعدها ، وأيضاً : ص ٩٤ ، وما يليها ، تحقيق الدكتورة  
فوقية حسين ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

(٤) الجويني : الإرشاد ص ٨٠ .

ومن المعلوم طبقاً لما ذكره الشهرستاني في (نهاية الإقدام) <sup>(١)</sup> ، وابن تيمية في (التسعينية) <sup>(٢)</sup> ، وغيرهما : أنَّ الجويني كان من مُبْتَدِئِي (الحال) أوائلَ عمره ، ثم انتهى إلى نفيه .

أضفُ إلى ذلك ما يسود هذه الثلاثة من جهامة الأسلوب ، وقوَّة الشكيمة في الحجاج ، وتصلب المواقف ، وتلك سمات المراحل المبكرة من العمر في غالب الأحيان .

٢- أما (البرهان) : فإن الجويني فيه لا يذكر شيئاً عن (النظامية) ، ولكنه يقول فيه - أعني : في (البرهان) <sup>(٣)</sup> - : (وأما سرُّ ما نعتقده في خلق الأعمال ، فلا يحتمله هذا الموضوع) ، ولَمَّا كان هذا السرُّ هو ما كشف عنه في (النظامية) - وفي (النظامية) دون سواها كما تُجمع المصادر - ولَمَّا كان السياق الذي وردت فيه العبارة السابقة مشابهاً لسياق عبارة مماثلة في الموضوع نفسه ، وردت في (النظامية) : فإنَّ في هذا ما يجعلنا نرجِّح أن يكون (البرهان) و(النظامية) متقاربين زمنياً .

٣- ومن المعلوم أنَّ (النظامية) من أواخر ما ألف الجويني ، فلقد كتبها بعد أن ألقى عصا التسيار في المدرسة النظامية بنيسابور في أخريات عمره ، كما أن كثيراً من المصادر تذكر ذلك صراحة ، كما فعل صاحب (اللمعة) <sup>(٤)</sup> ، فالأرجح إذن أن (البرهان) سابق على (النظامية) سبقاً ليس بالبعيد .  
فلئن ترجَّح لنا أن (الشامل) ، و(الإرشاد) ، و(اللمع) : من ثمار المرحلة الأولى ، أو المتقدمة من مراحل إمام الحرمين ، فإنه ليرجح لدينا أيضاً أن نجعل (البرهان) و(النظامية) من ثمار المرحلة الثانية ، أو المتأخرة) <sup>(٥)</sup> .

---

(١) الشهرستاني : نهاية الإقدام ص ١٣١ .

(٢) ابن تيمية : التسعينية ص ٢٢٣ (القاهرة.. بلا تاريخ).

(٣) الجويني : البرهان : فقرة ٢٧ تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب ، ط. الثانية ، ١٤٠٠ هـ .

(٤) الحلبي المذاري : اللمعة ص ٥٤ ، تحقيق الشيخ زاهد الكوثري ، القاهرة ، ١٩٣٩ م .

(٥) انظر : (تطور الفكر الكلامي عند إمام الحرمين الجويني) الدكتور محمد عبد الفضيل

القوصي من ص ١٥-١٨ ، ط. دار الرازي ، عمان ، الأردن ، ط. الثانية ، ٢٠٠٧ م .

## ● قضايا التطور الملحوظ في فكر الجويني

يقول الأستاذ الدكتور القوصي :

(ليس من غرضنا - بطبيعة الحال - استقصاء القول في كل تعديل أدخله إمام الحرمين في فكره ، كبيراً أو صغيراً ، جوهرياً أو هامشياً ، فكم من التعديلات والمنحنيات يمكن أن يضطلع بها فكر خصب وقاد كفكر إمام الحرمين ، يقوم - كما يقول ابن عساكر<sup>(١)</sup> - على استنباط الغوامض ، وتحقيق المسائل ، وترتيب الدلائل . فكر لا يترك سامقة إلا علاها ، ولا غاية إلا قطع منهاها . . . كما يقول التاج السبكي . )<sup>(٢)</sup>

لكننا هنا سنكتفي ببعض القضايا المهمة ، منها : ما أثاره أخونا الدكتور القوصي في رسالته .

ومنها : ما أثاره أخونا وزميلنا في قطر ، صاحب إمام الحرمين ، ورفيق دربه ، والباحث في تراثه ، ومحقق الكثير من أمهات كتبه : الدكتور عبد العظيم الديب ، الذي كتب عنه في رسالته للدكتوراه : (إمام الحرمين : حياته ، وعصره ، وآثاره ، وفكره) ، وإن لم ينشرها إلا بعد عشر سنوات من تأليفها ، فأضاف إليها كثيراً مما عرّفه عنه بعد ذلك .

ومنها : ما أثرناه من قديم في رسالتنا عن : (الجويني إمام الحرمين بين المؤرخين : الذهبي والسبكي) ، ونُخرج منها ما نراه لازماً هنا لإبراز الملامح العامة للتطور الفكري لدى إمامنا الكبير . وهو ما عرضناه للمؤتمر الذي عُقد بالدوحة ، خاصاً بإمام الحرمين ، برعاية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، وعناية الدكتور عبد العظيم الديب بلا شك .

(١) ابن عساكر : تبين كذب المفترى : ص ٢٨٢ ، بيروت ، ١٩٧٩ م.

(٢) انظر : (تطور الفكر الكلامي عند إمام الحرمين الجويني) ص ١٨ .

## ● رأي إمام الحرمين في إثبات حدوث العالم

ويحدثنا الدكتور عبد العظيم الديب عن تلك القضية في تراث إمام الحرمين ،  
قائلاً :

(ومن أخطر القضايا التي كانت تشغل المجتمع الإسلامي المتلاطم بالثقافات  
والفلسفات ، والمتزاحم بالفرق ، وعقائيل المذاهب والنحل : مسألة حدوث العالم .  
ولذا انبرى إمام الحرمين يردُّ على الفلاسفة والملاحدة ، مُثبتاً حدوث العالم بكل  
دليل يتهيأ له ، فاستخدم برهان أهل الحق ، دليل الأشاعرة الذي يُسمى : دليل  
الجوهر الفرد :

« ويتلخَّص في أن الأشياء المادية تتقلَّب عليها أحوالٌ تُعرض لها ، ثمَّ تنتقل  
منها ، لتحلَّ مكانها أعراضٌ أخرى : من الأشكال والألوان ، والحركات والنمو  
والانحدار ، وغير ذلك من التغيُّرات التي تطرأ على جميع الكائنات . وهذه  
الكائنات تقبل القسمة تدريجياً حتى تنتهي إلى أجزاء لا تتجزأ ، وهي التي يطلقون  
على كل جزء منها اسم : (الجوهر الفرد) ، فإذا كانت الجواهر لا تنفكُّ عن  
الأعراض ، وكانت الأعراض حادثةً ، وجَبَ أن تكون الجواهر حادثةً ؛ لأنَّ ما لا يخلو  
عن الحوادث ، فهو حادثٌ ، تَبَعاً لمبدئهم الكلامي المشهور . وما دام العالم حادثاً  
في جوهره وأعراضه ، فلا بد من مُحدثٍ ، وهو الله »<sup>(١)</sup>.

كان هذا دليل الأشاعرة يجادلون به ، ويدحضون حجج الفلاسفة والملاحدة ،  
وجاء إمام الحرمين ، وأتى بدليل جديد ، لم يُسبق إليه ، يُسمى : (دليل الجواز) ،  
أو (دليل الممكن والواجب) .

وأحسب أن سَماعنا لهذا البرهان من إمام الحرمين بألفاظه خير من تلخيصنا  
له ، فلنسمعه من (العقيدة النظامية) ، ولنلاحظ أنه يقول في مقدمتها ، وهو يهديها  
إلى (نظام الملك) : « ولقد صدرتْها بقواعد عن العقائد ، على أساليب لم أُسبقُ  
إليها ».

(١) مناهج الأدلة عن عقائد الملة لابن رشد ص ١٢ .



أما برهانُ إمامِ الحرمين ، فتراه في ص ١١ ، ١٢ يقول :

«العالمُ كلُّ موجودٍ سوى الله تعالى ، وهو :

- أجسامٌ محدودةٌ متناهية المنقطعات .

- وأعراضٌ قائمةٌ بها ، كألوانها وهيئاتها في تركيباتها وسائر صفاتها .

وما شاهدنا منها ، واتصلتْ به حواسنا ، وما غاب منها عن مدارك إحساسنا : متساويةٌ في ثبوتِ حكمِ الجواز لها ، ولا شكل يُعَيِّنُ ، أو يُفَرِّضُ منَّا ، صغرُ أو كبرُ ، أو قربُ أو بُعدُ ، أو غاب أو شهد ، إلا والعقل قاض بأنَّ تلك الأجسام المتشكِّلة لا يستحيل فرضُ تشكيّلها على هيئةٍ أخرى ، وما سَكَنَ منها ، لم يُحِلِّ العقلُ تحرُّكَه ، وما تحرَّك لم يُحِلِّ سكونَه ، وما صُوِّدَ مرتفعاً إلى منتهى سَمَكٍ من الجوِّ : لم يبعد تقديرُ انخفاضِه ، وما استدار على النطاق : لم يبعد فرضُ تدوّاره نائياً عن مجراه ، وترتَّبُ الكواكبُ على أشكالها يجوزُ على خلافِ هيئاتها وأحوالها ، فيتَّضحُ بأدنى نظرٍ استمرارُ مقتضى الجواز على جميعِها . وما يثبتُ جوازه استحالةَ الحكمِ بوجوبه . ولا يَنسَاغُ في عقلٍ موفقٍ اعتقاد قديمٍ عن وفاقٍ ، وهو مُجَوِّزٌ غيرُ ممتنعٍ تقديره على خلاف ما هو عليه ، فإذا لَزِمَ العالمَ حكمُ الجواز : استحالةُ القضاءِ بقدَمِه ، وتقرَّرَ أنه مُفْتَقِرٌ إلى مقتضى اقتضاه على ما هو عليه ، وإنَّما يستغني عن المؤثِّرِ ما قضَى العقلُ بوجوبه ، فيستغني بوجوبه ولزومه عن مقتضى يقتضيه ، فأما ما يثبتُ جوازه وتعارضتْ فيه جهاتُ الإمكان ، فمن المُحالِ ثبوته اتفاقاً على جهةٍ منها من غيرِ مقتضى . . .

وإذا بَطَلَ ثبوتُ الجائزاتِ من غيرِ مقتضى ، قسمنا الكلام وراء ذلك ، وقلنا : مقتضى العالم لا يخلو : إما أن يكون موجباً من غيرِ إيثار واختيار ، وإما أن يكون مؤثِّراً مريداً مختاراً ، فإن كان موجباً من غيرِ إيثار كان ذلك مستحيلاً ، فإن الموجب الذي لا يؤثِّرُ يستحيل أن يقتضي شيئاً دون مماثلة . . .

وإذا تقرَّرَ ذلك قلنا : العالمُ بجملته قارٌّ في جوٍّ معلوم ، وتقديره واقعاً في ذلك الخلاء : يُماثلُ تقديره في خلاءٍ عن اليمين أو عن الشمال ، وهذا يقرب من مدارك البداهة ، وإذا تماثلتْ الأحياز والجهات : استحالةُ اعتقادٍ موجبٍ يخصُّصُ العالمَ



بُقْطِرَ تماثله سائرُ الأقطار ، فإن الموجب لا يخصص شيئاً من أمثاله ، والمؤثر المختار هو الذي يُجيز بإرادته ومشيئته مثلاً من الأمثال ، فلاح بطلان المصير إلى موجب قديم ، لا اختيار له .

فإن قيل : العالم قديم ، وموجبه مؤثرٌ مختار ، قلنا : هذا باطلٌ قطعاً ، فإن القديم يستحيل أن يكون ثبوته بإرادته ، إذ الموقع المخصص الذي لم يكن فكان هو المراد ، فأما ما لم يزل واقعاً يستحيل ارتباط كونه بإرادة في الإيقاع .

فإذا فسَدَ القولُ بقَدَمِ العالم ، مع ظهور الجواز في أحكامه من غير مؤثر وموجب ، وبطل كونه قديماً عن موجب قديم ، واستحال إسناده مع كونه قديماً إلى إرادة ، لم يبقَ إلا القطعُ بأنَّ العالمَ فعلٌ موقعٌ على وجهه ، دون وجهٍ من وجوه الجواز ، بإرادة مؤثرةٌ مختارة ، أو وقع على مقتضى مشيئته .

وهذا الفصل في إثبات حدوث العالم : أنجع وأرفع من طرق حوثها مجلدات ، وهو خيرٌ لفاهمه من الدنيا بحذافيرها ، لو ساوَقَه التوفيق<sup>(١)</sup> .

ما أصاب إمام الحرمين بسبب خروجه على الأشعري :

قال الدكتور الديب :

وقد أشرنا من قبلُ إلى ما جرَّه على إمام الحرمين تحرُّره ، وخروجه على رأي من سبقه من الأئمة ، وبخاصة الإمام الأشعري .

وينقل لنا العلامة محمد زاهد الكوثري ما أصاب إمام الحرمين بسبب هذا

الرأي فيقول :

« لقي كلام إمام الحرمين هذا<sup>(٢)</sup> بعض عنتٍ من بعض تلاميذه جرئاً على التقليد الأعمى ، لكن أيده كثيرٌ من المحققين ، وعدُّوا هذا القولُ لبَّ الصواب . حتى أُلِّفَ العلامة أحمد بن محمد المقدسي الدجاني كتاباً سمَّاه : (الانتصار لإمام الحرمين فيما شفع عليه بعض النُّظار) ، وعدَّ هذا الرأي آخرَ ما استقر عليه رأيه ، وقد قال القائل عن هذا الرأي :

(١) انظر : (إمام الحرمين : حياته ، وعصره ، وآثاره ، وفكره) . ص ١٠٢-١٠٥ .

(٢) الإرشاد إلى رأيه في أفعال العباد .

تَنَكَّبَ عَنْ طَرِيقِ الْجَبْرِ وَاحْتَذَرَ وَقَوَّعَكَ فِي مَهَاوِي الْعَتَاظِ  
وَسِرَّ وَسْطًا طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا كَمَا سَارَ الْإِمَامُ أَبُو الْمُعَالِي

### ● رأي إمام الحرمين في القول بالأحوال :

كذلك كان من الجديد الذي أتى به إمام الحرمين في علم الكلام : القول بالأحوال ، التي حُلَّتْ في رأيه المشكلة الدقيقة ، التي تتصل بذات الله وصفاته .  
إذ إن الحال ، ولو أنها صفة ملتصقة بالشيء الموجود ، ولكنها لا تصفه سواء  
بالوجود أم بالعدم .

فالأمر ثلاثة على مذهبه :

١- موجود .

٢- معدوم .

٣- واسطة ، وهو المسمى بالحال .

- فالموجود : ما له تحقق في الخارج ، وفي نفسه ، وفي الذهن عند ملاحظته .

- والمعدوم : ما ليس له وجود إلا في الذهن فقط عند إدراكه وتعقله .

- والحال : ما له وجود في نفسه وفي الذهن عند ملاحظته ، وليس له وجود في  
الخارج .

ومن هنا أمكن حلَّ مشكلة الصفات المعنوية . فالإمام الأشعري يرى أنها ليست  
بصفات زائدة على صفات المعاني ، وأنه لا وجود لها ، لا في خارج الأعيان ،  
ولا في خارج الأذهان ، بل هي أمور اعتبارية ، لا وجود لها إلا في الذهن ، ولكن  
القول بالأحوال وضع تفسيراً مقبولا للصفات المعنوية ، وأمکن القول بأنها صفات  
زائدة على صفات المعاني ، وأنها أمور ثابتة في نفسها ، بقطع النظر عن الاعتبار  
والذهن ، وأنها واسطة بين الموجود والعدم .

وعلى هذا فالمعنوية أحوال ، وهي صفات قائمة بذاته تعالى ، لها وجود في  
نفسها ، ولا يصح أن تُرى ، والمعاني صفات موجودة قائمة بذات الله تعالى ، يصح

أن تُرى ، وعلى القول بثبوت المعنوية ، فلا تعلُّق لها ؛ لأنها أحوال ، والتعلُّق حالٌ ، فلو تعلَّقتْ لزم قيام الحال بالحال ، وهو باطل<sup>(١)</sup> .

ولم يكن أثر إمام الحرمين في علم الكلام ظاهراً بإبداعه وابتكاراته في هذا الفن فقط ، بل كان أسلوبه ، وطريقة تفكيره ، وطريقة جداله ، وطريقة تأليفه . كل ذلك كان له ابتكار وإبداع وتأثير ، حتى قيل : (إنه كان أول رجل دينٍ أوجدَ منهاجاً على الأسُس الأشعرية)<sup>(٢)</sup> .

تلك لمحة سريعة عن جهود إمام الحرمين في علم الكلام . ومنها يتضح جهود هذا الإمام في هذا الفن وأصالته . حتى أصبح حقيقةً بأن يُلقَّب بأنه مُجدِّد علم الكلام ، أو بأنه باني المدرسة الأشعرية الحديثة ، كما أُطلق عليه من قبل . اهـ<sup>(٣)</sup> .

وإن كنا نقول نحن عن إمام الحرمين : إنه مجدد الأشعرية تجديداً غير عادي ، تجديداً غيرَها من داخلها ، وردّها إلى أشعرية سلفية متوازنة واضحة كالشمس في الضُّحى ، والمعول في ذلك على كتبه الأخيرة : (البرهان) ، و(النظامية) ، و(الغياثي) ، فهي التي تحمل الومضات الأخيرة في تفكير الإمام ، الذي لم يقدر له أن يكمل الستين بالتقويم العربي ، وهو بالتقويم الشمسي سبع وخمسون عاماً رحمه الله .

### ● إمام الحرمين ومسألة العلم بالجزئيات :

ومع ما بذله إمام الحرمين من جهود لنصرة أهل الحق ، وللدِّفاع عن مذهب أهل السنة لم يسلم من الهجوم والاتِّهام .

---

(١) راجع في مسألة الأحوال :

- شرح الخريدة للدرديري ص ٣٤ .

- فلسفة التفكير الديني بين الإسلام والمسيحية ١١٤/١ وما بعدها .

- الشامل للجويني . وانظر الدراسة التي كتبها في مقدمته الدكتور على سامي النشار .

(٢) انظر : فلسفة التفكير الديني بين الإسلام والمسيحية ١١٤/١ وما بعدها .

(٣) انظر : (إمام الحرمين : حياته ، وعصره ، وآثاره ، وفكره) . ص ١٠٢-١٠٧ .

وكنّا نظن أن ذلك فعل العامة والدهماء ، أو كيد الخصوم والأعداء ، فلا طائل وراء بحثه ، ولا داعي لنقله وتتبع فساد .

ولكن رأينا القائلين بهذا الاتهام يريدون أن يؤيدوه ويؤكّدوه ، فاخترأوا من كلام إمام الحرمين ما فسّروه على وجهٍ يثبت لهم ما يرغبون .  
ومن هنا كان لنا أن نقفَ لنتناقش هذه المسألة .

جاء في المنتظم<sup>(١)</sup> : « وشاع عن أبي المعالي أنه كان يقول : إن الله يعلم جُمل الأشياء ، ولا يعلم التفاصيل . فوا عجباً ! أترى التفاصيل يقع عليها شيء أولاً ... » ، ويستمر في ذكر آياتٍ ردّاً لهذا الرأي الذي حكاه . ثم يقول : « ونقلتُ من خطِّ أبي الوفا ابن عقيل . . . وذكر إمام الحرمين في بعض كتبه ما خالف به إجماع الأمة . فقال : إن الله يعلم المعلومات من طريق الجملة ، لا من طريق التفصيل » ، ثم ذكر آياتٍ أُخر ردّاً على هذه الشبهات أيضاً .

وإذا كان ابن الجوزي قد أورد الاتهام على ما وصل إليه ، ولم يقل لنا دواعيه ، ولم يفسر لنا أسبابه : فإن الذهبي قد أشار إلى مصدر الاتهام وسببه .

جاء في سير النبلاء ( ١١ / ٢٥٥ ) : ( قال المازري في شرح البرهان ، في قول إمام الحرمين : إن الله يعلم الكلّيات لا الجزئيات ، وودت لو محوتها بدمي .  
ثم يقول الذهبي : وقيل : لم يقل بهذه المسألة تصرّيحاً ، وإنما ألزم بها لما قاله بشأن استرسال نعيم أهل الجنة . . . والله أعلم .

ثم يعقب بقوله : قلتُ : هذه هفوة اعتزال ، هُجر أبو المعالي عليها ، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه ، ونُفي بسببها فجاور وتاب - والله الحمد - منها ، كما أنه في الآخر رجّع إلى مذهب السلف في الصفات وأقرّه ) هـ . الذهبي .

وقبل أن نناقش التهمة موضوعياً ، نحاول أن ننفي الحواشي والأطراف تأثراً بمنهج إمام الحرمين - فنقول :

قال السبكي في مناقشته لهذه المسألة : إنَّ الذهبيَّ عدو لإمام الحرمين ، متحامل عليه ، متعصب ضده - وقد يكون لدى السبكي دليل آخر على ذلك - أما هذه العبارة التي أخذناها من سير النبلاء آنفاً ، فليس فيها شيء من ذلك ، فالذهبي نقل الكلام عن المازري ، بل نقله بإيجاز واقتضاب ، لا بروح المهاجم المتعصب . ثم إنه شكك فيه بقوله : فالله أعلم . متبرئاً من التُّهمة تاركاً أمر صدقها لعلام الغيوب . وأما قوله : قلت : هذه هفوة اعتزال هُجِرَ أبو المعالي عليها ، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه ، ونُفِيَ بسببها ، فجاور وتعبَّد وتاب - والله الحمد - منها .

وأول ما يُنبِّهنا إلى ما فيه من خلط وفساد ، مخالفته جميع مَنْ ترجم لإمام الحرمين في قولهم : إنَّ خروج إمام الحرمين كان بسبب فتنة الوزير أبي نصر الكندري على ما أوضحنا في الصفحات الأولى من هذا البحث . وإنه كان هارباً من جحيم المعتزلة الذي أشعلوا لأهل السنة بنيسابور ، وإنه كان ضحية من ضحايا المعتزلة ، لا مُتَّهماً بالاعتزال .

أمَّا أن أبا القاسم القشيري حلف ألاَّ يكلمه ، فيردُّه أيضاً أن القشيري كان رفيقاً لإمام الحرمين في مهجره ، وقد لحق به بعدما أخرجه أبو سهل ابن الموفق ، على نحو ما أشرنا من قبل . ثم هو القائل : لو ادَّعى إمام الحرمين النبوة لاستغنى بكلامه هذا عن المعجزة .

ثم بقي أمر آخر وهو محاولة السبكي أن يردَّ موقف المازري إلى التعصب المذهبي . ولكن المطلع على كلام المازري فيما رواه السبكي نفسه : يرى أن المازري لا يحاول الانتقاص أبداً من إمام الحرمين ، حتَّى في أثناء اعتراضه أو هجومه عليه ، وحتى العبارة التي قالها وتناقلها الناقلون ، وأعني بها قوله : (ودِدْتُ لو محوُّتها بدمي) ، أو (وددتُ لو محوُّتها بماء عيني) ، فهو يتمنَّى أن تتطهر كُتُب إمام الحرمين وآثاره منها ، بل يذكر صراحة فضله وعظمته ، ويتحدَّث عن جهاده في سبيل الدين ، ويتمنَّى ألاَّ يخوض أحدٌ في هذه الشبهة ، وألاَّ تُنسب إليه .

## والآن نبدأ في بيان أصل التهمة وسببها :

جاء في البرهان (فقرة : ٥٩) عند حديثه في الفصل الذي عقده لبيان مدارك العقول قوله : « وأما الميز بين الجواز المحكوم به ، وبين الجواز بمعنى التردد والشك ، فلائح واضح ، ومثاله : أن العقل يقضي بجواز تحرك جسم ساكن ، وهذا الجواز حكم مثبت للعقل ، وهو نقيض الاستحالة ، وأما الجواز بمعنى التردد والشك فكثير .

ونحن نكتفي فيه بمثال واحد فنقول : تردّد المتكلمون في انحصار الأجناس ، كالألوان ، فقطع قاطعون : بأنها غير متناهية في الإمكان ، كآحاد كل جنس ، وزعم آخرون : أنها منحصرة ، وقال المقتصدون : لا ندري أنها منحصرة أم لا ، ولم يثبتوا مذهبهم على بصيرة وتحقيق .

والذي أراه قطعاً أنها منحصرة ، فإنها لو كانت غير منحصرة لتعلق العلم منها بأجناس لا تتناهى على التفصيل ، وذلك مستحيل ، فإن استنكر الجهلة ذلك ، وشمخوا بأنافهم ، وقالوا : الباري سبحانه عالم بما لا يتناهى على التفصيل ، سفهنا عقولهم ، وأحلنا تقرير هذا الفن على أحكام الصفات . وبالجملّة : علم الله تعالى إذا تعلق بجواهر لا تتناهى ، فمعنى تعلّقه بها : استرساله عليها من غير فرض تفصيل الآحاد مع نفي النهاية ، فإنّ ما يُحيل دخول ما لا يتناهى في الوجود : يُحيل وقوع تقديرات غير متناهية في العلم والأجناس المختلفة ، التي فيها الكلام يستحيل استرسال العلم عليها ، فإنها متباينة بالخواص ، وتعلّق العلم بها على التفصيل مع نفي النهاية : محال ، وإذا لاحت الحقائق ، فليقل الأخرق بعدها ما شاء .

فعند شرح المازري لهذه العبارة من البرهان وقف تجاهها ، وفهم منها أن إمام الحرمين يُنكر علم الله للجزئيات .

والآن هذه هي العبارة أماننا ، وهذه هي التهمة!! أو هذا هو الفهم ، فهل تساعد العبارة المازري على أن يفهم منها ما فهم ، أو لا ؟ سنتناول في الإجابة عن هذا التساؤل أطرافاً ثلاثة :

أولاً : إن كلام إمام الحرمين هنا في مجال الحديث عن النظر وإدراكه للجواز والاستحالة ، ثم تطرّق في هذه العبارة للتفرقة بين معنيين للجواز ، فبيّن أن أحد المعنيين هو : حكم قاطع للعقل ، والثاني هو : التردد والشك في بناء رأي . ثم مثّل ذلك النوع من الجواز بالشك والتردد في انحصار الأجناس عند طائفة من المتكلمين ، واستطرد من هذه النقطة قائلاً : إنها منحصرة . ورداً على القائلين بأنها غير منحصرة ، وعلى المتردّدين : تعرّض لمسألة العلم . أي : أن تعرّض إمام الحرمين لهذه المسألة هنا أمر عرَضِيّ غير مقصود . بل هو حين وصل الأمر إلى الخلاف في هذه المسألة قال : أحلنا تقريرَ هذا الفن على أحكام الصفات . فهو يُحيل بكل وضوح على الموضوع المختصّ بهذه المسألة في علم الكلام . وقد رأيناه يقول في مواضع أخرى : ولنا فيه مجموع في علم الكلام ، فليتأملّه طالبه .

ولذا من حقّه علينا إذا أردنا أن نرى رأيّه في هذه المسألة : الاتجاه إلى حيث أشار ، أي : إلى مصنّفاته الكلامية ، وكأنه رضي الله عنه أحسّ بأن كلامه هنا قد يفهم على غير وجهه ، فنبّه إلى ضرورة البحث عن كل فنّ في مظانّه ومكانه . - فماذا نجد في كتب إمام الحرمين الكلامية في هذا الشأن ؟

لقد رأيت في الشامل (نسخة خطية بدار الكتب المصرية ص ٧٦) عبارة هي نصّ في الموضوع ، لا يتطرّق إليها تأويل أو شك ، قال إمام الحرمين : «الربّ سبحانه وتعالى عالم بالمعلومات على تفاصيلها ، متعالٍ عن العلم بها على الجملة ؛ إذ العلم بالجملة يقارنُه الجهل بالتفصيل» .

وقد جاء في البرهان فقرة ١٤٢٥ : «إن الربّ تعالى كان عالمًا في أزله تفاصيلَ ما يقع فيما لا يزال» ، وأحسب أن هاتين العبارتين كافيتان في إثبات رأي إمام الحرمين ، وبخاصة العبارة الثانية : عبارة البرهان ؛ لأنها في نفس الكتاب الذي فيه العبارة الموهمة التي أثارت الشبهة ، فلا تكون هناك فرصة لقائل يزعم أنه عاد في قوله ، ورجع عن رأيّه ، فعبارة البرهان هذه تقطع بفساد هذا الفهم ، وبأن ظاهر عبارة البرهان الأولى غير مقصود ، فكيف يذكر في نفس الكتاب ما يناقض قوله؟!!

ومع ذلك لا علينا إذا استظهرنا بعبارات أخرى نأخذها عن السبكي الذي رآها في كتب إمام الحرمين .

يقول السبكي<sup>(١)</sup> : لقد بحثتُ عن كلمات هذا الإمام في كتبه الكلامية ، فوجدتُ إحاطة علم الله تعالى عنده بالجزئيات أمراً مفروغاً منه ، وأصلاً مقررّاً ، يُكفّرُ مَنْ خالفه فيه ، وهذه مواضع من كلامه :

قال في الشامل : « فلم يبقَ إلا ما صار إليه أهلُ الحق من إثباتِ عِلْمٍ واحدٍ قديمٍ متعلّقٍ بجميع المعلومات » .

ثم قال : « فإن قال : إذا جوزتُم أن يخالف عِلْمُ القديم العلمَ الحادث ، ولم تمنعوا أن يتعلّق العلمُ الواحد بما لا يتناهى ، ومنعتم ذلك في الحادث ، واندفع في سؤال أورده . ثم قال : قلنا : الدلالة دلّت على وجوب كون القديم عالماً بجميع المعلومات » .

وقال في باب القول في أن العلم حادث ، هل يتعلّق بمعلومين . ما نصّه : « إذا عِلِمَ العالمُ مِنَّا أنَّ معلوماتِ الباري لا تتناهى : انبهر » .

وكرر في هذا الفصل أنه تعالى يعلم ما لا يتناهى على التفصيل غيرَ ما مرّة . ونقل السبكي من (الإرشاد) نحو هذا ، ثم قال : ولا معنى للتطويل في ذلك ، وكتبه مشحونة به .

ثانياً : بعد أن أحالنا إمام الحرمين على كتبه الكلامية ، ورأينا رأيه في المسألة واضحاً ، يمكن أن ننظر إلى عبارة البرهان ، ونحاول فهمها ، ولا شك أننا يمكن أن نرى فيها رأياً غيرَ ما رآه المازري ، وهذا ما ننقله عن السبكي في الطبقات<sup>(٢)</sup> :

(فإمام الحرمين يستدلُّ على رأيه في أن الأجناس منحصرة ، بأنها لو كانت غيرَ منحصرة ، لتعلّق العلمُ بآحادٍ لا تتناهى على التفصيل ، لأن الله عالمٌ بكل شيء ، فإذا كانت الأجناس غيرَ متناهية ، وجَبَ أن يعلمها غيرَ متناهية ؛ لأنه يعلم الأشياء

(١) الطبقات الكبرى ١٩٤/٥ بتحقيق الحلو والطناحي.

(٢) المرجع السابق ١٩٧/٥ .



على ما هي عليه ، إن مُجْمَلَةً فمجملة ، وإن مُفَصَّلَةً فمفصلة ، والأجناسُ المختلفة متباينة بحقائقها ، فإذا عَلِمَهَا وَجَبَ أَنْ يَعْلَمَهَا مفصلة متميزة بعضها عن بعض .

وأما أن ذلك يستحيل ؛ فلأن كل معلوم على التفصيل ، فهو منحصر متناهٍ ، لوجوب تشخيصها في الذهن ، كما في الخارج . ثم قال : إن إمام الحرمين بنى دليله على أن الأجناس منحصرة على قواعد هي :

١- إن الله عز وجل عالم بكل شيء ، الجزئيات والكلّيات ، لا تخفى عليه خافية .  
٢- إن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فيعلم الأشياء المُجْمَلَةَ التي يتميز بعضها عن بعض مفصلةً ، وهذا خلاف مذهب ابن سينا .

٣- إن المعلومات الجزئية المتميزة المفصلة لا يمكن أن تكون غير متناهية ، تشبيهاً للوجود الذهني بالوجود الخارجي ، وإلى هذا أشار بقوله : « فإن ما يُحِيل دخول ما لا يتناهى في الوجود : يحيل وقوعَ تقديراتٍ غير متناهية في العلم » .

٤- إن الأجناسَ المختلفة التي فيها الكلام متناهيةً بخواصّها ، أي : بحقائقها ، متميزة بعضها عن بعض .

وهذه محاولة لتوجيه عبارة البرهان والخروج بها عن المعنى الذي اتفق على استهجائه ، وخروجه عن مذهب أهل الحق .

ونرى الشريف أبا يحيى ، وهو أحد شُرَاح البرهان الثلاثة يحاول أن يوجّه العبارة بطريق آخر ، فيقول :

« يمكن الاعتذار عن الإمام في قوله يستحيل تعلّق علم الباري تعالى بما لا يتناهى أحاداً على التفصيل ، بل يسترسل عليها استرسالاً بتمهيد أمر » .

« إن الحدّ الحقيقي في المثليّن : أن يقال : هما الموجدان اللذان تعدداً في الحسّ واتّحداً في العقل . وحدّ الخلافين : أنهما الموجدان المتعددان في الحسّ والعقل ، ألا ترى أن البياضين والسوادين وغيرهما من المثليّن متعددان في الحسّ بالمحلّ ، وفي العقل متّحدان . والسواد والبياض وغير ذلك من المُخْتَلِفَات : متعددان حسّاً

وعقلاً . وإذا تقرر هذا ، فيمكن أن يقال : إنما أراد بقوله : (يسترسل عليها استرسالاً) للأمثال المتَّفِقة في الحقيقة ، فإنَّ العِلْمَ يتعلَّقُ بها باعتبار حقيقتها تعلُّقاً واحداً ، فإنَّ حقيقتها واحدة ، كالبياض مثلاً ، فإنَّ آحاده لا تختلف حقيقةً ، فعبرَ عن هذا بتعلق العلم بالأمثال جُملةً ، يريد العِلْمَ الحادث ، وإن كان العِلْمُ القديم يُفصِّلُ ما يقع منها ، مما عُلِمَ أنه يقع في زمان دون زمان ، ومحلٌّ دون محلٍّ ، « ثمَّ قال أبو يحيى : والذي يُعضدُّ هذا التأويل ما قاله الإمامُ في مواضع أخرى »<sup>(١)</sup>.

وخلاصة ما نريد تقريره : أن عبارة إمام الحرمين يمكن أن تتحمل معنى غيرَ هذا الذي أخذ عليه .

وأبو عبد الله المازري نفسه يقول في آخر كلامه : « لعلَّ إمامَ الحرمين لا يخالف في شيء من هذه الحقائق ، وإنما يريد الإشارة إلى معنى آخر ، وإن كان لا يحتمله قوله إلا على استكراه وتعنيف » .

ثالثاً : يعضد ما قلناه : أنَّ هذه التهمة ظلت محصورة في نطاقها الضيق ، فلم تخرج تقريباً عن نطاق المازري ، ولم يردِّدها غيره إلا الشريف أبو يحيى شارح البرهان ، وإذا لاحظنا أن المازري كان متقدِّماً ، حيث كانت وفاته سنة ٥٣٦ هـ . ورأينا أن أحداً لم يُصنَّح إليه ، ولم تشعْ هذه المسألة ، ولم يتناقلها المؤلفون والمؤرخون : أدركنا أن السر في ذلك أن القوم فهموا من العبارة غيرَ ما فهم ، ورأوا فيها غير ما رأى .

« ومع تتبع الأشاعرة لكلام إمام الحرمين ، ومع أن تلامذته وتصانيفه ملأت الدنيا ، لم يُعرف أن أحداً عزا ذلك إليه ؛ إذ لو كان لتوفرت الدواعي على نقله »<sup>(٢)</sup> . ونوجز كل ما قلناه بأن إمام الحرمين بريء من هذا الاتهام بأدلة ثلاثة :

١- أقواله في كتبه .

٢- إمكان تفسير العبارة على غير هذا الوجه .

٣- أن هذه التهمة لو كانت صادقة ، لشاعت وعُرفت ، وتناقلتها الأعلام .

---

(٢٠١) السبكي : الطبقات ٢٠٦/٥ الطبعة المحققة.

## ● قضية خلق أفعال العباد

نتحدث هنا عن قضية مهمة في علم الكلام وخلافياته ، وهي ما يتعلق بالجبر والاختيار ، والعلاقة بين الإرادة الإلهية ، والإرادة الإنسانية ، وسنعرضها هنا عن طريق ما عرضه الدكتور القوصي .

لم يخض القوصي هنا كثيراً في الجذور الأولى لقضية الكسب عند الأشعري نفسه ، أو عند الباقلاني من بعده ، لكن الذي يهمنا في هذا المقام : صياغة الجويني في مرحلته الأولى لهذه القضية ، تلك الصياغة التي كتب لها الظفر ، حتى أضحت ميسماً للفكر الأشعري بأسره .

خلاصة هذه الصياغة - كما بينها في (الشامل) ، و(الإرشاد) <sup>(١)</sup> : أن القدرة لا تؤثر في مقدورها بأي ضرب من ضروب التأثير ، بل تتعلق به مجرد تعلق ، وتقارنه مجرد مقارنة ، دون تأثير فيه ، وهذا هو معنى الكسب ، والقدرة الحادثة في ذلك أشبه بالعلم الذي يتعلّق بالمعلوم ، دون أن يؤثّر فيه ، إن الحوادث كلها - كما يقول في (الإرشاد) <sup>(٢)</sup> : قد حدثت بقدرة الله تعالى ، لا فرق بين ما تعلّقت به قدر العباد ، وبين ما تفرّد الربُّ بالاقتدار عليه .

يعمّد الجويني - تدعيماً لهذه الصياغة التي تُفرّغ قدرة العبد من التأثير في مفعولاتها : إلى إيراد « القواطع العقلية ، والأدلة السمعية » ، التي تبطل كون العبد مخترعاً لأفعاله ، أو مؤثراً في إيجادها ، كما يعمّد إلى تفنيد « ما اعتصم به المعتزلة من شبه عقلية وسمعية » في روية وطول نفس ، ويبلغ الجويني أقصى الآماد - وهو يرفع القواعد من هذه القضية ، لا يلوي في ذلك على شيء .

١ - فهو لا يتردّد في أن يفصل بين أفعال العباد ، التي تؤثر فيها قدرتهم من جهة ، وبين الثواب والعقاب ، والمدح والذم على تلك الأفعال من جهة أخرى ، فالثواب والعقاب ، والمدح والذم : لا تجب بفعل المكلف ، ولا تترتب على

(١) الإرشاد : ص ٢١٠ ، والشامل ص ٣٧٩ .

(٢) الإرشاد : ص ١٨٧ ، ٢٠٨ .

هذا الفعل ، بل لو ابتدأ الربُّ تعالى عبده - كما يقول في (الإرشاد) <sup>(١)</sup> - بالنعيم المقيم ، أو العذاب الأليم ، لكان ذلك ممكناً غير مستحيل ، وإنما أفعال العباد في الشرع : أعلام وآيات لأحكام الله تعالى فحسب .

٢- وهو لا يتردد أيضاً في أن يقمع بعنف بادرة الباقلاني ، التي ابتدرها لتفسير الكسب عند الأشعري - دون أن يصرح باسمه - تلك البادرة التي ابتغى الباقلاني بها أن ينسب إلى العبد تأثيراً ما ، والتي بمقتضاها يكون مكسوب العبد ليس إيجاد الفعل في ذاته ، بل مكسوب حال تجعل الفعل طاعة أو معصية ، بحسب قصده واختياره ، وتلك الحال هي التي يتميز بها الفعل الاختياري - عند الباقلاني - وهي التي تكون مناط ثوابه أو عقابه <sup>(٢)</sup> .

إن طريقة الباقلاني - فيما يرى الجويني - (غير مرضية ، ولا جريان لها على قواعد أهل الحق ، وفي المصير إليها افتتاح وجوه من الفساد يجب تنكُّبها ، وذلك أن صاحب هذه الطريقة يحيل معتقده إلى ادعاء حال مجهولة ، لا يمكن الإفصاح عنها ، وتقدير أحوال مجهولة : حيد عن السداد ، وتطريق لدواعي الفساد إلى أصول الدين) <sup>(٣)</sup> .

ولقد كان لهجمة الجويني هذه على بادرة الباقلاني أثرٌ كاسح أصابها في مقتل ، فضمرت شجرتها عند الأشاعرة - فيما عدا الشهرستاني ، كما سوف نرى - بينما تلقفتها أيدي الماتريدية بالترحاب ، واستثمرت لديهم استثماراً بليغاً ، فهذا ابن الهمام يقول <sup>(٤)</sup> : (بالعزم المصمم) ، وهذا (صدر الشريعة) <sup>(٥)</sup> يشيد (المقدمات

---

(١) الإرشاد : ص ١٨٧ ، ٢٠٨ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ٨٩/١ تحقيق الدكتور فتح الله بدران ، ط. الثانية ، القاهرة ، وأيضاً : نهاية الإقدام : ص ٧٤ ، وما يليها ، حيث يبدو إعجاب الشهرستاني بالباقلاني واضحاً .

(٣) الإرشاد : ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤) ابن الهمام : المسيرة ص ٥٥ ، وما بعدها ، ط. الأولى ، القاهرة ، بلا تاريخ ، تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد .

(٥) التفتازاني : التلويح على التوضيح ١٧٥/١ ، وما بعدها ، القاهرة ، مكتبة صبيح ، بلا تاريخ .

الأربع) التي سارتُ بذكرها الركبان ، ومنتهاً (بالإرادة الجزئية) ، وكل تلك - في محصلتها الجزئية - ثمرٌ مختلفُ الأكل لشجرة الباقلائي ، التي زُرعتُ في غير أرض الأشاعرة !!

مهما يكن من شيء فلقد كُتبتِ السيادة في المذهب الأشعري لهذه الصياغة ، وسيطول بنا المقام لو استقصينا أثر هذه الصياغة في الأجيال المتلاحقة من الأشاعرة ، الذين اعتبروها ترجمة لمذهب الأشعري ، لا محيص عنها ولا مهرب .

ويكفي هنا على سبيل الإجمال : أن نشير إلى صياغة الغزالي في (الاقتصاد) ، و(الإحياء) ، وإلى صياغة الآمدي في (غاية المرام) ، ناهيك عن صياغة (المواقف) للإيجي ، و(المقاصد) ، و(العقائد) للسعد التفتازاني ، انتهاءً بصياغة السنوسي والمتأخرين . وكأنني بالجويني يشهد هذا المدَّ الظافر لصياغته هذه ، فيضيق ذرعاً بالمخالفين قائلاً : (إلى متى نتعدى غرضنا في الاختصار ، وقد وضع الحق وحصحص ، واستبان عناد المخالفين في تأويلاتهم؟) <sup>(١)</sup> .

ثم بعد هذا التنظير والتشديد ، والتأسيس والتقعيد : يأتي إمام الحرمين في المرحلة الثانية - أعني : مرحلة (البرهان) و(النظامية) - فيأتي على هذا البنيان من القواعد ، ويكرُّ على صياغته الأولى هدمًا ونقدًا ، وتفنيدًا وإبطالًا ، دون إشارة صريحة إلى سابق رأيه ، بل مع إشارة عَجَلَى إلى (الرقِيَّ عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد) .

وكما كان الجويني عنيفًا مع مخالفيه في مرحلته الثانية ، وكأنما كان يعنف على نفسه ، ويشدد على سابق عهده ، فهو يقول في (النظامية) عمَّن يخالفه رأيه الجديد : إنه مصاب في عقله ، مستمرٌّ على تقليده ، مصمَّم على جهله <sup>(٢)</sup> .

إنَّ أفعال العباد - وفقًا لـ(النظامية) - واقعة بقدرة العبد إيثارًا واختيارًا واقتدارًا ، وقدرة العبد مؤثرة في وجود مقدورها ، كلُّ ما في الأمر أن تلك القدرة مخلوقة لله

(١) الإرشاد : ص ٢١٤ .

(٢) العقيدة النظامية : ص ٤٤ ، ط . القاهرة ، ١٩٧٨ م .

تعالى ، وهي بهذه المثابة غير مستقلة في إيجاد مقدورها ، فلا يمكن القول بأن العبد خالق لأفعاله ؛ لأن مردّ الخلق إليه تعالى ، أليس هو سبحانه الذي خلق قدرته هذه ، واخترعها وأوجدها؟

ولا يمكن القول أيضاً بأنه لا أثر للعبد ولا لقدرته في فعله ، تشبيهاً للقدرة بالعلم الذي لا يؤثر في معلومه ، (فهذا خروج عن حدّ الاعتدال إلى الالتزام الباطل المحال ، وفيه إبطال للشرع ، وردّ لما جاء به النبيون - عليهم السلام) ، ولا يمكن القول أخيراً بأن فعل العبد واقع بالقدرتين معاً : القديمة والحديثة ، فالفعل الواحد لا يتبعّض ، ولا ينقسم .

وتعتريك الدهشة حين تراه في (النظامية) يهاجم (الكسب) هجوماً صريحاً ، فهو يقول : (لا ينجّي من هذا البحر المتلاطم ذكر اسمٍ ولقبٍ مجردٍ من غير تحصيل معنى ، كأن يقول قائل : العبد مكتسب ، وأثر قدرته الاكتساب ، فيقال له : ما الكسب؟ وما معناه؟) <sup>(١)</sup> .

وتعتريك الدهشة حين تراه - في النظامية - يتسلّح ببعض أسلحة المعتزلة ، التي طالما سدّد لها سهام النقد في (الإرشاد) ، كحديثه مثلاً عن الشبهة المتعلقة بمناط الثواب والعقاب ، والمدح والذم ، حيث يكون نصيب العبد من الفعل هو مجرد الكسب ، والتي تخلص من تبعاتها بما محصله : (أن الله تعالى أن يفعل ما يشاء) ، فإذا به في (النظامية) يقول : (فإن زعم زاعم ممن لم يوفّق لمنهج الرشاد : أنه لا أثر لقدرة العبد في مقدوره أصلاً ، فإذا طوّل بمتعلّق طلب الله تعالى بفعل العبد تحريماً وفرضاً ، ذهب في الجواب طويلاً وعرضاً ، وقال الله أن يفعل ما يشاء ، ولا يتعرّض للاعتراض عليه المعترضون : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) . قيل : ليس لما جئت به حاصل ، كلمة حق أريد بها باطل ، نعم : يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولكن يتقدّس عن الخلف ، ونقيض الصدق) <sup>(٢)</sup> .

(٢٠١) العقيدة النظامية : ص ٤٤-٤٧ .

وتعتريك الدهشة حين تراه في (البرهان) ينبذ الكسب على عجل قائلاً : (إن العبد عند الأشعري مطالب بما هو من فعل ربّه ، ولا ينجي من ذلك تمويه المعتقد بذكر الكسب) <sup>(١)</sup> . ١ هـ <sup>(٢)</sup> .

فهذا هو موقف إمام الحرمين في القضية التي كانت مأخذ ضعف مذهب الأشعري في قضية أفعال العباد ، وهي الآن تسلم للأشعري وأتباعه بهذه الوقفة العنترية من إمام الحرمين .

### ● رجوعه عن التأويل وعلم الكلام :

ونختم بما ذكرناه في بحثنا عن ترجمة إمام الحرمين بين المؤرخين الكبيرين : الذهبي والسبكي ، ولعل أظهر ما اشتهر به إمام الحرمين عند الناس هو : علم الكلام ، فهو أبرز أشعري بعد الأشعري ، بل هو الذي وصف بأنه (إذا تكلم ، فالأشعري شعرة من وفرة!) ، وهو الذي قالوا عنه : المؤسس الثاني للمذهب الأشعري .

ومن هنا كان أول ما نشر من كتبه : الكتب الكلامية ، مثل (الشامل) ، و(الإرشاد) ، و(اللمع) ، وتأخر نشر كتابه (البرهان) في أصول الفقه ، و(الغياثي) في السياسة الشرعية عنها ، كما تأخرت (النظامية) وحدها في أصول الدين أما كتابه الذي توفر عليه في أواخر سني عمره ، وهو : (نهاية المطلب في دراية المذهب) ، فلم يرَ النورَ بعدُ ، ويوشك أن يكون ، بفضل الله تعالى ، ثم بجهد أخينا الدكتور عبد العظيم الديب ، الذي يسعى من سنين طويلة لتحقيقه ، فشكر الله سعيه ، وبارك جهده .

كان إمام الحرمين أشعرياً قحاً في أول أمره ، محامياً عن الأشعرية ، كما عرفت عند الناس ، لا كما جاء عن الأشعري في عدد من كتبه ، ولا سيما (الإبانة في أصول الديانة) ، التي حققتها الدكتورة فؤيدة محمود ، و(رسالة أهل الثغر) ، التي حققها أخونا وصديقنا الدكتور الجليند .

---

(١) البرهان : فقرة ٢٧ المجلد الأول .

(٢) انظر : (تطور الفكر الكلامي عند إمام الحرمين الجويني) ص ١٩-٢٦

وقد ذكر الإمام الذهبي موقفًا لإمام الحرمين في الدفاع عن موقف الأشعرية في قضية (أفعال العباد) ، ومن المعلوم للدارسين أن موقف الأشعري في ذلك من أضعف المواقف ، حتى ضرب به المثل في الخفاء ، فقليل : أخفى من كسب الأشعري! وقيل : ثلاثة من محالات الكلام : طفرة النظام ، وكسب الأشعري ، وأحوال أبي هاشم .

والعجيب أن السبكي لم يعقب على هذا الموقف ، مع أنه لم يدع شيئًا من هذا اللون مما ذكره الذهبي إلا تعقبه بعنف ، بل بتجريح! والحق أن من الفضائل التي تميز بها إمام الحرمين ، وتبدو لكل من درس حياته وتراثه بلا تعصب له ولا عليه : الإخلاص في طلب الحقيقة ، عن طريق العقل الناقد ، والشرع الضابط ، فإذا كشفت له الحقيقة قناعها ، ومدت له شعاعها ، بادر إلى الإيمان بها واعتناقها ، والإعلان عنها ، بشجاعة لا نظير لها ، وإن كانت مخالفة لما عليه الجمهور ، أو ما عليه المذهب ، وما مضى عليه دهرًا من حياته ، وقضى سنين عددًا وهو يدرسه ويصنّف فيه ، ويدود عنه ، ويحث على أتباعه .

وهذا واضح في مذهبه (العقدي) أكثر منه في مذهبه الفقهي . فمن المعروف والمشهور : أن إمام الحرمين كان من كبار متكلمي الأشاعرة ، المؤولين لآيات الصفات وأحاديثها ، المدافعين عن التأويل . وقد برز في (علم الكلام) ، واشتهر به ، وصنف فيه التصانيف التي سارت بذكرها الركبان ، مثل : (الشامل) ، و(الإرشاد) ، و(اللمع) ، وغيرها ، وأخذ عنه هذا العلم كثيرون من تلاميذه النوابغ . وكان يتكلف في تأويله ، والدفاع عن مذهبه الأشعري ، إلى حد الاعتساف أحيانًا ، الذي لا يرضاه المنصفون . وهذا شأن البشر .

### ● ما جرى بينه وبين ابن برهان :

وقد ذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي في (سير الأعلام) ما جرى بينه وبين أبي القاسم بن برهان من مناظرة في (أفعال العباد ، وقضية الجبر والاختيار) . وهو ما نقله عنه العلامة الحنبلي ابن عقيل في (فنون) ، قال : قال عميد الملك : قدم أبو المعالي ، فكلم أبا القاسم بن برهان في العباد : هل لهم أفعال ؟ فقال



أبو المعالي : إن وجدت آية تقتضي ذا ، فالحجة لك ، فتلا : ﴿ وَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٣). ومدَّ بها صوته وكرَّر : ﴿ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٤٢) . أي : كانوا مستطيعين ، فأخذ أبو المعالي يستروح إلى التأويل . فقال (أي : ابن برهان) : والله إنك بارد . تتأول صريحَ كلام الله ، لتصحح بتأويلك كلامَ الأشعري!! وأكله ابنُ برهان (أي : أعياه) بالحُجَّة ، فُبِهَتْ<sup>(١)</sup> .

هكذا كان أبو المعالي إمام الحرمين ، دهرًا من حياته ، ولا غرو أن اعتبره بعض الباحثين المؤسس الثاني للمذهب الأشعري ، وكتب أستاذنا الشيخ (على جبر) في كلية أصول الدين رسالة الأستاذية له عن (إمام الحرمين : باني الأشعرية الحديثة) ، وإن لم نرَها مطبوعة .

ولكن الله شرح صدرَ إمام الحرمين للحق ، فوجدناه في أواخر حياته قد غيَّر نهجه ، ورجَعَ عن طريقِ التأويل - طريقِ الخلف - إلى طريقِ السلف في ترك الخوض ، والانكفاف عن التأويل ، ولم يستنكف عن إعلان ذلك بكل صراحة وجلاء ، وهو ما ذكره في (الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية)<sup>(٢)</sup> .

قال إمام الحرمين بصريح العبارة :

اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق فحواها ، وإجراؤها على موجب ما يبرزه أفهام أرباب اللسان فيها . فرأى بعضهم تأويلها ، والتزام ذلك في القرآن وما يصحُّ من السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردِها ، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى . والذي نرتضيه رأيًا ، وندين الله به عقدًا : اتِّباعُ سلفِ الأمة ، فالأولى الاتِّباع ، وترك الابتداع .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٦٩/١٤ .

(٢) طُبعت في القاهرة بتحقيق المحدث الفقيه الحنفي التركي المعروف الشيخ محمد زاهد الكوثري. وقد طُبعت تحت عنوان (العقيدة النظامية) ويبدو أن الذي طبع منها فقط هو جانب العقيدة ، وهو ما وُجِدَ منها ؛ إذ لم يُعثر على باقيها إلى الآن.

والدليل السمعيّ القاطع في ذلك : أن إجماع الأمة حُجَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، وهو مُسْتَنَدٌ معظمُ الشريعة ، وقد دَرَجَ صَحْبُ الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرُّض لمعانيتها ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يَأْلُون جهداً في ضبط قواعد المِلَّةِ ، والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة . فإذا تصرَّم عصرهم ، وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعاً بأنَّه الوجه المتَّبَعُ . فحقُّ على ذي الدين : أن يعتقد تنزُّه الباري عن صفات المُحدِّثين ، ولا يخوض في تأويل المشكلات ، ويكلِّل معناها إلى الربِّ . وعند إمام القراء وسيدهم الوقف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٧) . من العزائم ، ثمَّ الابتداء بقوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ٧) .

ومما استحسَن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس : أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥) . فقال الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

فليجرب آية الاستواء والمجيء<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) . و﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن: ٢٧) . و﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر: ١٤) . وما صحَّ من أخبار الرسول ، كخبر النزول وغيره : على ما ذكرناه ، فهذا بيان ما يجب لله .<sup>(٢)</sup> وقال الذهبي : قال الحافظ محمد بن طاهر : سمعت أبا الحسن القيرواني الأديب - وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي في الكلام - فقال : سمعت أبا المعالي اليوم يقول : يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ، ما اشتغلت به .<sup>(٣)</sup>

(١) آية المجيء قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢) .

(٢) العقيدة النظامية : ص ٢٣ ، ٢٤ . وقد نقل هذا النصَّ الذهبيُّ في (الأعلام) ٤٧٣/١٨ ، ٤٧٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٧٣/١٨ .

وقد علّق السُّبُكِيُّ على هذا القول ، فقال : يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة على إمام الحرمين ، وابن طاهر عنده تحاملٌ على إمام الحرمين ، والقيرواني المشار إليه : رجل مجهول .

كل الأقوال تؤكّد رجوعه إلى قول السلف ، وتمنيّه الموت على دين العجائز :

ولكن يعكّر على هذا ما نقله الموشيلي عنه ، ولم يتعقّبهُ السُّبُكِيُّ ، ثم الأقوال الأخرى لإمام الحرمين في رجوعه إلى طريق السلف : تؤكّد صحّة هذه الرواية ، كما أن روايات الحُفَاط لا تسقط بمثل التّهم التي ذكرها السُّبُكِيُّ . وأيُّ تحامل على إمام الحرمين في هذه الرواية؟! بل فيها ما يرفع من قدره ، ويعلي من شأنه .

وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرُّسْتَمِي ، قال : حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه ، قال : دخلتُ على أبي المعالي في مرضه ، فقال : اشهدوا عليّ أنّي قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة ، وأنّي أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور<sup>(١)</sup>.

وقد أقرّ السُّبُكِيُّ هذه الرواية ، ولم يعترض عليها .

قال الذهبي :

وقرأت بخطّ أبي جعفر (محمد بن علي) : سمعتُ أبا المعالي يقول : قرأتُ خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم خلّيتُ أهلَ الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبتُ البحرَ الخِضَمَ ، وغصتُ في الذي نهى أهلُ الإسلام عنه ، كلُّ ذلك في طلب الحقِّ ، وكنتُ أهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن فقد رجعتُ إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحقُّ بلطيف برّه ، فأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبةُ أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله ، فالويل لابن الجويني<sup>(٢)</sup> ! يعني : نفسه .

(١) أعلام النبلاء : ٤٧٤/١٨ ، وطبقات السُّبُكِيِّ : ١٩١/٥ .

(٢) الخبر في (المنتظم) لابن الجوزي : ١٩/٩ ، و(طبقات الشافعية) للسُّبُكِيِّ : ٥٨٥/٥ .

يقصد بالذي نَهَى عنه الإسلام : (علم الكلام) ، فقد نهى عنه إمامه الشافعي ، ونهى عنه مالك وأحمد ، وغيرهم من الأئمة .

ويبدو أنه تأوّل كلام أهل الإسلام ، أنهم نهَوْا مَنْ يُخاف عليه السباحة في هذا البحر الخضم ، ويخشى عليه من الغرق ، وهو كان يرى نفسه أقوى من ذلك .

كما قصد بتخلية أهل الإسلام وعلومهم الظاهرة : أنه دخل في العلوم العقلية والفلسفية ، وتغلغل فيها ، ولم يشتغل بالعلوم النقلية من الحديث والآثار ونحوها ، كما اشتغل بها غيره .

### اعتذار الإمام عن اشتغاله بعلم الكلام :

وهذا القول من هذا الإمام الكبير ، الذي أنفق عمره في هذا اللون من الثقافة العقلية ، التي امتزجت بفلسفة اليونان وجدلياتهم ، التي لا تنفع غليلاً ، ولا تهدي سبيلاً . هذا القول يؤكد أن لا طريق أهدى ولا أجدى من طريقة القرآن في تأسيس العقيدة ، وهي الأقرب إلى الفطرة ، والألصق بالعقل والوجدان ، وهو ما كان عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان . وإنما يُستفاد من (علم الكلام) في الدفاع عن العقيدة في مواجهة المخالفين من أصحاب الأديان والفلسفات الأخرى ، والفرق المبتدعة .

وهو ما وضّحه من بعد ، تلميذه حُجّة الإسلام الغزالي ، حين بيّن أن (علم الكلام) : علم مُحَدَث ، أريد به حراسة عقائد العوام من تشويش المبتدعة .

وقال في (الإحياء) : اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي انتُفع بها ، فالقرآن والأخبار (أي : الأحاديث) مشتملة عليه . وما خرج عنهما ، فهو إما مجادلة مذمومة ، وهي من البدع . . . وإما مشاغبة بالتعلّق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها تُرّهات وهزيانات ، تزدريها الطبائع ، وتمجّها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلّق بالدين ، ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغيّر الآن حكمه ، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبتت جماعة لفّقوا

لها شبهًا ، ورتّبوا فيها كلامًا مؤلفًا ، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذونًا فيه ، بل صار من فروض الكفايات . وهو القدر الذي يُقَابَل به المبتدع ، إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حدٍّ محدود<sup>(١)</sup> .

فلا غرو أن يُروى عن إمام الحرمين ما رُوِيَ من البراءة من (علم الكلام) والعودة إلى طريقة القرآن .

وقد اجتهد العلامة تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى : أن ينحو بهذا الكلام الجليّ الواضح من إمام الحرمين ، منحى آخر غير ما يتبادر منه ، ودفاعًا منه عن (علم الكلام) الموروث ، ووجه كلمات هذا الإمام العظيم الشجاع المخلص ، إلى معانٍ متكلّفة ، لا ينشرح لها الصدر .

وتحامل السبكي على شيخه الإمام الذهبي تحاملاً لا يُقبل من مثله في مثله . فالواقع أنني ما رأيت مؤرخًا منصفًا مثل الذهبي ، حتى مع أعلام المعتزلة وأمثالهم ، بل حتى مع بعض الملاحدة والمنحرفين كُليةً عن الدين .

**سبق إمام الحرمين الأشعريُّ ولحقه الغزاليُّ والرازي :**

على أن إمام الحرمين ليس هو وحده الذي انتهى إلى رفض التأويل ، وترجيح مذهب السلف ، وتفويض حقائق هذه الألفاظ ومعانيها إلى الله تعالى . فقد رجع من قبله شيخه أبو الحسن الأشعريُّ في كتابه (الإبانة) وفي (رسالته إلى أهل الثغر) وغيرهما . ورجع من بعده تلميذه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، وذلك في كتابه : (إلجام العوام عن علم الكلام) .

ولكن موقف شيخه إمام الحرمين كان أصرَحَ وأوضحَ ، فإن الغزالي اعتبر (علم الكلام) شأنًا الخواصَّ ، وجمهرة العلماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين ، وغيرهم يُعتبرون من العوام في هذا الأمر عند الغزالي . أما الخواصَّ ، فقد يوجد في كل عصر منهم واحد ، أو اثنان .

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٢/١ ، ٢٣ ط . دار المعرفة ، بيروت .

ورجع بعد ذلك : الفخر الرازي ، الذي كان من أكبر المحامين المدافعين عن التأويل ، وصنّف فيه أكثر من كتاب ، مثل : (تأسيس التقديس) وغيره . ثم قال في الطور الأخير من حياته العلمية :

(لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي غليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن : اقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥) . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر: ١٠) . وقرأ في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) . ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي)!(<sup>(١)</sup>)

وجاء في (طبقات الشافعية) لابن قاضي شهبه : (٨٢/٢) ما نصّه : قال ابن الصلاح : أخبرني القطب الطوغاني مرتين : أنه سمع فخر الدين الرازي يقول : يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى .(<sup>(٢)</sup>)

قال الإمام الشوكاني في (إرشاد الفحول) : وهؤلاء الثلاثة ، أعني : الجويني والغزالي والرازي ، هم الذين وسّعوا دائرة التأويل ، وطوّّلوا ذيوله ، وقد رجعوا آخراً إلى مذهب السلف ، كما عرفت ، فله الحمد ، كما هو أهله .(<sup>(٣)</sup>)

إمام الحرمين يدعو المسؤولين أن يحملوا الأمة على مذهب السلف :  
على أن إمام الحرمين لم يكتفِ بالرجوع إلى مذهب السلف نظرياً ، بل حثّ الأئمة والمسؤولين عن قيادة الأمة - والمحافظة على الدين أول واجباتهم - أن يجعلوا مذهب السلف ، ونهجهم في تعلم التوحيد : هو ما ينبغي أن يُعلّم للكافة .  
أكّد في (الغياثي) : (أن الذي يحرص الإمام عليه : جمعُ عامة الخلق على مذهب السلف السابقين ، قبل أن نبغ الأهل ، وزاغت الآراء : وكانوا رضي الله

(١) سير النبلاء : ٥٠٠/٢١ .

(٢) ذكر ذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في مقدمته لكتاب : (أقاويل الثقات) ص ٢٢ ،

ط مؤسسة الرسالة .

(٣) إرشاد الفحول : ٤٩/٢ بتحقيق الدكتور شعبان محمد إسماعيل .

عنهم ينهون عن التعرّض للغوامض ، والتعمّق في المشكلات ، والإمعان في ملابسة  
المعضلات ، والاعتناء بجمع الشبهات ، وتكلف الأجوبة عما لم يقع من  
السؤالات ، ويرون صرف العناية إلى الاستحاثات على البر والتقوى ، وكفّ الأذى ،  
والقيام بالطاعة حسب الاستطاعة ، وما كانوا ينكفون - رضي الله عنهم - عما  
تعرّض له المتأخرون : عن عيٍّ وحصر ، وتبلد في القرائح . هيهات ! فقد كانوا  
أذكى الخلائق أذهاناً ، وأرجحهم بياناً ، ولكنهم استيقنوا أن اقتحام الشبهات ، داعية  
الغوايات ، وسبب الضلالات ، فكانوا يحاذرون في حق عامة المسلمين ما هم الآن  
به مُبتَلون ، وإليه مدفوعون ، فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الأسلم<sup>(١)</sup>.

ونعم ما أوصى به هذا الإمام :

فكلُّ خَيْرٍ في اتِّباعٍ مَنْ سَلَفَ      وكلُّ شَرٍّ في ابتداء مَنْ خَلَفَ

كلمة أخيرة عن إمام الحرمين :

كل الذين كتبوا عن إمام الحرمين ، قد رحبوا بهذه التطورات الكبيرة في فكره  
الأشعري ، لأنهم يعرفون مقام الرجل ، في تأييد المذهب الأشعري ، وأن قامته فيه  
قامة عالية لا تسبقها ولا تطاولها قامة ، ولذلك إذا غيّر في مفاهيمه ، وبَدّل في  
مسلماته ، وراجع كثيراً من قضاياه ، فلا شك أن يكون لهذا أكبر الأثر على  
المذهب ، إذا تنبه أهله لهذا التغير الجارف .

وتكون هناك مشكلة حقا إذا لم يحدث التنبيه الكافي لما صنعه هذا الإمام  
المنصف الشجاع ، وخصوصا أن رجال المذهب وأساطينه حاضرون جاهزون في  
مختلف الأقطار والبلدان . وكتب إمام الحرمين الأصلية الكلامية ، مثل ( الإرشاد )  
و ( الجامع ) ، و ( اللمعة ) موجودة ، وهي كبيرة وواسعة وعميقة ، وتحمل الفكر  
القديم للإمام ، وتناطح عنه بكل قوة ونصاعة .

ومن عجائب القدر : أن إمام الحرمين لم يفسح له في العمر ، كما أشرنا من  
قبل ، فكل ما عاشه ( ٥٧ ) سنة شمسية ، ولعل القدر لو أمهله لأرانا العجائب ، في

---

(١) انظر : الغياثي : فقرة ( ٢٨٠ ) بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب .

توسيع نطاق ما ذهب إليه ، وشرحه والدفاع عنه ، وإمداده بأقوال أخرى . ولكن هذا هو قدر الله .

ولقد رأيت في هذه السنين الإخوة من كبار علماء الأزهر ، المهتمين بالجانب العقائدي والأشعري ، والذين خدموا فكر الإمام ، كالدكتور القوصي ، الذي كتب رسالته الوجيزة ، عن تطور الفكر الكلامي عند إمام الحرمين ، التي خالف فيها الإمام الأشاعرة من قبله ، بمثل التي خالف فيها نفسه ، فيما انتهى إليه في سائر كتبه المتقدمة ، من القضايا المعروفة للدارسين والمهتمين .

ولكن القوصي لم يرضَ أن يسلم طائعا بأن إمام الحرمين تغير من داخله تغيرا كليا ، جعله شخصا آخر ، وأنشأه خلقا آخر ؛ بل لا يزال خائفا أو مترددا ، أو متحيرا ، وكثيرا ما يورد الأسئلة ، ثم يقول : أقول : لا جوابَ قاطعٍ عندي ، وسيظل باب الاحتمالات مفتوحا !  
وكذلك قال في نهاية كتيبه .

ورأيي أن الرجل - أعني الإمام - قد قطع فيما انتهى إليه ، وأوصل إلينا رأيه واضحا هاديا . فقد حصص الحق ، وبان الصبح لذي عينين ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (يونس: ٣٢) . فلنسلم للرجل ، ولندعُ له بالخير فيما أنجز ، ولندع للمسلمين في كل مكان أن ينتفعوا بآخر ما وصلوا إليه ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (يونس: ٢٥) .

\* \* \*





الناري الشبائي

# الفهرس

| الموضوع                        | الصفحة |
|--------------------------------|--------|
| من الدستور الإلهي للبشرية..... | ٣      |
| من مشكاة النبوة الخاتمة.....   | ٥      |
| الأصل الثامن عشر.....          | ٧      |
| الأصل التاسع عشر.....          | ٧      |
| مقدمة.....                     | ٩      |

(١)

## الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر والعلم (١٥-٣٤)

|                                                |    |
|------------------------------------------------|----|
| الإسلام يحرر العقل.....                        | ١٥ |
| تحرير العقل من أسر الخرافات والأباطيل.....     | ١٥ |
| التحرير العقلي من أسر التقليد.....             | ١٧ |
| أ- التحرير من قيد اتباع الآباء.....            | ١٧ |
| ب - تحرير العقل من قيد السادة والكبراء.....    | ١٨ |
| ج - تحرير العقل من سلطان الأساتذة والشيوخ..... | ٢٠ |
| د - تحرير العقل من اتباع العامة.....           | ٢٢ |
| الإسلام يحث على النظر في الكون.....            | ٢٤ |
| الإسلام يرفع قدر العلم والعلماء.....           | ٣١ |
| أقسام العلم وأنواعه.....                       | ٣٤ |

(٢)

## أول ما يطلب من المسلم علم الدين (٣٥-٥١)

|                  |    |
|------------------|----|
| علم التفسير..... | ٣٥ |
| علم الحديث.....  | ٣٦ |

|    |                                       |
|----|---------------------------------------|
| ٣٧ | علم الفقه.....                        |
| ٣٨ | ألوان الفقه المطلوبة للأمة اليوم..... |
| ٤٠ | علم أصول الفقه.....                   |
| ٤٢ | علم الكلام.....                       |
| ٤٣ | علم التصوف.....                       |
| ٤٦ | علم السيرة والتاريخ الإسلامي.....     |
| ٤٨ | الواجب في علوم الدين.....             |
| ٤٩ | علوم الدنيا إلى جانب علوم الدين.....  |

### (٣)

#### انقسام العلوم إلى ما هو نقلی

#### وما هو عقلي

(٥٣-٦٥)

|    |                                                     |
|----|-----------------------------------------------------|
| ٥٥ | من علمائنا من جمع بين النقلی والعقلي من العلوم..... |
| ٥٧ | موقف الغزالي بين العقل والنقل.....                  |
| ٦٣ | دور العقل في مجال الشرعيات (أو العمليات).....       |

### (٤)

#### العلم المذكور في القرآن والسنة

#### يشمل علم الدين وعلم الدنيا

(٦٧-١٠٣)

|    |                                       |
|----|---------------------------------------|
| ٦٨ | شمول العلم وتنوعه في لسان القرآن..... |
| ٦٩ | تعليم آدم الأسماء كلها.....           |
| ٧٠ | علم يوسف تأويل الأحاديث.....          |
| ٧٢ | علم موسى عندما بلغ أشده واستوى.....   |
| ٧٢ | علم داود وسليمان.....                 |
| ٧٣ | علم الذي أحضر عرش بلقيس من اليمن..... |
| ٧٤ | علم طالوت.....                        |

|    |                                                               |
|----|---------------------------------------------------------------|
| ٧٤ | ..... استخدام لفظة (العلم) ومشتقاتها في غير العلم الديني..... |
| ٧٩ | ..... أكثر الناس لا يعلمون.....                               |
| ٨٠ | ..... العلم عند سلف الأمة.....                                |
| ٨٠ | ..... والعلوم تنقسم قسمين : ضروري ، ومكتسب.....               |
| ٨١ | ..... المعلومات على ضربين : شاهد ، وغائب.....                 |
| ٨٤ | ..... تكوين العقلية العلمية في القرآن.....                    |
| ٨٥ | ١- رفض الظن في موضع اليقين.....                               |
| ٨٧ | ٢- عدم اتباع الأهواء والعواطف في مجال العلم.....              |
| ٨٨ | ٣- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف.....                    |
| ٩٠ | ٤- رفض التبعية للسلادة والكبراء.....                          |
| ٩٢ | ٥- التعبد بالنظر العقلي.....                                  |
| ٩٧ | ٦- لا تقبل دعوى بغير برهان.....                               |
| ٩٩ | ٧- رعاية سنن الله في الكون والمجتمع.....                      |

(٥)

## الموازنة بين العقل والنقل

(١٥١-١٠٥)

|     |                                                                       |
|-----|-----------------------------------------------------------------------|
| ١٠٥ | ..... المقصود بالعقل.....                                             |
| ١٠٧ | ..... المقصود بالنقل.....                                             |
| ١٠٨ | ..... مواقف الناس من العقل والنقل.....                                |
| ١٠٨ | ..... أولا : المبالغون في العقلانية.....                              |
| ١١٤ | ..... عقلانية المعتزلة.....                                           |
| ١١٧ | ..... ثانيا : المبالغون في اعتبار النقلانية.....                      |
| ١٢٠ | ..... لوازم عقلية للمسرفين في النقلية.....                            |
| ١٢١ | ..... ثالثا : التيار الوسطي ، ووضع الضوابط المنهجية للتعامل مع النصوص |
| ١٢٢ | ..... أ- قطعية ثبوت النص القرآني.....                                 |

|     |                                                                     |
|-----|---------------------------------------------------------------------|
| ١٢٣ | ب - التثبت من صحة الحديث.....                                       |
| ١٢٧ | ج - وصل النصوص الجزئية بالمقاصد الكلية.....                         |
| ١٢٨ | د - لا تعارض بين عقل صريح ونقل صحيح.....                            |
| ١٢٨ | هـ - الإيمان بسنن الله ورفض المبالغة في تصديق الخوارق والأوهام..... |
| ١٢٩ | و - فهم السنة في ضوء القرآن.....                                    |
| ١٣٠ | ز - ربط النصوص بعضها ببعض.....                                      |
| ١٣٠ | ح - عصمة مجموع الأمة من الضلالة.....                                |
| ١٣٢ | الاختلاف في دلالة النص.....                                         |
| ١٣٢ | مكانة العقل في الإسلام.....                                         |
| ١٣٥ | العقل أساس النقل.....                                               |
| ١٣٦ | عناية القرآن بالعقل فعلا وقوة.....                                  |
| ١٣٧ | شهادات المنصفين من المفكرين الغربيين.....                           |
| ١٣٧ | شهادة جاك بيرك.....                                                 |
| ١٣٧ | شهادة ماكسيم رودنسون.....                                           |
| ١٤٠ | اللاهوت القرآني في دقة الرياضيات.....                               |
| ١٤٠ | ٢- حاجة البشر إلى الوحي.....                                        |
| ١٤١ | هل يغنى الفلاسفة عن الأنبياء؟.....                                  |
| ١٤٢ | ركام الفلسفات وتناقضاتها.....                                       |
| ١٤٤ | حصار الفلسفة.....                                                   |
| ١٤٦ | ٣- هل ألغى الوحي دور العقل؟.....                                    |
| ١٤٦ | الوحي لم يلغ دور العقل.....                                         |
| ١٤٧ | ما تركه الوحي للعقل في مجال العقيدة.....                            |
| ١٤٩ | ما تركه الوحي للعقل في مجال التشريع.....                            |
| ١٥٠ | ما تركه الوحي للعقل في مجال الأخلاق.....                            |
| ١٥٠ | ما تركه الوحي للعقل في كشف آفاق الكون والحياة.....                  |

تردد العلم بين ما هو خاص  
وما هو عام  
(١٥٣-١٦٥)

|     |                                        |
|-----|----------------------------------------|
| ١٥٣ | علم تأويل الأحاديث.....                |
| ١٥٥ | العلم اللدني الذي منحه الله للخضر..... |
| ١٥٨ | موسى والخضر.....                       |

تردد العلم بين الظني والقطعي  
(١٦٧-٢٠١)

|     |                                                         |
|-----|---------------------------------------------------------|
| ١٦٧ | لا تناقض بين القطعيات.....                              |
| ١٦٨ | تعارض القطعي والظني.....                                |
| ١٦٩ | منكر القطعي يستتاب.....                                 |
| ١٦٩ | مبالغة بعض المتكلمين في التقليل من قطعية القرآن.....    |
| ١٧١ | نقض وصف النص القرآني بأنه محتمل.....                    |
| ١٧٣ | تعقيبات الرازي المهمة.....                              |
| ١٧٤ | غلاة المحدثين في مقابل غلاة المتكلمين.....              |
| ١٧٧ | موقفنا من مناقشات بعض الأقدمين حول القطعية والظنية..... |
| ١٧٩ | ممن نأخذ علمنا وبقيننا؟.....                            |
| ١٨٣ | الحقائق العلمية والنظريات العلمية عند سيد قطب.....      |
| ١٨٨ | السموات في نظر سيد قطب.....                             |
| ١٨٩ | رأينا فيما ذهب إليه سيد قطب.....                        |
| ١٨٩ | نتائج العلم تقريبية لا يقينية.....                      |
| ١٩٢ | أهمية النصوص القطعية في التفسير.....                    |
| ١٩٦ | تعليق الدكتور متولى على كلام الشيخ أبي زهرة.....        |
| ١٩٨ | الرد على هذه الدعوى.....                                |

|                                           |                                                                |
|-------------------------------------------|----------------------------------------------------------------|
| ١٩٨                                       | رد الشيخ محمد المدني.....                                      |
| ٢٠١                                       | تعليق الشيخ الغزالي.....                                       |
| (٨)                                       |                                                                |
| تيارات الفكر الإسلامي الأصيل              |                                                                |
| هل لها قدرة على التحول والتعديل والتغيير؟ |                                                                |
| (٢٠٣-٢٣٤)                                 |                                                                |
| ٢٠٤                                       | تغير إمام الحرمين.....                                         |
| ٢٠٤                                       | تغير الغزالي.....                                              |
| ٢٠٥                                       | ماذا عن التطور الفكري عند إمام الحرمين؟.....                   |
| ٢٠٨                                       | قضايا التطور الملحوظ في فكر الجويني.....                       |
| ٢٠٩                                       | رأي إمام الحرمين في إثبات حدوث العالم.....                     |
| ٢١١                                       | ما أصاب إمام الحرمين بسبب خروجه على الأشعري.....               |
| ٢١٢                                       | رأي إمام الحرمين في القول بالأحوال.....                        |
| ٢١٣                                       | إمام الحرمين ومسألة العلم بالجزئيات.....                       |
| ٢١٦                                       | والآن نبدأ في بيان أصل التهمة وسببها.....                      |
| ٢٢١                                       | قضية خلق أفعال العباد.....                                     |
| ٢٢٥                                       | رجوعه عن التأويل وعلم الكلام.....                              |
| ٢٢٦                                       | ما جرى بينه وبين ابن برهان.....                                |
| ٢٢٧                                       | قال إمام الحرمين بصريح العبارة.....                            |
|                                           | كل الأقوال تؤكد رجوعه إلى قول السلف ، وتمني الموت على دين      |
| ٢٢٩                                       | العجائز.....                                                   |
| ٢٣٠                                       | اعتذار الإمام عن اشتغاله بعلم الكلام.....                      |
| ٢٣١                                       | سبق إمام الحرمين الأشعري ولحقه الغزالي والرازي.....            |
| ٢٣٢                                       | إمام الحرمين يدعو المسؤولين أن يحملوا الأمة على مذهب السلف.... |
| ٢٣٣                                       | كلمة أخيرة عن إمام الحرمين.....                                |
| ٢٣٥                                       | الفهرس.....                                                    |



النَّارِي السَّيَّي